
رواية
كُلُّ ذِكْرَى
ذائِقَةُ المَوْت
فهمي سعيد الشيخو
سطور
للنشر والتوزيع

كل ذكرى

ذائقة الموت



كل ذكرى ذائقة الموت

فهمي سعيد الشيخو

EVERY MEMORY OF THE TASTE OF DEATH

Fahmy Said Al _ Shaikho

الطبعة الأولى: 2017

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا

- 07700492576 - 07711002790 :هاتف email: bal - alame@yahoo.com

First Published by Dar Sutour For Publishing and Distribution

Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 296 - 7

فهمي سعيد الشيخو

كل ذكرى

ذائقة الموت



إهـــداء

الى تلك التي أسرت قلبي في سجنٍ بلا قضبان
و وضعتني فيه حراً طليقاً دونما قيدٍ ولا سجّان

يافا.....

كم كان جميلا ذلك اليوم، حين تكلمنا لاول مرة..

إنتظرتكِ حينها حتى وقت الخروج.

كنت أنظر اليكِ وانتِ تبتعدين شيئا فشيئا..

بتلك الخطوات الهادئة، كهدوء ملامح وجهك الجميل..

واقول للايام ماذا تخبئين لنا؟..

هل ستهبينني اياها؟..

ام أنك رضعتي القسوة من الحياة؟!.

يافا....

ها أنا اليوم، ادفن الذكريات بين سطور الرواية..

بتناغم ترتيب القبور على باحة المقبرة...

وأضع حجراً على رأس كل ذكرى بيننا..

واكتب عليه «كل ذكرى ذائقةُ الموت»..

أمَّـا قبل..

ما بال هؤلاء الناس يكرهون الانتظار، أُنظر إلى وجوههم العابسة، كمٌّ من الهواء الحار يخرجونه من أعماقهم مع نطق تلك الكلمة المحرمة قولها للوالدين «اوووف»، على الرغم من أن حياتهم مليئة به منذ ولادتهم لحين انقضاءها..الانتظار في مواقف السيارات، الانتظار في دكان الحلاقة، الانتظار في دوائر الدولة الانتظار على باب المخبز، حتى الانتظار على أبواب الحمامات.

ما بالهم وهم هكذا، فهو جزء أساسي من هذه الحياة، لا العبوس يقضي عليه ولا الضجر يخفف عنا شيئاً منه، هناك في الحياة أمور نحن مُجبرين عليها، لا يمكن لأي ردة فعل أن تغيرها إطلاقا. الغريب في الامر أننا نكره كل شيء نُجبر عليه إلا شيء واحد أُجبرنا عليه ونحبه حبا كبيراً، إسمه «الحياة» كل مخلوق فيها خُلِق جبراً، الله سبحانه لم يسأل أحداً منا قبل خلقه إياه.

لكن مالذي جعلنا نحب هذه الحياة إلى هذا الحد ونحن مُجبرين عليها، على الرغم من أننا ولدنا ونحن نصرخ، والكل حولنا يتسمون فرحا، وهم أيضا قد صرخوا يوم ولادتهم، فإن لم تعجبهم هذه الحياة فلماذا كانوا فرحين بقدومنا اليها!. كيف إستطعنا تحويل أمر محتوم

علينا من الكره والصراخ إلى تلك الابتسامات المفرحة!. لا بل التمسك فيها بكل ما أوتينا من قوة، جرّب وإذكر الموت أمامهم، ترى الشحوب ظاهراً على وجوههم، لكن أليس الموت هو الشيء الوحيد الذي يستطيع أن ينجينا من هذه الحياة!، نعم الحياة التي أجبرنا على العيش فيها، فلماذا نكره هذا المنقذ ونهابه!. ثم ألم تكن التجربة الاولى لنا في تغيير مسار تفكيرنا نحو الرضا بالامر الواقع في أعظم أمرٍ حصل لنا؟. فما قيمة الانتظار امام الحياة التي استطعنا التغلب عليها.

كفاكم عَبَساً وضجراً، دعونا نعيش أخر لحظات الاثنتا عشرة سنة من الدراسة بهدوء، ألم تتعبوا من تلكم الايام والضغوطات النفسية والدراسة حتى الفجر. صبرتم آلاف الساعات حتى وصلتم إلى هذا اليوم، ما بالكم لا تستطيعون التحمل لدقائق قليلة!. لا تخشوا شيئاً، هذا ليس آخر إنتظار في حياتكم، لربما هو بداية لانتظارات أقسى، وأكثر أثراً في نفوسكم.

كنا واقفين حينها أمام أحد مكاتب الانترنت في مدينة الموصل، ننتظر القبولات المركزية لكل جامعات العراق، بعدما أكملنا الدراسة الثانوية.

أذكر أنني قدمت لهذه المدينة لاول مرة قبل أكثر من تسع سنوات في رحلة مدرسية عندما كنت في الابتدائية. اصطحبنا في تلك الرحلة احد معليمنا المميزين «الاستاذ ابراهيم»، كنا نناديه ب»بالمعلم»، كان يتكلم عن هذه المدينة العريقة بشكل جميل جدا كأنه قد حفظ تاريخها عن ظهر قلب، كلما زرنا معلماً من معالمها كان يحكي لنا قصة عنه.

أذكر عندما وصلنا «مرقد نبي الله يونس» الذي يقع في الجهة الشرقية لنهر دجلة «الجانب الايسر» كما يطلق عليه اهل المدينة.

صعد الأستاذ ابراهيم على أحد المدرجات الكبيرة التي تحيط بالمرقد بشكل نصف دائري، لان قبر النبي يونس يقع على تلة مرتفعة وبدأ يُشير بيده إلى المرقد ونحن نستعد للاستمتاع بقصة أخرى من قصصه الشيقة.

بدأ يحكي لنا قصة النبي يونس مع قومه، وكيف آمن به قومه جميعاً، ثم ذكر انهم القوم الوحيدون الذين ذكرهم القرآن وقد آمنوا بنبيهم جميعا، فيا له من تشريف لنا نحن أهل نينوى، ثم ذكر ما أثبته نبينا محمد أن أهل نينوى هم قوم يونس عندما قَدِم الخادم عدّاس إليه وفي يديه وعاء فيه عنب بعدما رشقه اهل الطائف بالحجارة، ثم لما أراد النبي أن يأكل العنب فقال «بسم الله» ثم أكل، فنظر عداس في وجهه

وقال:

ـ والله إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد.

ـ ومن أهل أيِّ البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟.

نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى. ـ

ـ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟.

ـ وما يدريك ما يونس بن متى؟.

ـ ذاك أخي كان نبيًا وأنا نبي.

فأسلم عداس على يدي النبي صلى الله عليه وسلم.

فرحنا حينها نحن التلاميذ وتعالت الاصوات بهجة وسرورا بإسلام عدّاس بعد مرور عدة قرون، ماذا لو علم عدّاس أن هناك اطفالاً فرحوا بإسلامه بعد أربعة عشر قرناً، ماذا سيكون شعوره وهو يرى تلك

الابتسامات على وجوهنا؟. ثم، أيُّ صدق كان يحمل هو، حتى نال هذه المكانة العالية وما أعظم هذا الدين الذي رفع مثل هؤلاء المؤمنين وخلّد ذكرهم في الدنيا، وهم كانوا خدم عند ساداتهم.

كانت تلك الرحلة جميلة بكل تفاصيلها، وددت لو استطيع إعطاء ساعات أخرى من أيام عمري بغية إطالتها لأكثر وقت ممكن. كان المعلم ذو الملامح الابوية الحنونة، يتكلم معنا بلغتنا الخاصة فنحن من مدينة تبعد عن الموصل بسبعين كيلومترا باتجاه الغرب «مدينة تلعفر» التي يكون معظم سكانها او جميعهم من القومية التركمانية التي تعود أصولها إلى السلاجقة ومن بعدهم العثمانيون وهم يتكلمون باللغة التركية حالياً، لكن بلهجة مختلفة.

فعندما تدخل من بوابة هذه المدينة، ينتهي كل شيء له علاقة باللغة العربية، الكل فيها يتكلمون اللغة التركمانية، لكن بما أنهم يعيشون في دولة لغتها الاساسية «العربية» كانت المناهج الدراسية موحدة اللغة في كل البلاد.

كنت أستمع إلى زوار المرقد من أهل المدينة الذين يتكلمون اللغة العربية لكني كنت لا أفهم اغلب الكلمات، فنحن نتعلم في المدارس اللغة العربية الفصحى، أما هؤلاء كانوا ينطقون ببعض الكلمات غير المفهومة.

أذكر أني رأيت طفلة إبتعدت عن إمها قليلا فركضت خلفها وهي تناديها بلهجتهم الخاصة «لا تغوحين بعيد لا تقعين جوا»، كلمة بعيد كانت مفهومة لدي لكن الجملة كاملة، كانت غير واضحة المعنى.

سألت المعلم، ماذا قالت، وما هذه اللغة التي تتحدث بها تلك المرأة، قال لي:

ـ نادتها «لا تذهبي بعيداً سوف تسقطين إلى الاسفل»، إنها تتكلم اللغة العربية لكن باللهجة الموصلية، وليست الفصحى التي تتعلمها انت.

ـ ومن أين أتوا بها، ألا يمكن إعتبارها لغة أخرى؟.

ـ كل اللغات فيها لهجات تستخدم فيها كلمات عامية متداولة بين الناس، حتى نحن لا نتكلم اللغة التركية الفصحى بل لهجة منها.

كانت تلك اول معلومة لي في الحياة ان اللغات فيها لهجات لربما لا تشبه كثيرا اللغة نفسها، عندما يسمعها الاخرون من لغة أخرى. وفي أثناء حديثي مع المعلم، جاء رجل والغضب ظاهر جلياً على وجهه وهو يمسك بأحد زملائنا من يديه، تكلم مع المعلم بلهجتهم كذلك كنت أفهم بعض الكلمات التي تتطابق مع العربية الفصحى، من ضمن تلك الكلمات، سمعت كلمة لا يمكن قولها لمعلم محترم كأستاذ إبراهيم، قال له «أنتم همج»!!. ثم مضى في طريقه، رجع الاستاذ إبراهيم يوبخنا بالكلام «ألم أقل لكم لا تذهبوا بعيداً عن المجموعة، أنتم أمانة عندي ثم نظر إلى زميلنا وقال له ماذا كنت سأقول لوالديك لو حصل لك مكروه؟».

بقيت تلك الكلمة في ذهني، لماذا وصفنا ذلك الشخص «بالهمج»

أنا جديد على اللغة لكنني أعلم جيداً أن معنى هذه الكلمة ليس جيداً إطلاقاً، لربما يدل على شيء لا أعرفه.

وبطبيعتنا الطفولية، التي تحب استكشاف كل شيء حوله كان لابد لي من معرفة السبب الذي جعل الرجل يقول تلك الكلمة. أثناء عودتنا للمدينة، آثرت الجلوس في المقعد القريب من المعلم، كي أستغل الطريق في سؤاله عن السبب الذي أشغلني عن كل شيء، حتى عن النظر من النافذة إلى السهول والتلال وبيوت الطين التي نمر بينها في طريقنا نحو مدينتنا مشاهد لا يفوتها الاطفال إطلاقا، والاجمل من كل ذلك إخراج أحدى اليدين من النافذة لتعانق الهواء فتطير إلى الاعلى ثم التفكير بدرس العلوم كيف للطائرة أن تطير بدافع سرعة الهواء الذي يرفعها إلى السماء فتحلق عاليا. قلت لنفسي كل هذه الاشياء ممكن تعويضها في الرحلات المقبلة، لكن لابد من اجابة لهذا السؤال عند المعلم، يجب أن أعرفه.

مضت الحافلة نحو الغرب باتجاه المدينة، وبدأ المعلم يسألني

ـ كيف كانت الرحلة يا يوسف؟ أاستمتعت بها؟.

ـ كانت رائعة جدا، فانا لاول مرة أزور مدينة كبيرة كهذه المدينة.

ـ نعم، مدينة الموصل ثاني أكبر المدن العراقية بعد العاصمة بغداد من ناحية عدد السكان.

الجميل في هذا المعلم أن كلامه كان غزيرا بالمعلومات في اي شيء يتكلم فيه، لم أسأله يوما سؤالاً وقد إختصر الجواب في كلمات قليلة، كان يعطيني اجابة وافية عن كل أبعاد السؤال، وسأبقى مديناً له طوال حياتي.

ساد الصمت بعدها، فاسند رأسه على المقعد ثم أغمض عينيه كان

يبدو عليه التعب من ذلك اليوم الطويل. نظرت إليه، لم أستطع أن ازعجه بسؤالي، أنشغلت قليلاً ثم عدتُ للنظر إليه عله يفتح عينيه، بعدما أكثرت النظرات عليه قال وهو مغمض العينين، ما بك يا يوسف، هل لديك سؤال كالعادة؟، إبتسمت وقلت له نعم لدي سؤال أقلقني منذ ذهاب ذلك الرجل الغاضب.

ـ ما هو قل؟.

ـ انا لم أفهم الحديث الذي دار بينكما لكني إنتبهت لكلمة أزعجتني كثيرا.

ـ ما هي؟ فهو قال كلمات مزعجة كثيرة.

ـ «أنتم همج» لماذا يصفنا بهذا الوصف، لماذا وصف الجميع ولم يقتصر على زميلي الذي اخطأ بحقه.

ـ هذا الرجل يحمل في نفسه حقداً قديماً علينا، فكبر معه حقده حتى جعله يتكلم معنا بهذا الاسلوب.

ـ ما الذي جعله يحمل حقداً علينا، ثم نحن ما الذي فعلناه بهم؟.

ـ حادثة قديمة حصلت بين أهالي المدينتين فجعلت بعض الجهلاء متمسكون بها ويقذفون الطرف الاخر بالكلام الجارح أما المتعلمون لا يفعلون ذلك.

ـ أخبرني بالقصة، أصبحت متشوقا لسماعها.

ـ لا يجب أن تعرفها وانت بهذا العمر، عندما تكبر ستقرأ وستعلم السبب الذي جعله يقول تلك الكلمة.

ـ أخبرني أرجوك، إن لم تخبرني أنت سأسل غيرك.

نظر إلي وهو يفكر، أصبح في موقفٍ مسؤول، لربما سيُخبرني أحدٌ بالقصة لكنه سيظلم أحد الاطراف ولا ينقل الحقيقة التي حصلت في تلك الحادثة.

ـ سأخبرك لكن شريطة ان تعدني بان لا تخبر أحداً من زملائك بها

ـ أعدك بذلك.

ـ حسناً، قبل أكثر من أربعين سنة كنت بعمرك حينها، قام أحد ضباط الجيش العراقي إسمه عبد الوهاب الشواف من مدينة الموصل بإنقلاب عسكري ضد الحكومة، أيام «عبد الكريم قاسم» أحد رؤساء العراق سابقا.

فوقف أهالي مدينة الموصل مع الشواف، لكن أهل مدينتنا وقفوا مع الرئيس عبدالكريم قاسم ضد الانقلاب، فارسل الرئيس الاسلحة إلى من وقفوا معه من مدينتنا، ثم خرجوا إلى الموصل، وهناك فشل أنقلاب هذا الضابط الموصلي ثم حدث من القتل والتنكيل بالذين وقفوا معه من أهل مدينة الموصل ما حدث، فبقيت هذه النظرة في اذهانهم اننا همجيون واننا نقتل بدون رحمة، لكن الغريب ان الذين فعلوا بهم ذلك لم يكونوا من اهل تلعفر فقط، بل كل من والى الرئيس في ذلك الانقلاب كان قد نكّل بهم أشد تنكيل، لكنهم ألحقوا التهمة بنا فقط وبقيت كذلك إلى يومنا هذا.

لا تظن بأن جميعهم يفكرون مثل ذلك الرجل الغاضب، هم قلة لم يستطيعوا التخلص من هذا الحقد القديم. نحن أخطأنا بحقهم، لكن

أغلب الذين شاركوا في تلك الجرائم قد ماتوا ونحن لا ناقة لنا ولا جمل بالذي حصل «تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون».

تعلَّم يا بني لا تحكم على الجميع بالافعال الفردية، لا أريدك أن تفكر أن جميعهم يكرهوننا، ان تصورت هذا فانت لا تختلف شيئاً عن ذلك الرجل.

كنت استمع إليه ومظاهر التعجب والاستغراب ظاهرةٌ جلياً على وجهي.

ـ نعم بالطبع لن أفكر بهذا، لأنني كرهت تصرف الرجل ولا اريد ان اكون مثله.

كلما تذكرت هذه القصة، كنت أفكر بصدق وامانة هذا المعلم، كان بإمكانه أن يبرّئ اهل مدينتنا امامي. كيف أنصف اهل مدينة الموصل ولم يستغل موقف ذلك الرجل ليزرع فيَّ الحقد عليهم، بل جعلني افكر أن كل من يحقد على الطرف الاخر كذاك الرجل الذي كرهته بفطرتي.

ليت جميع الاباء يحملون فكر واسلوب هذا المعلم الفاضل لكانوا ربوا جيلاً خاليا من الاحقاد، سليما من الامراض الفكرية التي فتكت بمجتمعاتنا، وأوصلتنا إلى ما نحن فيه.

ليت الجميع يفقهون تلك الاية التي ذكرها لي «تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون». ألله سبحانه وتعالى لا يحاسبنا على فعل اؤلئك خيراً كان أم شراً، فمن أنتم حتى تحاسبوا الناس على أمور حصلت في كتب التاريخ!.

زاد ضجر الواقفين امام مكتبة الانترنت، كنت يومها قادم لزيارة بيت خالتي في الموصل، وصادف ذلك اليوم، إعلان نتائج القبولات الجامعية حينها كان أغلب الناس لا يملكون خدمة «الانترنت» في بيوتهم، السبب الذي جعل هذا المكان مزدحما بالطلبة المتشوقين لمعرفة مصيرهم الدراسي. ثم فجأة، صدر صوت عالٍ من داخل المكتب «النتائج» هرع الواقفون إلى شباك المكتب، الكل يريد إعطاء اسمه مع الرقم التسلسلي له، حتى يعلم في أي كلية قُبِل. كان الشباك صغيرا جدا، نصف متر مربع، والعدد كبير، كان الوصول إلى الشباك أمراً مستحيلاً في البداية، لا أدرِ كيف يتنفس ذاك الذي في المنتصف، لقد أصبح الجميع كتلة واحدة.

الجميل في الامر أن الذي يتعرف على كليته، كان يركض كالبرق نحو البيت، ليخبر أهله ويفرحهم.

خفّ الزحام على الشباك إنتظرت قليلا حتى جاء دوري في معرفة كليتي، أعطيته اسمي مع الرقم التسلسلي، فقال لي مبارك عليك لقد قُبلت في «كلية الهندسة» جامعة الموصل. لم يكن الخبر مفاجئاً بالنسبة لي لان درجتي كانت لا تحتمل سوى كلية الهندسة آنذاك حسب درجات السنوات الماضية التي قُبل بها طلبة هذه الكلية.

على الرغم من أن الهندسة من أهم الاختصاصات الموجودة في أي دولةٍ كانت، إلا أنها في العراق ليست بتلك القيمة الكبيرة في أعين الطلبة، بسبب قلة توفر الوظائف للمهندسين بعد التخرج، عكس الكليات الطبية التي فيها التعيين مباشر في المستشفيات. نعم الهندسة علم لا يستهان به إطلاقاً، لكن حاجة الناس للمال أكثر من العلم، هذه الحقيقة التي لا يمكن إنكارها.

ولو توفرت الوظائف لكل الاختصاصات لما تركزت عقول الطلبة على الكليات الطبية فقط، بل كلٌّ كان سيقدم إلى الكلية التي يرغب بها، ولأبدع الجميع في مجالهم. أنت لم ترى وجوه الطلبة الذين حصلوا درجات عالية في الثانوية لكن لم تسعفهم تلك الدرجات من الدخول إلى احدى الكليات الطبية. تراهم وكأن الحياة قد إنتهت في تلك اللحظة التي لم يصلوا فيها إلى مبتغاهم، ولو سألته بنفسك ماذا كان طموحك لقال «لا أعلم»، لكن الجميع أشاروا عليَّ أن أدرس بجد حتى أكون طبيبا، وإلا ستكون نهاية دراستي بغير الطب هو المكوث في البيت عاطلاً عن العمل!، أما انا فأكره رائحة المستشفى من الاساس!.

هكذا يحدد المجتمع طموحات الطلبة، ومن قبلهم نظام التعليم غير الجيد في البلاد، الغالبية العظمى من الاطفال مبدعون قبل دخولهم المدارس، لكن بعدها يُحدد كل شيء ضمن المنهج الدراسي، وأي شيء خارج هذا المنهج يعتبر خطأً حتى وإن كان صواباً في الحقيقة.

أذكر في درس الرياضيات سألت المعلمة «عشرة ناقص عشرون» قالت «ما يصير»، لا يمكن إنقاص الكبير من الصغير وعندما وصلت مراحل متقدمة، تبيّن لي أنها عملية رياضية صحيحة، وانا كنت متأكداً أن المعلمة كانت تعلم انها صحيحة لكنها ملتزمة بالمنهج المقرر لتلك المرحلة.

من هنا بدأ تحجيم العقول، لو كنت في مكانها لأجبت على السؤال دون النظر إلى المنهج، لأن ليس جميع الطلبة يسألون، والذي يسأل لابد أن يتم الاجابة على سؤاله ولو كانت تظن ان هذا ليس مقررا في تلك المرحلة.

ثم من هذا الذي قرر أن مناهج تلك المرحلة لهذه الاعمار!.

ألسنا بشرا نختلف في التفكير ومستوى الفهم والادراك؟.

لكنك تقول وكيف نحدد المناهج مع هذا الاختلاف، على أيّ نقطة نصب تركيزنا في وضعها؟.

أنا لست ضد المناهج التي وضعت لتلك الاعمار، أنا ضد أن يتم الاجابة على الاسئلة بشكل خاطئ مقصود لانها من خارج المنهج المقرر، يجب أن يكون المعلم جاهزا للاجابة على أي سؤال من طلبته دون النظر إلى المنهج المقرر، الثقل يقع على المعلم دون غيره.

لكن القضية متشابكة، فاذا عُدنا إلى القبولات الجامعية نرى أن الدرجة المطلوبة لأن تكون معلماً قليلة جدا، فوق النجاح بقليل، وهذا يدل أن مستوى المعلم الدراسي لم يكن جيداً في الثانوية، وبفعل هذا النظام التعليمي أعطينا لهذا المعلم دور بناء الاجيال القادمة!.

وهكذا استمر هذا النظام «الفاشل» نعم لا يوجد وصف آخر يستحقه غير ذلك، بانتاج سلسلة تراكمية من المستويات المتدنية للتعليم في البلاد إلى ان وصلنا إلى ما نحن فيه الان.

وسيقبى اصحاب المعدلات العالية في الثانوية يذهبون إلى الكليات الطبية والهندسية والمتوفقين منهم يهاجرون إلى دول أجنبية، والمعدلات الدنيا يبقون لبناء الجيل القادم!.

غريب أمرنا فعلاً، نستورد كل شيء من الخارج «المأكل والملبس والمشرب»، ونصدر أغلى ما نملك إلى الخارج «العقول والكفاءات».

وثم نقول لماذا تأخرنا عن الامم، لماذا نحن متخلفون عنهم؟.

الأمة التي تفرّط بعقولها ولا تستطيع إحتضانهم كيف لها أن تتقدم!. بالخزعبلات والشعوذة مثلاً!.

دعك من ذلك، مشاكلنا لن تحُل بالكلام، أعلم أنك تحمّست معي لكن لا فائدة من ذلك، إن كان أصحاب القرار لا يهمهم الا جيوبهم، ونحن نضعهم في سدة الحكم بسبابة التشهد كل اربع سنوات مقابل «رصيد هاتف نقال!» ألا نستحق ما يحصل لنا؟!.

فلنخرج من هذا الجو الكئيب، دعني آخذك إلى جامعة الموصل، كان الجو خريفياً بامتياز يوم دخلتها لاول مرة في بداية شهر نوفمبر من سنة 2010، الحدائق فيها كانت كبيرة ومتوزعة بشكل منتظم بين البنايات وأوراق الاشجار الصفراء تملأ الارصفة، الزهور الخريفية منفتحة، والزهور الصيفية قد جفت على اغصانها، مجموعة من الطلاب يتناقشون حول موضوع ما هنا، ومجموعة أخرى يلتقطون صورا تذكارية والابتسامة تعلو على شفاههم هناك، وشاب يجلس مع صديقته لكن يبدو من نظراتهما أنهما في بداية قصة حبٍ جامعية.

كل شيء كان حولي مدهشاً، مختلفا عن الثانوية، تلك البناية الصغيرة التي يحيطها سور عالٍ واسلاك شائكة لمنع هروب الطلاب منها ولا تحوي حتى حديقة صغيرة بداخلها، سوى ساحة لكرة القدم التي إتخذها الاساتذة موقفاً لسياراتهم!.

لا يمكن مقارنة هذا المكان بالثانوية التي قضيت فيها سنين من عمري المكان واسع والناس كُثر، طلبة وأساتذة وموظفين ودوائر خدمية، مدينة كاملة، ومجتمع يختلف كثيرا عن المجتمج في خارج هذا السور.

الكل هنا مثقفون وبمستويات متنوعة، وأضف إلى ذلك إختلاف الثقافات فهنا تجد طلبة من جميع محافظات العراق الكل يعكس ثقافته فيها، فتمتزج الثقافات المختلفة لتعطي بريق الطيف العراقي الجميل بأبهى حلّة.

كانت الجامعة فرصة لا تفوت للذي يمتلك تلك الطفولة المفعمة بالحيوية وعشق الاستكشاف والسؤال. هنا منجم من الثقافات التي سأكتسبها منهم، سأتعرف على بلدي وانا في مكاني، كم هذا جميل.

كان القسم الهندسي الذي قُبلت به هو قسم الهندسة الميكانيكية، التي تقع قرب «باب الهندسة» إحدى مداخل جامعة الموصل من جهة الشرق، وقد أفتتح هذا القسم بعد مرور سنة واحدة من افتتاح الكلية نفسها سنة 1963 والتي كانت تابعة لجامعة بغداد إلى أن تأسست جامعة الموصل في الاول من نيسان سنة 1967.

أكملت تجوالي في ذلك اليوم الجميل وكلما مررت أمام بناية قرأت اللافتة التي تُعرِّفها، مضيت في طريقي إلى أن وصلت إلى أربع بنايات كل إثنان منهما خلف الأخرى، وفي منتصف البنايات الاربع هناك حديقة لم يُزرع فيها شيء بعد. كانت تبدو على تلك البنايات أنها جديدة البناء، قرأت إحدى اللافتات المعقلة «عمادة كلية هندسة الالكترونيات»، إسم غريب، والمكان بعيد عن مركز الجامعة، لماذا هذه الاقسام الهندسية بعيدة عن أقسامنا الهندسية!.

لا أحب منظر البنايات حديثة البناء التي لا تحيطها الأشجار والحدائق.

شعرت بايام الثانوية المزعجة في ذلك المكان المقفر، خرجت من الجامعة متوجها إلى السكن الجامعي الذي يقع في الطرف الاخر من نهر دجلة «الجانب الايمن» كما يسميه أهل المدينة.

كانت السنة الدراسية الاولى في الجامعة سنة اكتشافات ومقارنات وتعجبات، اختلف كل شيء حتى المسميات بقيت أتلعثم بها لفترة

من الزمن، ففي الاعداية كنا نقول «الدرس» اما في الجامعة نقول «المحاضرة» ولم يبقَ الجرس الذي كان لنا بمثابة اعلان الحرية والخروج من سجن الدرس، لم نسمع صوته في الجامعة، فالمحاضرة تنتهي بخروج الاستاذ او الدكتور.

وعند إستلام الكتب من «التعليم المجاني» رأيت كتباً سميكة وكبيرة بعض الشيء لم أرَ مثلها من قبل أُصبت حينها بالذهول هل سنقرأ كل هذه الكتب ونكملها حتى نهاية السنة!.

هكذا تعلمنا في دراستنا طوال اثنتا عشرة سنة ان الكتب المنهجية يجب ان نكملها او نكمل الجزء الاكبر منها حتى نهاية السنة، ولم نكن نعلم ان الدراسة الجامعية تختلف اختلافا كبيراً عن ما دراسناه في السابق، فالمواضيع هنا يختارها الاستاذ وليس شرطا ان يبدأ من الصفحة الاولى كما تعودنا على ذلك.

حتى على المستوى النفسي كان التأثير بالغاً من ناحية وجود أمرٍ لم أعهده من قبل، ألا وهو «الاختلاط مع الفتيات» كانت طبيعتي الخجولة في التعامل معهن او حتى المرور من أمامهن يسبب لي أرقاً وهاجسا نفسياً لامور كنت أختلقها من وحي خيالي، ومنها ما كان يحصل

لي أثناء الخروج من الجامعة، كان الطريق يمر من امام قسم الهندسة المدنية، حيث كانت الطالبات يتجمعن هناك لانتظار خطوط الاشتراك «السيارات التي تقلُّهم إلى بيوتهم «كم كنت ارتبك عند مروري امامهن، كان لدي شعور غريب بأن الكل ينظر إلي، فارتب شعري وارتب بنطالي وقميصي وانقل حقيبتي من كتفي الايمن إلى الايسر كل هذه الحركات المرتبكة وانا أمر من امامهن، وكم كنت أخشى ان اقع على الارض من شدة الارتباك ومن ذلك الشعور الغريب بأن الكل ينظر إلي.

وفي الواقع لا احد ينظر!.

بقي هذا الشعور يلازمني للسنة الاولى من دراستي، ومع ذلك فقد كانت المرحلة الاولى مرحلة متميزة تمنيت أني بقيت كذلك في بقية المراحل بعيدا عن الحب، محافظاً على قلبي من ضرباته الموجعة.

احيانا لا نعرف قيمة ما نحن فيه الا بعد أن نخسره او نجرب امراً غيره...

فكثيرا ما كنا نسمع أُناس يقولون لو بقينا على ذلك الزمان لكان خيراً لنا وفي تلك الايام التي تمنوا عودتها هؤلاء كان هناك اناس آخرين يتحسرون على ايام قبلها وهكذا.

لعل ذاكرة الانسان لا تحتفظ الا بالذكريات الجميلة فتسبب له هذا التفكير، أن كلما سبق جميل وأن الواقع في الغالب سيء!.

أمَّـا بـعد..

بدأ الدوام في المرحلة الثانية كعادة السنوات الدراسية في مطلع أكتوبر من سنة 2011 وقبل ذلك ذهبت انا واصدقائي الاربعة «علي وحردان وحسام وحيدر»، لنسجل في السكن الجامعي اذ لا يمكنك الحصول على غرفة في السكن الجامعي الا بحضور اعضاء الغرفة جمعيهم. إستطعنا ان نسجل في قسم تسعة الشقة الرابعة الغرفة الثالثة حيث كانت للغرفة شرفة تطل على طريق خروج الطلاب من السكن الداخلي، وكذلك كانت تطل على ساحة وقوف السيارات لمطبعة ابن الاثير التي تلاصق السكن من الجهة الشمالية.

لربما لم يمر على معرفتي لهؤلاء الاصدقاء بالوقت الطويل الا انني احببتهم جدا وكانوا والى الآن بمثابة الاخوة والاصدقاء في نفس الوقت بالنسبة لي.

فحسام الذي كنا نلقبه بالهادئ والخجول، شاب وسيم ذو عينين واسعتين ووجه بريء كان يحمر وجهه لأي موقف بسيط من كثر خجله، وهو من أصول أرمنيَّة، وكما هو معروف ان جزء من الأرمن هاجروا إلى العراق أبان المشاكل التي حصلت بين تركيا وارمينيا قبل اكثر من مائة سنة، وقد سكن هؤلاء المهاجرين في الجزء الشمالي من العراق ومن ضمنها مدينتنا تلعفر.

كان حسام لديه كما يقال لمسة أنثوية في الترتيب، كان يرتب غرفتنا أحيانا وكأن احد امهاتنا قد اتت ورتبت الغرفة وذهبت.

أما حردان، فاسمه لا يدل على انه تركماني، حتى اصدقاءنا عرب اهل المدينة كانوا يتعجبون من هذا الاسم، أذكر انني سألته يوما لماذا سموه هذا الاسم الغريب، قال إنه عند ولادته أراد ابيه ان يسميه» أشرف» لكن جده أصرَّ على تسميته حردان، على اسم حردان التكريتي قائد السلاح الجو العراقي ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقي، والذي اغتاله فتيان العاني بأمر من رئيس العراقي الاسبق صدام حسين في سنة 1971 م.

كان حردان الذي يكبرني باربع سنوات طويل القامة ممتلئ الجسد ذو عينن صغيرتين وحاذقتين.ذكي لكنه لا يحب الدراسة وكذلك هو من عشاق الافلام الاجنبية، واذكر ليلة كان لدينا امتحان فصلي مهم، جميعنا ندرس للامتحان الا هو مندمج مع فلم اجنبي، وفي الساعة الواحدة والنصف ليلا احس بالامتحان وقال «تعالوا يا شباب ما امتحاننا غدا!». تبين انه لا يعلم بمادة الامتحان أصلا. ومع ذلك كان ينجح ويعبر المراحل بقليل من الدراسة، وكنت احسب انه اذا اتعب نفسه قليلا في دراسته سينافس الاوائل في مرحلتنا.

اما حيدر، اوسمنا شكلاً واقصرنا طولاً، كان محبوباً لدى الجميع اجتماعي بدرجة كبيرة، عصبي نوعا ما لكنه طيب القلب يعود بسرعة ويعتذر.

كان لوفاة والده في حادث سيارة على طريق الموصل ـ تلعفر سنة 2007 م تأثيرا كبيرا على شخصيته واسلوب كلامه الذي تحس فيه

نوع من الحزن العميق لفقدان الاب في مرحلة مراهقته وهو في امس الحاجة اليه.

اما اخر اعضاء غرفتنا «علي» كان في المرحلة الرابعة في قسم هندسة الالكترونيك متوسط القامة حنطي البشرة، يختلف عنا نوعا ما، لديه الكثير من التحفظات وعدم تقبل المزاح انطوائي نوعا ما، لا يمتلك اصدقاء كُثر، ولا يتعمق في الصداقة كثيرا، لكنه طيب جداً اذا تعرفت عليه عن قرب وعرفت كيف تصل اليه ستحبه كثيرا، لكن ميزاته مخفية لانه غامض الشخصية ظاهراً، بسيط من الداخل.

بالرغم من اختلاف الطباع والتلطعات والثقافات لكننا كنا منسجمين كثيرا معاً في تلك السنة الدراسية الجميلة، كم وكم كنا نناقش القضايا السياسية والدينية وحتى العاطفية، وكل منّا يبدي رأيه بدون اي خوف من ان البقية سينقلون كلامه إلى اطراف اخرى تؤدي إلى جلب المشاكل للمتكلم، كانت النقاشات لا تعبر جدران الغرفة..

ومع اننا لم نتوصل يوماً في اي نقاش إلى نهاية وقد اتفق الجميع على رأي احد الاطراف، وكل النقاشات كانت عقيمة والكل متمسك برأيه.

حالنا حال الشعوب العربية في النقاشات الا ان تلك الخلافات لم تؤدِ إلى الحقد والنفور بيننا اطلاقاً.

مرَّ شهر تشرين الاول كبقية الاشهر كالمعتاد، فحياتي من السكن الجامعي إلى الجامعة وبالعكس وبعد عودتي من الدوام كنت احضر الغداء لاعضاء غرفتي لان العمل مقسم وحصتي كانت وجبة الغداء في الغالب، وبعدها كنا ننام جميعاً حتى نصحوا المغرب اكثر نشاطاً لكي

نستطيع ان ندرس ما اخذناه في ذلك اليوم. وكعادتي في كل حياتي الدراسية من الابتدائية إلى الجامعة كنت التزم بالمجيء إلى الدوام قبل الوقت المحدد بنصف ساعة ولم اكن افضل التأخر بتاتاً، ففي الساعة الثامنة صباحا انا في القسم اضع الكتب واخرج لاتنفس نسيم الصباح الجميل واسلم على اصدقائي ومن ثم يأتي وقت المحاضرة الاولى في الثامنة والنصف فندخل سويةً.

وفي منتصف تشرين الثاني قَدِم طلبة المرحلة الاولى كما نحن قدِمنا قبل سنة لكنهم لم يكونوا يسببون لي اي اهتمام عكس بقية طلاب المراحل. فطلبة المرحلة الاولى يكونون تحت أنظار طلاب بقية المراحل نستطيع ان نشبه الامر ببضاعة جديدة اتت إلى السوق والناس قد تجمعوا حولها.

لم أكن أعلم ان يافا من بين هؤلاء الجدد الذين اتوا ليكونوا جزءا من قسم الميكانيك، فانا مشغول بدراستي وبهدفي المنشود ان اكون الاول على مرحلتي ولا وقت لدي لاقف وانظر للقادمين الجدد لعلي أجد فتاةً جميلة احبها وتحبني واعيش قصة حب معها.

وفي يوم من ايام تشرين الثاني ولعله في اخر اسبوع منها استيقظت متأخراً عن الدوام نظرت إلى الساعة واذا هي بالثامنة وانا مازلتُ في فراشي، فنهضت مستعجلاً ولبست ملابسي وتوجهت إلى الجامعة.

كان السكن الجامعي يقع في الجزء الغربي من نهر دجلة الذي يشق المدينة من المنتصف والجامعة تقع في الجزء الشرقي منه، لكن اهل المدينة يسمون الجزء الغربي بالجانب الايمن والجزء الشرقي بالجانب الايسر والمسافة بينهما تأخذ نصف ساعة في السيارة بسبب الزحام.

وصلت إلى باب العلوم احدى مداخل جامعة الموصل من جهة شارع المجموعة الثقافية والساعة تشير إلى الثامنة والنصف مشيتُ سريعاً بخطوات كبيرة لعلي أصل إلى المحاضرة قبل الاستاذ، وقبل أن اصل إلى قسمي رأيت من بعيد المرحلة الاولى مجتمعين خارج القسم، عندما وصلت باب القسم نظرت نظرة إلى اليسار وإذ بأربع فتيات يجلسن مع بعضهن وفي وسطهن فتاة لم ارى مثل جمال عينيها قط، لا اذكر اني رأيت وجهها لم ارى منها سوى عينين خضراويتين واسعتين سبحان الذي خلقهن وتفنن في خلقه.

تلك النظرة التي لم تعبر الثانية الواحدة كانت سببا في قلب كل موازين حياتي، يقول جرير.

إن العيـــــون التي في طرفهـــــا حـور قتلننـا ثـم لـم يحيينـا قتلانـا
يصرعـن ذا اللب حتـى لا حراك به وهـن أضعـف خلـق الله أركـانـــا

اكملت طريقي وانا افكر بالذي رأيت، وصلت إلى المحاضرة وجلست وكل فكري في تلك العيون، لم اعد استوعب ما يشرحه الاستاذ فانا مازلت لم اصحُ من الغيبوبة التي حصلت لي جراء تلك النظرة.

مرَّ وقت المحاضرة ولم اركز كعادتي ولم افهم شيئا مما شرحه الاستاذ، انتهت المحاضرة اسرعت بالخروج والذهاب إلى مكان تواجد المرحلة الاولى لأتأكد مما رأيت، وصلت إلى جانبهم، ونظرت اليها نظرة ثانية هاجت كل مشاعري وتداخلت فيما بينها وتعاظمت، كأن حشداً قد تجمع في القلب، أصبح قلبي يثقلني، ينبض بسرعة البرق ليلحق بالدم للحشود الكل ينظر اليها، لم أكن وحدي أنظر، عيناي

وقلبي وروحي ونفسي حتى احسست انهم سيفارقون جسدي ويشقونه ويخرجون اليها أنا لست انا بعد هذه النظرة...

مالذي حصل، لا ادري لعل قلبي وجد نصفه الاخر.. لا بل وجد كله..

أ يعقل أن نظرة واحدة تفعل كل هذا؟. هل هذه النظرة هي نفسها التي كنت اسمع قصصا عنها هل هي الحب من النظرة الاولى؟. وبدا أنني قد احببت هذه الفتاة، نعم لم يمر على رؤيتي لها سوى سويعات قليلة لكنني متأكد ان مجرد تلك النظرة كانت كافية لأن اقع في حبها.

بدأت اظهر اهتمامي لها، وأُكثر نظراتي عليها والجميل في الامر كانت القاعات الدراسية للمرحلة الاولى تقع مقابل قاعات مرحلتنا، فكنت استغل وقت الاستراحة ما بين المحاضرات بالنظر اليها.

وبعد مرور اسبوع وقد دخلنا شهر كانون الاول أحسّت الفتاة بنظراتي المتكررة اليها وبدت تنظر هي ايضا لكن نظرات خجولة جدا، احيانا كانت نظرتي تلتقي مع نظرتها لكننا بطبيعتنا الخجولة نحن الاثنان كنا لا نستطيع اطالة هذه النظرة في الوقت ذاته مع انها كانت تمثل لي حياة من نوع اخر وسعادة تغمرني في تلك اللحظات وكما قال أحدهم:

واذا التقى عين الخليل خليلها   وسط الحشود فليس للنطق ثمن
تكفي تعابير الوجه كأنها انهار   شوق فاض من كثر الشجن

ومن محاسن الصدف، جاء احد اصدقائنا في السكن الجامعي وقال لنا ان هناك طالب من مدينتنا اسمه «عمر» في المرحلة الاولى في قسم الميكانيك ويريد مساعدتكم له في الدراسة قلنا له فليأتِ لنتعرف عليه

جاء عمر وتعرفنا عليه وسألته في اي قاعة هو قال لي انا في القاعة «بي» وهي ايضا كانت في القاعة «بي» فقلت في نفسي جميل جدا سأسأله عن اسمها بعدما اعرفه اياها.

وفي اليوم التالي كنت واقفا مع عمر ورأيت تلك الفتاة التي دخلت شغاف قلبي، سألت عمراً ما اسم هذه الفتاة قال لي اسمها «يافا «قلت سبحان الله اسم على مسمى.

كنت ارتجف ليلاً عندما كنت افكر بها وانا متغطٍ جيدا!!. وقتها علمت ان البرد ليس هو الوحيد الذي يجعل الانسان يرتجف فالتفكير بالحبيبة اكثر إرتجافاً من البرد!!.

بطبيعتي الخجولة لم امتلك الشجاعة الكافية لأن اذهب اليها واعبر عن حبي لها لذلك قررت ان التجئ إلى احدى بنات مرحلتي التي اعرفها منذ سنة ولا مشاعر لي تجاهها فاستطيع التكلم معها واطلب منها ان تذهب وتكلم يافا عن ما اريد ان اقول لها نيابة عني.

فتحدثت إلى تلك الفتاة وقلت لها ما اريد ووصفت لها شكل يافا وطول قامتها وماذا تلبس في العادة وقلت لها اريدها منكِ.

لم ترفض الفتاة طلبي وقالت لي ان شاء الله سأتكلم معها وارد لك بخبرها. مرّ اليوم الاول ولم يحصل شيء وفي اليوم الثاني ذهبت اليها لاستفسر عن سر تأخرها في المضي بالموضوع قالت لي انها لم تَرَها فوقت استراحتنا لا تتوافق مع وقت استراحتهم ولا تستطيع الذهاب اليها

قلت لها انتظريها في نهاية الدوام وتحدثي معها، لكنني رأيت ان الفتاة لا تريد ان تذهب لكنها تخجل ان تقول لي ذلك.

انا لا الومها على عدم ذهابها لربما خجلت من إخبارها، لربما فعلا لم تستطع الذهاب بسبب هذه الاعذار التي قدمتها لكن مجرد انها وافقت على الذهاب فانا ممتن لها وان لم تكمل ما اردت منها.

أجمل شهر..

بعدما أيقنت ان لا احد يستطيع ان يبث في امري ويساعدني قررت أن أذهب اليها بنفسي واضع هذا الخجل جانباً ولو لعشر دقائق فقط وكان هذا الامر صعبا جدا عليّ، لكن دافعا قويا من الداخل وبالتحديد من القلب الذي اعطاني الشجاعة ان اذهب اليها ولم افكر لما بعدها فقط سأذهب واتكلم معها وابين مدى حبي لها.

وفي يوم الخميس الثامن من ديسمبر سنة 2011 م، يوم مشمس من أيام الشتاء البارد الساعة تشير إلى العاشرة وعشر دقائق صباحا، يافا تجلس مع صديقاتها الثلاثة على مقعد حجري وعلى جانبهن حديقة، كانت جالسة على الطرف الايسر من صديقاتها في تلك اللحظة أستجمعت قواي وخطوت خطواتي الاولى باتجاهها، فلما رأتني من بعيد وانا قادم اليهم أحست بشيء وابتسمت ونظرت إلى الارض.

وصلت اليهن ثم قلت لهن..

ـ مرحباً.

ـ اهلاً.

من شدة الارتباك لم استطع ان أعطي مقدمة لسبب مجيئي اليهن فوجهت سؤالا مباشراً ليافا ـ أأنتِ يافا؟.

ـ نعم انا هي.

ـ من فضلكِ اريد التحدث اليكِ بمفردنا هنا في هذه الحديقة.

قامت يافا وقامت معها احدى صديقاتها، فقلت لصديقتها أريد التحدث إلى يافا فقط. قالت ماذا تريد منها، قلت لها امر بسيط اريد ان اتكلم به معها اجلسي مكانكِ. لم تجلس، ردت يافا عليها وقالت «ندى» إبقي هنا، فجلست.

عندما نظرت إلى يافا لاول مرة من هذه المسافة القريبة هاجني شعور هزَّ كياني وبدأت أرتجف اكثر فأكثر، جسمي ساقَي يدي ورجلي حتى فكّي كان يرتجف ويصدر صوت طقطقات الاسنان، كما يحصل لنا في ايام البرد القارص.. وكذا في لحظات الحب القارصة، كهذه!.

وبدتْ عليها ايضا مظاهر الخجل والارتباك واحمرّ خديها ونحن بعدُ لم نتكلم بشيء. يافا جميلة حد الجنون عند شحوب وجهها فكيف عند احمرار خديها وإصدار تلك الابتسامة حين تُجمع شفتاها، في لحظة من النظر لم أتخيل أنني أقف أمام بشر مثلنا بل ملاك على هيئة بشر، ملامح وجهها هادئة حتى الصخب، فيها براءة قاتلة كنت بحاجة إلى عمرٍ من النظر لأقرأ تفاصيل وجهها قبل أن أستطيع الكلام والبوح بما أثقل قلبي وجسدي وقلب حياتي رأساً على عقب..

وانا الذي قد أعددتُ الكثير الكثير من الكلام والعبارات قبل المجيء نسيتُ كل شيء وبتُ لا استطيع الكلام، وفعلا كما قال نزار قباني:

فإذا وقفت امام حسنك صامتاً   فالصمت في حرم الجمال جمال

إستجمعت قواي مرة اخرى لقد طال الانتظار صديقتها تنظر إلينا،

كنت قد نسيتُ شيئاً اسمه الزمن وانا بقربها، لكن نظرات ندى كانت كالمنبه المزعج في الصباح الباكر الذي يوقظك من النوم، نظراتٌ صوتها تأز أُذناي!..

حتى جعلتني أبدأ بالكلام..

يافا انكِ دخلتِ قلبي من اول نظرة نظرتُها فيكِ..

يافا ان جسمي يرتجف عندما اسمع باسمكِ او افكر فيكِ.

يافا كل شيءٍ تغير فيَّ منذ رأيتكِ، حتى أصبحت لا أعرف من أنا!.

أصبح كل شيء حولي يعكس وجهكِ، السماء والماء ووجوه الاطفال

حتى اوراق الشجر، والنجوم في الليلة الظلماء وكذا القمر..

يافا انا أحبكِ أحبكِ جداً.

كانت تنظر إلى الاسفل ومظاهر الابتسامة على وجهها رفعت رأسها وقالت:

ـ لقد فاجأتني بهذا الكلام..

ـ لا اريد جواباً الآن اليوم يوم الخميس فكري جيدا بالموضوع واجيبيني بما تقررين يوم الاحد القادم.

سكتت يافا بعدها، لا أدرِ ماذا أفعل لم أشبع من النظر بعد، ولا استطيع الكلام اكثر مما قلت، سلمت عليها ومشيت..

ليتنا نملك خاصية تسجيل المشاهد في أعيننا كما الهاتف النقال،

لنوثق اجمل لحظات حياتنا مع من نحب، وكلما اشتقنا اليهم أسدلنا ستائر أعيننا ليبدأ العرض السينمائي فنوقف المشهد في لحظة إبتسامة ونعيشها بكل تفصايلها، نقربها، نبعّدها، نقبّلها وكذلك في لحظة إلتقاء الخليلين، العين بالعين..

أي تقنية تستخدمها العينان في نقل المشاعر بكل تلك السرعة في أقل من ثانية!.

لربما لم افرح بحياتي مثلما فرحت بذلك اليوم كدت أطير من الفرح لقد استطعت ان اقف معها بنفسي وان اكلمها بما اريد، وسيبقى ذلك اليوم من أجمل ايام حياتي.

إنتظرتها حتى وقت الخروج من القسم، مرّت من أمامي وهي تبتسم إبتسامات خجولة، وأنا أنظر اليها وهي تبتعد شيئاً فشيئا، بتلك الخطوات الهادئة، كملامح وجهها الجميل..

وأقول للايام ماذا تخبئين لنا، هل تهبيني إياها؟.

أم أنكِ رضعتي القسوة من الحياة..

ماذا لو كنا نعلم الغيب، ونرى قصتنا قبل أن نخوض غمارها!. ماذا لو تجنبنا عن من لم يُكتبوا لنا، وتمسكنا بمن كتبوا لنا، وقاتلنا الظروف بكل ما أوتينا من قوة لاننا نعلم أنهم مُلْكٌ لنا. لكن جمال الحياة في الغيب الذي فيها، في ما لا نعلم ما سيحصل. مملة هي معرفة الغيب، كأنك تشاهد فيلماً للمرة الثانية، كل مشهد فيه تعلم ما سيحدث بعده الغيب نزعة جمالية، صُبّ فوق هذه الحياة ليزيدها تشويقاً أكثر..

وكعادتي في كل اسبوعين اذهب إلى البيت مع اصدقائي تاركين حياة السكن الجامعي وراءنا لمدة يومين فقط، وكان ذلك اليوم نهاية الاسبوع الثاني.

وصلتُ إلى بيتنا وانا فرح مرتبك لا استطيع ان آكل جيدا لكنني لم أخبر أهلي انه قد حصل لي امر كهذا وبدأت افكاري تأخذني بعيدا..

ماذا سترد، هل ستوافق؟..

هل سترفض؟..

واذا وافقت ماذا سافعل!..

وان لم توافق ماذا سافعل!..

أنا لم أجرب الحب من ذي قبل، ولا أعرف كيف يتصرف المحبون وماذا يفعلون. لكن الحب مغروس في فطرتنا، وإلا من أين تأتينا كل تلك المشاعر الهائجة عند رؤية من نحب!.

تصرفاتنا في الحب الاول تكون نابعة من القلب بعيدا عن العقل، ولان القلب مملكة العواطف، تبقى تجربة الحب الاول في أعماق الكثيرين ولا يمكن نسيانها اطلاقا، مهما كبرنا في السن، كل انسان يمتلك حباً قديما مطموراً في جوفه، كلما ثقلت عليه الحياة وزادت أخطاءه فيها، وشعر انه قد تغير كثيرا عن الماضي، حنَّ إلى نفسه والى ايام حبه الاول حيث الاحاسيس الصادقة النقية فيها..

نحن لا نشتاق إلى الحبيب الاول، قدر اشتياقنا لأنفسنا كيف كنّا حينها..

كيف كنا نتصرف بكل تلك العفوية، وحتى تلك الافعال الطائشة تتحول الى ابتسامة تغمر وجوهنا فرحاً بذكرها..

هكذا الانسان كتلة من العواطف المحشوة في جوف الذكريات..

وفي اليوم الموعود يوم الأحد ذهبت إلى الكلية مبكرا جداً ووقفت انتظرها، وانتظر ماذا ستقول لي، وبينما انا واقف امام باب القسم رأيتها مقبلة هي وصديقتها ندى، التي لا تفارق يافا في كل الاوقات.

وصلتا قرب القسم وتقدمتُ اليها مستقبلاً اياها، فقلت لهما:

ـ مرحبا.

ـ اهلا.

سكتت يافا وبدأت ندى بالكلام «هذا امر مرفوض ونحن اهل الموصل لا نحب هذه الامور اذا كنت تريدها اذهب وأطلبها من اهلها وحتى وقوفنا معك الآن غير مقبول عندنا». نظرت إلى يافا وهي صامتة لا تتكلم وقتها لم اعرف ماذا ارد إبتعدتا ولم تنتظرا ما اقول لهما.

لم يكن هذا الموقف صدمة لي، لانني رأيت بوجه يافا عكس هذا الكلام وفي نفس اليوم كانت يافا تبادلني النظرات والابتسامات فايقنت ان هذه الفتاة هي التي تقف بيني وبينها.

وفي احد الايام طلب مني احد طلاب المرحلة الاولى اسئلة مادة الاستاتيكا الهندسية فقلت له سآتي لك بها غداً، وفي ليلة ذلك اليوم قررت ان اكتب رقم هاتفي على ورقة لربما استطيع ان اعطيها ليافا ان سمحت لي الفرصة.

في اليوم التالي كنتُ ذاهباً لأُعطي الاسئلة لذلك الطالب الذي هو في القاعة «سي «التي تقع بابها قبل قاعة يافا، وبينما انا متوجه إلى قاعة

ذلك الطالب.. رأيت يافا واقفة امام باب قاعتها وعندما رأتني ابتسمت وتحركت حركة استقبال منها لي ظناً منها انني قادم لأتحدث معها، وانا بالطبع لم اخيّب ظنها توجهت اليها ووقفت معها وسلمت عليها

و كالعادة لم استطع الكلام، العجيب في الامر انني عندما اقترب منها أشعر بأنني في عالم آخر حيث لا وجود للزمان ولا للمكان ولا أشعر بوجود أحدٍ حولي أنا وهي والعالم كله فراغ ابيض يحوينا، عندما اقف بجانبها لا أرى سوى عينين خضراويتين وابتسامة خجولة، كل الفتيات عندما يبتسمن، يكبر فمهن، إلا فمها يصغر!.

أتمعن في وجهها فيضيع الكلام بين حنايا تلك العينين الواسعتين ولا استطيع النطق بكلمة الا كلمة «أحبكِ». ولم اعلم كيف تذكرت انني قد دوّنت البارحة رقم هاتفي فاخرجت الورقة من محفظتي واعطيتها الرقم، فاخذتها، قلت لها لا اريد رقمكِ لكن متى ما تحتاجين شيئا اتصلي بي وانا ساكون بجانبكِ.

مرت الايام وانا اعيش اجملهن من ايام حياتي التي لا اعلم كم بقي منها وفي أحد الايام بينما انا عند باب المرسم ادخل لمحاضرة الرسم الهندسي جاءني احد اصدقائي وقال لي رأيت يافا تحمل اوراق اعادة الترشيح لعلها تريد ان تنتقل إلى كلية اخرى!. عند الكلام في الامور البعيدة عن الحب كنت استطيع التكلم معها، لكن أي كلام حبٍ أريد قوله لها لا يخرج من فمي من شدة الارتباك والخجل..

أسرعتُ إليها فاذا بها واقفة وحدها وبيدها الاوراق، إقتربت منها وسلمت عليها وقلت:

ـ ما هذه الاوراق يا يافا؟.

ـ سأُحول من قسم الميكانيك إلى احدى اقسام هندسة الالكترونيات.

وهذا الامر يحصل في كل سنة طلبة قسم الميكانيك يحولون في الغالب إلى كلية هندسة الالكترونيات التي تحوي على اقسام ثلاثة

«اتصالات والكترونيك وحاسبات». بسبب عدم رغبة أغلب الطلبة إكمال دراستهم بهذا الاختصاص غير المرغوب فيه وبالاخص عند الفتيات.

ليتني كنتُ أستطيع منعها من التحويل، لكن من أنا بالنسبة لها لأبدي رفضي للفكرة. ترك هذا الامر أثراً كبيراً في قلبي، فيافا سترحل بعيدا عن قسمي ولن أستطيع رؤيتها كل يوم الا ان اذهب هناك حيث كليتها الجديدة.

كنت أحرص قبل ذلك للذهاب مبكراً إلى الدوام والجلوس خارج القسم لاراها وهي تأتي من بعيد، فما اجمل ذلك اليوم الذي يبدأ برؤية يافا تلك الفتاة الرائعة التي لم تكن محبتي لها مقتصرة لجمالها فقط، فقد كانت حياؤها يزيد جمالها ورقتها ايضا.

ذهبت يافا تاركةً وراءها اجمل الذكريات لي في قسم الميكانيك واصبح كل شيء يذكرني بها الحديقة التي وقفت معها لاول مرة.. الجدران والدرج والشبابيك.. كلها تذكرني بيافا وفي كل منها ذكريات نقشت في ذاكرتي.

وأصبحت أنتظر خروج طلبة قاعتها القديمة، فأدخل القاعة وأجلس حيث كانت تجلس وأمسح يدي على مقبض الباب وامشي فوق البلاط..

واقول هنا كانت تجلس يافا وهنا أثر يدها وهنا آثار اقدامها. واتذكر قول مجنون بني عامر قيس بن الملوح:

أمـــرُّ علـى الديـــار ديـار ليلـى   أقبـل ذا الجـدار وذا الجــــدار
ومـا حــب الديـار شـغفن قلبــي   ولكــن حــب مــن سـكن الديـار

رحلت يافا وليس بامكاني رؤيتها كل يوم... لابد وان اذهب هناك حيث كليتها الجديدة..

في بداية الاسبوع التالي ذهبنا انا واصدقائي، إلى هندسة الالكترونيات لعلي أراها فقد اشتقت اليها كثيرا وبتُ لا اتحمل الفراق.

وصلنا هناك في الساعة الحادية عشر والنصف لكنني رأيت اموراً كثيرة قد تغيرت هناك فانا قبل سنة قد زرت هذا المكان ولم تكن الحدائق مزروعة، ولا توجد فيها سوى التراب.

ما الذي حصل الان أرى الحدائق خضراء والازهار تحيطها من كل الجوانب لابد أنهم تحضروا لهذا اليوم، لانهم علموا أن اجمل وردة في الدنيا ستأتي هنا وتبهر الورود بجمالها.

جلسنا في احدى الحدائق والاقسام الثلاثة امامي ولا اعلم باي منها قد قُبلت يافا. وبدأت انظر إلى الاقسام الثلاثة الواحد تلو الاخر وعندما ارى فتاة تخرج من احد الاقسام اركز فيها لعلها هي. بقيت هكذا إلى الساعة الثانية ظهرا ولم ارها، فاستأذن بعض اصدقائي وقالوا قد تأخرنا سوف نذهب نحن، وبقي معي صديقي حردان فقط.

وبعدما ذهب اصدقائي بعشرين دقيقة، فاذا بي ارى فتاتين قادمتين من بعيد وكنت أعرف يافا من مشيتها، إنها هي وبعد ما اقتربتا منا تأكدت أنها

يافا، ولم تكن يافا تراني فهي كعادتها تمشي وتنظر إلى الأرض ولا تنظر يميناً ولا يساراً. وصلنا قربنا فقمت اليها وقلت لها يافا، فوقفت قلت لها:

ـ كيف حالكِ.

ـ بخير..

ـ في أيّ قسم قُبلتِ؟.

ـ في قسم الحاسبات..

وبينما اريد ان اسأل عنها أكثر فأكثر وأُشبِع عيني من النظر اليها، قالت صديقتها الجديدة لقد تأخرنا والسائق بانتظارنا، قلت لها قبل أن تذهب

ـ مبروك على القسم الجديد.

ـ شكرا.

ثم ذهبتا..

شكراً، كم كنت أستمتع بهذه الكلمة من لسانها وهي تقول لي شكرا وعلى وجهها تلك الابتسامة البريئة. عندما تقول شكرا، وكأن حروف الكلمة تتراقص فرحاً وتدخل أُذناي، وارى تعابير وجهها، الخدود تنتفخ وحاجباها تنزلان، ورموش عينيها تتشابكان..ثم تتجمع الشفتان لتنطق اول حرفٍ من الكلمة وعندما تصل إلى آخر حرف تفتح عيناها الواسعتين فجأة معلنة إنتهاء النطق بالكلمة في أجمل صورة فنية..

وفي يوم الاثنين 26 ديسمبر، الذي يصادف عيد إحدى الطوائف المسيحية كانت لدي محاضرة لاستاذ مسيحي كان مجازاً في ذلك اليوم

خرجت من قسمي الميكانيك متوجها هناك حيث يافا وكان الجو

غائما وزخات قليلة من المطر تهطل بين الفينة والاخرى. وصلت هناك ودخلت قسمها الجديد وسألت عن مكان قاعات المرحلة الاولى وصلت امام باب احدى القاعات والساعة تشير إلى العاشرة وخمس وعشرون دقيقة.

و عندما رأتني يافا واقفٌ أمام باب قاعتهم خرجتْ إلي، وقفت معها ولا ادري ما اقول بعد كل هذه المدة من الحب ليس بمقدوري الكلام والتعبير عن ما بداخلي لها لان مجرد وقوفي بجانبها يدخلني عالم آخر.

كأن نسيما من الهواء يأتيني ويحوم حولي واضيع في تعابير تلك الابتسامة الخجولة دون القدرة على النطق بشيء. وبينما انا في ذلك العالم حيث لا أحد فيه غير يافا سمعت احداهن تقول، يافا لقد تأخرنا على المحاضرة، وهي نفسها تلك التي قالت تأخرنا على السائق الذي يوصلنا إلى البيت بدأت انزعج من تلك الفتاة التي اصبحت تثير غضبي وهي تأخذ مني وردتي في كل مرة.

وبينما انا في القسم لم اخرج بعد، أتت يافا وصديقتها غاضبة جدا وتقول أنت السبب لقد تأخرنا عن المحاضرة ولم يقبل الاستاذ بدخولنا وكُلّ ذلك بسببك لاننا كنا ننتظر يافا وهي تقف معك، كانت غاضبة جدا وكادت ان تصفعني بوجهي، قالت يافا لي اذهب لا تبقى هنا.

عدت بعدها إلى قسم (الميكانيك) وأنا افكر بذلك هل كنت سبباً فعلا بالذي حصل!. أمَا كان بوسعها أن تتركنا وتذهب وحدها للمحاضرة، ما قصة هذه الفتاة التي تقف حاجزا بيني وبين حبيبتي. والغريب في الامر ان يافا لا تقول لها شيئا!. قلت لربما هي من أقاربها ولذلك هي تفعل ذلك.

وفي ليلة اليوم نفسه كنتُ جالساً اقرأ والساعة تشير إلى الثامنة وعشرين دقيقة، واذ بهاتفي يرن حملته فاذا برقم غريب..

ـ نعم من معي.

فاذا بصوت امرأة تقول:

ـ أأنت يوسف؟.

ـ نعم تفضلي.

ـ أنا أم يافا.

ـ اهلا واسهلا بك .

ـ سمعت انك تضايق إبنتي وتقف معها كل يوم.

ـ أنا لا أضايقها، أنا أحبّها.

ـ أيُّ حب هذا، يافا ستتزوج من ابن عمها اتركها واهتم بدراستك و لاتذهب لتضايقها مرة اخرى وإلا أخبرت والدها.

ـ لا داعي لذلك، لن أُضايقها بعد اليوم.

ـ أرجو ذلك..

أمرٌ غريب هل هي قامت بإخبار أُمها أم صديقتها تلك!. فكرت كثيراً بما حصل، كيف لها أن تحتفظ برقمي إن كانت لا تريدني!.

أمَا كان من الاولى ان لا تحتفظ به ان كانت تكرهني؟!. لكن لماذا اعطت رقم هاتفي لامها كي تتصل بي!، امر آخر محيّر!.

لكن مهما يكن فالامر بدأ يتأزم وانا في بدايات الحب الاول، نعم قلت لها لن اذهب واضايقها مرة اخرى لكن لا اظنني أتحمل عدم رؤية يافا..

فأنا أشتاق إليها بين النظرتين التي تقل عن ثواني فكيف لي ان لا اذهب هناك لأراها؟!.

لم أهتم بمكالمة أمها، وطلبها مني عدم مضايقة إبنتها حسب قولها.

وأي مضايقة تتكلم عنها، أنا لا أستطيع الكلام حينما أقف بقربها!.

وفي يوم الثلاثاء الثالث من يناير لسنة 2012 خرجت من آخر محاضرة لي في الساعة الواحدة والنصف ظهراً متوجها لرؤية تلك التي ملكت قلبي وجوانحي فقد كنت احفظ جدولها اليومي واعلم انها في الساعة كذا في المحاضرة الفلانية وفي الساعة كذا في المحاضرة الفلانية.

وقتها كان لديها درس «مختبر مادة الشبكات الكهربائية» وفوق كل هذا كنت اعلم أماكن قاعة مختبراتها، فكل شيء يتعلق بيافا مخزّن في ذاكرتي حتى هذه التواريخ التي تقرأها كلها من الذاكرة ليست مكتوبة عندي من وقتها.

دخلت قسمها وصعدت إلى الطابق الاخير حيث قاعة مختبر الشبكات الكهربائية، واذا الباب مفتوح إلى مقدار النصف، ألقيت نظرة إلى الداخل فرأيتها تعمل في إحدى الاجهزة المختبرية وتربط اسلاكا بيديها الناعمتين. لم ترَني هي فقد كانت منشغلة بالجهاز، نظرت إلى يميني في الممر فرأيت مقاعد استراحة فذهبت وجلست هناك منتظرا إياها.

مرّت نصف ساعة ولم تخرج ألقيت نظرة ثانية واذا بها منشغلة

ايضاً، عُدت إلى مكاني وجلست انتظر وبعدها بعشر دقائق بدأت الطلبة بالخروج الواحد تلو الآخر.

والجميل في الامر ان صديقتها تلك خرجت قبلها ونظرت إليَّ ثم نزلت إلى الطابق الارضي هنا شعرتُ انني محظوظ بعض الشيء لقد تخلصتُ منها وهنا كان الاختبار الجدّي هل يافا تحبني ام لا؟. وأخيراً خرجت يافا نظرت يميناً ثم نظرت يساراً فرأتني جالس على المقعد، فأقبلت باتجاهي وقفت مندهشاً، هي أتت لم أقل لها يافا أُريد التكلّم معكِ كان بإستطاعتها ان تتجاهلني وتذهب.

لكنها لم تخّيب ظنّي أتت هي بنفسها وبدأنا نمشي طول الممر في الاتجاه المعاكس لما ذهب اليه الجميع. قلت لها يافا أنا احبكِ جداً وأُريد أن أسمع منكِ ايضا ألا تحبينني؟. قالت «لا»، قلت لها لماذا سكتت ولم تقل شيئا.

علمت أنها خجلت أن تقول والا لماذا أتت إليَّ ان كانت لا تُحبني او عالاقل أنها معجبة بي او لربما أمرٌ جديد لم تجربه من قبل فأحبت أن تجرب الحب لكن بكبرياء خجولة لا تتنازل وتقول أُحبك. او لربما مجتمعنا الشرقي هذا عودنا ان المرأة يجب ان لا تقول كلمة «أحبك» للرجل لان ذلك يقلل من قيمتها في اغلب الاحيان!. عذرتها لحبيبتي وقلت لها اذهبي فقد تأخرتي وإنني قد وعدت والدتكِ ان لا آتي هنا مرة اخرى لكنني لا استطيع ان يمر يوم ولا اراكِ فيه.

ذهبت هي وخرجتُ من كليتها وفي الخارج رأيت صديقاً لي يدرس مع يافا في نفس المرحلة لكنه في قاعة أخرى سلمت عليه وتحدثنا عن

الدراسة والامتحانات التي إقترب موعدها وبينما نحن نتكلم خطرت لي فكرة فقلت لصديقي أريد منك بعض مصادر الكتب الدراسية عندكم أحتاج إلى نسخها، كانت فكرتي أن أسهل عليها بعضا من دراستها بتلك المصادر.

وبعد يومين أي في يوم الخميس، الخامس من يناير سنة 2012 كانت الساعة تشير إلى الثانية ظهراً واصدقائي ينتظروني في السيارة لأننا سوف نذهب إلى البيت في عطلة نهاية الاسبوع، خرجتْ يافا مع صديقتها تلك، وجلستا أمام القسم. ذهبت إليها واعطيتها المصادر المستنسخة التي قمت بنسخها من أجلها. فاخذتها وقالت لي «شكرا»، قلت لها عفوا. ثم مشيت قليلا فرجعت انظر اليها نظرة أخيرة لأنني لن أستطيع رؤيتها خلال يومي العطلة وهذا كثيرٌ جدا عندي لكنني عندما نظرت اليها رأيت صديقتها تحمل المصادر بيدها وتقلب الاوراق كأنها تبحث عن شيء ما ويافا تنظر اليها ولا تقول شيئا.

الحسد والغيرة موجودة عند الرجال لا شك بذلك لكن عند النساء اعظم وبما انهن كذلك لم اكره تلك الفتاة التي كانت تسبب لي بعض المشاكل لانها من النساء والامر ليس بيدها فهي تغار وهذا من حقها.

وإن كانت غيرتها على حساب سعادتي فانا لا احمل عليها في قلبي سوى كل شيء جميل فكلنا بشر ونتعرض لهذه الامور ولكن بتفاوت من شخص لاخر.

بـداية المأساة..

عدتُ إلى اصدقائي الذين كانوا بانتظاري للذهاب إلى البيت وبما ان مدينتي تبعد عن مدينة الموصل بسبعين كيلو متراً، مسافة ساعة في السيارة كنتُ دائماً افضل الجلوس قرب النافذة وأنظر إلى بيوت الطين والى البراري التي نمر من خلالها حتى نصل لمدينتي فادخل إلى عالمي الخاص في التفكير بيافا، أحلام وأُمنيات كثيرة تراودني، ففي عالمي الخاص كل شيء جميل لانه يرتبط بيافا وكما قال بدر شاكر السياب

«حتى الظلام هناك اجمل فهو يحتضن العراق»، كنت اقول حتى الظلام في عالمي اجمل فهو يحتضن يافا.

لا ادري إلى اليوم لماذا أحببتها وتعلقت بها هكذا فهي في مخيلتي في كل وقت في الصباح والمساء، وعندما اصحوا وعندما أنام وفي الجامع وعند الصلاة، في كل مكان هي بمخيلتي كنت أحيانا أسهو في عدد ركعات الصلاة من كثرة التفكير بها، يقول مجنون ليلى:

أُصلـي فمـا أدري اذا مـا ذكرتهـا   أثنتيـن صليـت الضحـى ام ثمانيـا

وصلنا إلى البيت ومرّ اليوم الاول طبيعياً وفي ليلة اليوم الثاني رأيت في المنام أن أبا يافا اتصل بي وبدأ يتكلم بصوت عالٍ ويهددني ان أترك ابنته وشأنها، لا ادري كيف استيقظت وبتُ أبحث عن الهاتف فتحته ظناً

مني أن الامر بالواقع وليس حلماً وإذا بي اتأكد انه حلم، فقلت الحمدلله أصابني الرعب جراء ذلك الحلم المزعج.

وفي يوم الاحد كان لدي امتحان الفصل الاول لمادة المختبرات، قلت سأذهب واجري الامتحان وأرى يافا ثم أعود للبيت مرة أخرى لأننا قد دخلنا في عطلة نصف السنة قبل الامتحانات لكي نستغلها بالدراسة. خرجت في الصباح الباكر في اليوم الثامن من كانون الثاني سنة 2012 أي بعد مرور شهر بالتمام والكمال لأول مرة تكلمت فيها مع يافا وقلت لها «أحبك»، وصلت إلى قسم الميكانيك دخلت الامتحان وكنت قد درست جيداً، وانا في الامتحان والأسئلة تبدوا سهلة بعض الشيء قلت سأكمل الامتحان واذهب مباشرة اليها لانني كنتُ مشتاقاً لها جداً.

خرجت من الامتحان وبينما أنا أنزل من الدرج قال لي مقرر القسم:

ـ أأنت يوسف؟

ـ قلت له نعم.

قال تعال معي إلى غرفتي دخلت غرفة مقرر القسم وأنا واقف، أخرجَ تلك المصادر المستنسخة التي اعطيتها ليافا يوم الخميس الماضي، ووضعهم أمامي وقال لي انك تضايق فتاةً في هندسة الحاسبات وأبا تلك الفتاة قد قدّم شكوى ضدك في الامن الجامعي!!. وسوف يأتي أمنيان اثنان ليأخذوك عند الضابط، هنا كانت الصدمة التي جعلتني أجلس منهارا امام المقرر، قلت له نعم انا جاهز.

ثم قال لي المقرر ان هذا الضابط صديق قديم لي سأتحدث معه وسوف لن يأخذوك اليه لكن أُريدك أن تَعدني ان لا تذهب وتضايقها مرة اخرى وجرَّ بإصبعه خطاً على طاولته وقال هذا الخط لا تجتزه بعد اليوم.

حملت المصادر وفتحت احدى سلات القمامة ووضعتهم فيها وخرجت مكسوراً مذهولاً لا اصدق ما حصل..

أحقا انا بهذا القدر من السوء لكي يقوموا بتقديم بلاغ ضدي في الامن الجامعي!. وأين الامن الجامعي من اؤلئك الشباب والفتيات الذين يمشون سوية وهم يمسكون أيادي بعضهم ويفعلون الافاعيل!!. وانا لم افعل شيئاً سيئاً لها لكي يفعلوا بي كل هذا مجرد مساعدة بسيطة أردتُ بها ان تدرس لكي تنجح، لكن في اغلب الاحيان المعايير ليست عادلة.

خرجت من الجامعة مباشرة وذهبت إلى مرآب السيارات التي تأخذني إلى مدينتي وجلست في المقعد الامامي جانب السائق وسرنا نحو مدينتي وانا مصدوم جداً بما حصل، لقد تحقق ذلك الحلم المزعج الذي رأيته البارحة، وفي الطريق قام السائق بتشغيل اغنية تركية حزينة جداً زاد ما انا عليه من الحزن وبدا عالمي يحجبه عن عيني سواد مظلم لقد تغير كل شيء كأن يافا رحلت من عالمي ولن تعود بعد اليوم!.

وحصل لنا امر طريف ونحن في الطريق جعلني اضحك وأنا في قمة حزني، حيث نزل رجل مُسِن مع زوجته العجوز ولم يدفعا اجرة الطريق وبعد دقائق معدودة تذكر السائق انهما لم يدفعا، فرجع يبحث عنهما في قرية تسمى «قرية العاشق» قرب مصفى الكسك على طريقنا وبدأ السائق بالسب والشتم. كان يقول ألا يستحون من شيبهم نزلوا ولم يدفعوا الاجرة، كنت اضحك في داخلي لكن لم اظهر للسائق ذلك، كان الامر مضحكاً جدا حينها، وبعدما يأسَ السائق من العثور عليهما اكملنا طريقنا متوجهين إلى مدينتي.

لم تستمر ايامي الجميلة مع يافا سوى شهر واحد فقط، بدأت بالثامن

من كانون الاول وانتهى كل شيء في الثامن من كانون الثاني. وبعد هذه الحادثة الأليمة كان لابد أن اتخذ قراراً حاسماً فقد أصبحت بين خيارين إما أن أتركها لأحفظ نفسي لربما من الفصل من الجامعة

او أذهب اليها ولا أهتم بالذي حصل رغم جسامة المشكلة!.

وبدأ القلب والعقل في صراع كل منهما يفكر بحل يناسبه ويحاول ان يقنعني به. القلب يقول كيف لك ان تتركها انها يافا، لا تستطيع تحمل عدم رؤيتها ستموت شوقاً صدقني انا قلبك واعلم بحالك. رد العقل وقال لكن ماذا لو ذهبت اليها واشتكوا عليك مرة اخرى ما الذي يحدث بك لربما سوف تخسر سنة دراسية اذا ما تم فصلك جراء ذلك، ماذا تقول لاهلك ماذا تقول للناس طالب من الاوائل يُفصل من الجامعة من اجل فتاة!. رد عليه القلب قائلا وكيف له ان يتركها لقد دخل حبها في شغافي وامتلأت مدني وشوارعي وازقتي بيافا وصورها وابتسامتها تكاد لا ترى فراغا فيَّ الا وشيء منها فيه حتى انني شككت ان اسمي سيتغير من القلب إلى يافا فكيف تريد ايها العقل ان يتركها الفتى؟!.

حنَّ العقل على القلب وعليَّ وقدم حلاً وسطياً مرضياً لكلينا، فقال لا تتركها اذهب اليها وقف بعيداً عنها ولا تتقرب منها كأنك آتٍ لزيارة احد اصدقائك في كل مرة. ومن ذا الذي يستطيع منعك من ذلك حتى وإن وصل الكلام إلى المقرر فانت لم تقترب منها وليس باستطاعته منعك من الذهاب لاي مكان تريده في الجامعة، وهكذا ستحفظ نفسك من الفصل لربما وتكمل دراستك وتدرس جيداً لتكون معيداً او على الاقل ان تتخرج وتعمل ثم تذهب لخطبتها من أهلها.

كان هذا القرار هو الأقرب إلى الصواب فاقتنعت به لربما كما قال العقل انه باستطاعتي ان احقق حلمي وان اتزوج يافا بعد التخرج لكن الامر يحتاج صبرا وعزيمة فالقرار يتكلم عن ثلاث سنوات أُخريات حتى يكون باستطاعتي ان اتقدم واطلب يدها.. وقصتي معها في شهرها الثاني وأمامي ما يقارب ستةٌ وثلاثين شهراً، مدة طويلة جدا لكن لا حلَّ لدي سوى الصبر والانتظار لعل الله يرأف بحالي ويعطيني القوة الكافية لكي اتحمل هذه المدة الطويلة من الزمن.

مرَّ اسبوعَي عطلة منتصف السنة وقد درست ما يمكنني دراسته وانا في تلك الحالة بدأت امتحانات الفصل الاول في نهاية شهر كانون الثاني من السنة نفسها.

وأذكر يوماً من الايام خرجتُ من إحدى الامتحانات وقد إجتمعت السحب السوداء وتداخلت مع السحب البيضاء مغطيةً السماء الزرقاء الجميلة بلون رمادي قاتم. وتبدو على تلك السحب أنها تنوي إفراغ ما في جعبتها من الأمطار التي لم تكن تقف عائقا امام ذهابي لرؤية تلك التي مكانها فوق السحب التي تمطر علينا، فهي القمر ليلة البدر.

خطوت خطواتي هناك وبدأت الامطار تهطل بغزارة فمن تحت شجرة إلى اخرى ومن بناية إلى اخرى وصلت قرب قسمها وقد كنت مشتاقا لها جدا فقد مر وقت طويل على رؤيتي لها آخر مرة عندما أعطيتها المصادر ونظرت إليها واذ بتلك الفتاة تقلب الاوراق بحثا عن شيء لم اعرفه لكنني لم اركز عليها حينها قدر تركيزي بملامح حبيبتي وعيناها.. لقد مرَّ على ذلك قرابة العشرون يوماً وهذه اطول مدة لم ارَها فيها منذ بداية حبي لها.

وصلت إلى قسم التربية الرياضية الذي يقع على طريق خروجها إلى البيت وكان الطلبة مجتمعين هناك كل ينتظر مجيء السائق الذي يوصله إلى بيته، وبينما انا واقف إذ بيافا وصديقتها مقبلتان من بعيد حاولت ان أختبئ خلف الطلاب لكي لا تراني اقتربتا منّا، وانا أنظر إليها لم يشغلني شيء سواها انظر لها فقط من بعيد وهي لا تدري. مشهد مؤلم كيف كنتُ قبل عشرون يوما بالتحديد أذهب إليها واقف معها واتحدث واقول لها احبكِ وأرى تلك الابتسامة الخجلولة واحمرار خديها عندما تسمع مني هذه الكلمة واليوم انا اقف بعيداً لأنظر اليها فقط.

حينها ندمت استعجالي وكثرة ذهابي اليها قبل أن تحدث المشكلة التي اوصلتني إلى ما انا فيه الآن وبدأت اعاتب نفسي على كل شيء والقي اللوم عليها.. ما الذي فعلته لقد خسرت كل شيء، فشتان ما بين الوقوف بجانبها والنظر اليها عن قرب وضياع كلماتي واحرفي في تعابير ذلك الوجه البريء والابحار في تلك العينين الواسعتين التي لا حدود لهما وبين النظر متخفيا من بعيد، لا أكاد رؤية ملامح وجهها جيدا.

مرت يافا وصديقتها في طريقهما إلى الخروج من الجامعة من باب الملعب احدى ابواب الجامعة الذي يقع في الجهة الغربية، كم كان الوقت يمر سريعا عندما كان يتعلق الامر بها فعقارب الساعة تدور ببطئ طيلة اليوم ولكن عندما أرى يافا لا ادري كيف ينتهي الوقت سريعا، سريعا جدا، هل الساعة تخدعني، اين ذلك التباطؤ في الدوران عند رؤيتها الا تنصفينني أيتها الساعة وتقللين من سرعتك فانا محتاج لكل لحظة من اللحظات إلى رؤية حبيبتي، حتى انتِ ايتها الساعة تقفين امام سعادتي تمهلي قليلا وارحمي قلبا مزقه الشوق إربا. لكن كيف لي ان

اطلب الرحمة من آلة لا تشعر ولا علاقة لها بالامر، فالسجين يرى ان الوقت طويل جدا لانه يتابعه ويحسبه وكذلك انا طوال يومي احس بذلك الاحساس لانني انتظر وقت ذهابي لرؤيتها واتابع الساعة بين الحين والآخر فهي بالنسبة لي الامل والحياة التي اعيش من أجلها ولكن عندما اراها انسى الساعة وانشغل بها اظن ان نسياني للساعة وقت رؤيتها هو السبب في عدم احساسي بالوقت!.

مرت الايام وانتهت امتحانات الفصل الاول وأُعلنت النتائج، الغريب في الامر هو أنني قد حصلت على أعلى درجات في المرحلة لخمس مواد رغم الذي حصل لي قبل الامتحانات!.

أنتبهت حينها لامر جميل جدا تكاد لا تراه عند الكثيرين.. أيقنت ان هذا الحب لا يؤثر كثيرا على دراستي وان بامكاني ان أجمع بين الدراسة والحب في آن واحد، فكم سمعت قصصاً لطلاب من الاوائل وقعوا في الحب وتدنى مستواهم العلمي واصبحوا يرسبون في موادهم ويمتحنون في الدور الثاني والبعض يرسب رسوبا كاملا جراء الحب لانه لا يستطيع التوفيق بينهما.

فكرت في الموضوع جيدا وقلت لنفسي إذا جلست أقرأ لا افكر فيها واذا فكرت بها اترك الدراسة، لا اجمع بينهما، فللدّراسة وقتٌ، وللحب وقت عملت مدة من الزمن على هذه القاعدة التي ستجنبني تدني مستواي الدراسي فقد كان طموحي في بداية السنة ان اكون الاول على مرحلتي قبل وقوعي في حب يافا والآن اختلف الامر لا اريد ان اخسر الاثنان معا والامران متضادان لا يجتمعان الا بعزيمة وتركيز كبير.

مرت الايام وانا في كل يوم اذهب لرؤيتها من بعيد، دخل حبنا شهره الثالث وانا في نفس الحالة، كنت أتعجب من نفسي ماذا افعل انا آتي هنا كل يوم متخفياً لاراها فقط!. وانا اشاهد حولي المحبين جالسين في جوٍ رومانسي مفرط، وأنا كمن فعل امرا مشيناً اختبئ خلف الأشخاص أو خلف الاشجار فقط لأراها..

كيف لهذا الحب النقي العفيف الذي لا تشوبه أي شائبة ان يحل به هكذا واغلب حكايات الحب عند الجالسين حولي حب مؤقت أحدهما يضحك على الاخر..

لكن مهما يكن فانا ارى يافا كل يوم وهذا ما أروم اليه رؤيتها فقط حتى الوصول إلى الهدف الذي قد رسمته في مخيلتي بعد ثلاث سنوات سأطلب يدها وتكون بقربي في كل وقت.

ومرت الايام هكذا إلى ان جاء يوم وقد كنت خارجا من قسم الميكانيك رأيت صديقة يافا «ندى «تلك التي رفضت الجلوس الا بعدما قالت لها يافا ذلك، الفتاة التي قالت «نحن لا نحب هذا الامر ان كنت تريدها اذهب واطلبها من ابيها «رأيتها في ذلك اليوم تمشي وحدها مع أحد طلاب مرحلتها!.

يا للعجب أهذه التي قالت لي ما قالت أين هي من كلامها، مرَّت من جانبي نظرت إليها نظرة تعجب واستهزاء، كيف لها ان تجمع بين الموقفين!.

وبتُ اتساءل لماذا الجميع يقفون امام حبي لتلك الفتاة البريئة ويتحدثون بالمثاليات في أمرنا وعندما يتعلق الامر بهم يكون شيئا عاديا لماذا؟.

تركتها وشأنها ولم اذهب اليها لكي أُذكرها بما قالت لي وبما فعلت بعد ذلك، أخذتُ الموقف من جانب آخر وهكذا حالي في التعامل مع الناس مذ كنت صغيراً، فأنا لا أتعامل مع الناس بالمثل بتاتا، وانما اتعامل معهم بطبيعتهم البشرية. وهذه الفئة من الناس ترى أن ما تفعله هو الصواب ولو كان مشابهاً لموقفٍ لهم في السابق!.

عُدت إلى السكن الجامعي وجلست افكر في قصتي والى متى سأبقى متخفياً ماذا ستقول يافا عني، تركني من اول مشكلة ولم يعد يأتي لرؤيتي!.

يجب أن أظهر نفسي لها وأبين لها أنني قادم من أجلها وأنني لم أنسَها واكون حذرا من التقرب منها، لأن أسئلة كثيرة كانت تدور في مخيلتي وعلى رأسها من الذي أخبر أبيها بأمر المصادر التي أعطيتها لها؟!. ولماذا فعل بي هكذا؟، لكن هذا السؤال يتطلب ان اقف معها والوقوف معها يسبب لي مشاكل كبيرة، ففكرة التقرب منها لربما سيفشّل كل ما خططت من اجل الوصول اليها في يوم ما.

بدأت اذهب إلى كليتها وأقف في الحديقة منتظرا اياها، وفي إحدى الايام خرجت يافا مع صديقاتها وجلسن على احد المقاعد الذي يحوي على مظلة فوقه وجلست بعيدا عنهن. وبدأت أنظر اليها وهي تنظر الي من بعيد لكن احسست أنها قد تغيرت عن السابق شعرت أنها لا ترغب بوجودي هناك لقد كانت نظراتها تختلف تماما عن السابق!.

قلت لنفسي ما الذي حصل لماذا تغيرت تجاهي ولم تعد كما كانت!.

ضايقني الامر كثيرا، وبقيت افكر مالذي حصل لها لكي تتغير معي

هكذا؟!. فكرت كثيرا ثم خطرلي انه لربما قام والداها بتوبيخها لانها أعطت لي الفرصة بالوقوف معها وان اكلِّمها فلربما قالوا لها انتِ السبب في كل ما حصل ولو لا انكِ أعطيته الفرصة لما جاء ووقف معكِ من دون كل الفتيات. ومهما يكن قدرت موقفها فهي فتاة مؤدبة جدا لابد انها تسمع كلام والديها، لم اهتم بنظراتها المتغيرة نحوي فهي تبقى وردتي الجميلة حتى بتلك النظرات التي لم تعجبني عن السابق.

وفي احد الايام ذهبنا أنا واصدقائي الثلاثة «حسام وحردان وحيدر «لتناول الغداء في مطعم النخيل الذي يقع مقابل باب الرئاسة احدى اكبر مداخل الجامعة وبينما نحن نأكل رأيت أحد طلاب المرحلة الثالثة ايضا جالس هو وصديقه على بُعد طاولة منا فسلمت عليه واكملت غدائي، وبينما انا كذلك خطرت لي فكرة فقد كان هذا الطالب مسؤولا عن مجلة تصدر من قسمنا بأسم «مجلة إنسبشن المنوعة» وكانت كلمة انسبشن مكتوبة باللغة الانكليزية وهي تعني باللغة العربية «مجلة البداية المنوعة» وقتها كانت المجلة متوقفة لاسباب لا اعلمها فقمت بعد الغداء وجلست معه وسألته عن أخبار تلك المجلة التي كانوا يصدرونها العام الماضي، فقال لي أن مسؤولي المجلة منشغلون بالدراسة ولا وقت لديهم لجمع المواضيع من الطلبة واصدار اعدادٍ جديدة، فقلت له ماذا رأيك لو استلمتها انا وصديقي حيدر ونبقيك معنا في إدارتها والاشراف عليها؟، لم يمانع الفكرة، أو لربما وجدها فرصة لاستمرار المجلة في نشاطاتها.

الهدف من توجهي إلى المجلة كان بسبب يافا اردت ايصال بعض الرسائل غير المباشرة لها بانني احبها ولم اتركها بتاتا رغم انني اذهب في كل يوم لرؤيتها وهي تراني وتعلم جيدا انني آتٍ من أجلها.

وبعد مدة قصيرة استطعنا ان نصدر العدد الثامن مكملين رقم الاعداد السابقة للمجلة وكنا قد طبعنا ما يقارب الثلاث مئة نسخة وكان التركيز في توزيع اعداد المجلة على طلاب قسمنا لان اغلب المواضيع من مشاركاتهم وكنت اعطي صديقة يافا «ندى» نسختين ولا اقول لها شيئا ظنا مني انها تعرف ان النسخة الثانية ليافا ولم اكن اعلم ان كانت ستوصلها لها ام لا تفعل!.

لا ادري لماذا لم استطع الذهاب هناك وتوزيع النسخ للطلاب والطالبات واستغلال الفرصة بالتقرب منها واعطائها نسخة لم استطع فعل ذلك وكم كنت اتحضر قبل توزيع اي عدد ان اذهب هناك واعطيها لكن بلا جدوى.

وبسبب الامتحانات والدراسة لم نستطع في ذلك الوقت اي بعد الفصل الاول أن نصدر الا عددين فقط، وعلى الرغم من ان هدفي من وراء المجلة كانت يافا لكنني كنت احب النشاطات الثانوية كهذه، التي ترّفه عن النفس قليلا وكم كنت استمتع في يوم توزيع عدد من اعداد المجلة عندما امر من جانب مجموعة من الطلاب واراهم يقرأون مجلتنا شيء جميل أن تكتب شيئا وترى الناس يقرأونه.

أستمرت المجلة معنا تلك السنة وأنا أيضا أستمريت بالذهاب هناك حيث يافا التي تغيرت كليا عليّ ولم تعد تنظر الي البتة، وان نظرت تنظر بغضب وكانها تقول ارحل من هنا، كم كان شعور قاسياً منها تجاهي..

قلت لنفسي وانا جالس انظر اليها وهي قد أدارت ظهرها علي لماذا هذا الجفاء يا حبيبتي ما الذي فعلته حتى تفعلي بي هذا وانت تعملين انني احبك جدا.. ألا ترأفين بحالي وتنظرين الي ولو لمرة واحدة لعل

ذلك القلب الذي مُلأ بكِ يسكن حاله فقد اهلكه الشوق لتلك العينين التي حرمتيه منهما.

بدأت يافا تقسو علي كثيرا بجفائها وانا آتي من هناك حيث قسم الميكانيك أتمشى تحت حر الشمس واتصبب عرقا لحين الوصول إلى كليتها وهي تبخل علي بنظرة واحدة!. أي عدلٍ هذا، لم اعد أطلب منها سوى النظر الي ولو لمرة واحدة لكنها لا تفعل، بحثت عن اسباب لاعذرها مما تفعل لي لكنني لم اجد، فهي ليست يافا التي عشقتها ابدا لابد ان هناك امراً كبيرا قد حصل وانا اجهله، والا كيف لها ان تتغير بهذا الشكل.

بقيت يافا تتجاهلني حتى ايقنت انها لم تعد تحبني عكس ما كنت اظن في السابق فتصرفاتها لا تدل عن اي حب، لقد ورطتُّ نفسي في هذا الحب وتعلقت بها جدا وليس باستطاعتي ان اتركها بتاتا كما ليس باستطاعتي ان اجعلها تحبني.. أمر محير جدا وكأني أيقنت وقتها ان هذا الحب أصبح من طرف واحد فقط وانا صاحب ذلك الطرف وانها لم تعد تهتم بي اطلاقاً وانما تكره وجودي هناك.

وبينما هي تتصرف معي بكل هذه القساوة لم اتركها يوما فقد كنت اذهب لرؤيتها في كل يوم وكنت أُلاحقها حتى خروجها من الجامعة وكانت تقف هي وصديقتها عند الموقف تنتظران السيارة التي توصلهم الي البيت، فكنت اعبر الشارع واقف في الجهة المقابلة لها وأواصل النظر اليها إلى ان يأتي السائق فتصعد هي في تلك السيارة الصفراء التي كانت تقل في كنفها اجمل وردة في الدنيا...

كم كنت احسد ذلك السائق الذي يأتي بها في الصباح وما اجمل

ذلك الصباح الذي يبدأ برؤيتها، كم كنت اتمنى اشياء كثيرة بقربها حتى كنت احسد طلاب مرحلتها وكليتها فهم يرونها في كل حين بينما انا بعيد عنها. والغريب في الامر أنني لم أتغيب عن اي محاضرة من محاضراتي حينها وكنت آتي لرؤية يافا كل يوم فالمحاضرات مهمة لدي ايضا فبنجاحي وتفوقي ساصل اليها. استطعت ان استغل جميع اوقات فراغي قرب يافا وان كانت تتجاهلني لم أكن اهتم لتجاهلها فأنا احبها كثيرا وكنت على يقين ان باستطاعتي جعلها تحبني لكن ليس في الوقت الحاضر فكل شيء مخطط لدي.

جَفـــاء..

كان لدي صديق اسمه مهند، كرديٌّ من محافظة كركوك شاب وسيم متدين بعض الشي كان يعلم بقصتي مع يافا، وهو ايضا كان يحب فتاةً لكن بطريقة حذرة جدا الفتاة نفسها لم تكن تعلم به وبشعوره تُجاهها، سألته يوما ما لما هذا الحذر الشديد يا مهند اذهب اليها واخبرها بما تشعر به. وانت شاب جاد ولا تريد الا الزواج منها، حكى لي قصة حزينة جدا جعلته يتصرف بهذه الطريقة.

اخبرني أن خاله كان يحب فتاة حباً عظيما وكان له صديق من أعز اصدقائه وهذا الصديق على علم بحال خاله، لكن في بعض الاحيان تخرج النفس البشرية عن انسيانيتها وتتصرف بانانية قاتلة دون التفكير بمشاعر صديق ولا اخٍ ولا قريب، ذهب هذا الرجل صديق خاله وخطب تلك الفتاة التي كان يحبها خاله، فكانت الصدمة كبيرة جدا عليه فقد خسر الفتاة التي احبها من كل قلبه لكن خيانة الصديق كانت اشد وطئا عليه. وقع طريح الفراش مريضا لا يتحمل ما حصل له من خيانة وخسارة في الوقت ذاته، واستمر به المرض إلى ان وافاه الاجل جراء ذلك، اذهلتني قصة خاله جدا حينها ولم اكن قد سمعت بقصة كهذه من قبل.

أصبحت أعذر مهنداً لحذره لكنني قلت له بأن هذه القصة ليست

امرا عاما ولا تحصل كثيرا لا تبقى متأثرا بشيء لربما يولد فيك عقدة لا تستطيع الزواج بعدها.

وقد كان خال مهند شاعرا لديه اشعار جميلة جدا، وفي يوم من الايام رأيته يحمل منديلا ورقيا وقد كتب عليه بيتين من شعر خاله المرحوم جاء فيه:

أخـــــبريني...

متـــى اللقـــاء، ســـأمضي إليـــك حتـــى ولـــو مشيـــاً إلـــى السمـــاء
سأبحر دهراً بلا شراع حتى تجُّفَ دموعـــي وتـــودع شـــراييني الدمـــاء

وقد كان البيتان مكتوبان في منتصف المنديل بخط مهند الجميل باللون البرتقالي وقد زخرف اطار المنديل بالالوان زخرفة مبهرة أعجبني ذلك المنديل وما فيه كثيرا فطلبته من مهند، فلم يمانع من اعطائي اياه.

وفي يوم الخميس الثاني والعشرون من مارس اذار من سنة 2012

قرر طلبة مرحلتي الذهاب إلى سفرة داخل الجامعة قرب كلية الطب البيطري حيث كانت حولها مساحات خضراء فارغة يذهب اليها جميع طلبة الكليات في فترة الربيع للنزهة، لكنني رفضت الذهاب معهم وقلت في نفسي سأذهب إلى كلية يافا وامضي يوما كاملا هناك، كنت سعيدا لذلك لانني سأرى يافا كثيرا في ذلك اليوم، لبست ملابسي لكن لا اعلم لماذا اخترت اللون الاسود فقد لبست قميصا وبنطلونا وحذاءا اسودا هل كان ذلك دليلا على سواد ما سيحصل لي يومها؟!.

ولا اعلم ايضا لماذا حملت معي منديل مهند الذي به البيتين ووضعت فيه قليلا من العطر وخرجت متوجها اليها وانا فرح وصلت

إلى كليتها في الثامنة صباحا، وكانت يافا قد وصلت قبلي وكعادتها لم تبالي هي بوجودي، بدأ وقت محاضرتها الاولى ذهبت هي وصديقاتها ودخلن القسم ولم تخرج يافا من قسمها إلى الساعة الثانية ظهرا حتى في وقت الاستراحة بين المحاضرتين، علمتُ انها لا تريد رؤيتي لذلك لم تخرج ومع ذلك لم أتركها قلت ستخرج للذهاب إلى البيت لابد من ذلك وسأراها بالتأكيد. فكلما زادت قسوتها وجفاءها عليَّ ازددتُ لينا وتقبلا لها لا ادري لماذا لكنني احببتها فعلا وليس باستطاعتي ان اتخلى عنها بتاتا ولا حتى مجرد التفكير بتركها مهما حصل وانا متيقّن بالمقولة التي تقول

«إن الحب تضحية» وانا ماضٍ في حبها وساصبر حتى تعود إليَّ يافا التي احببتها جدا تلك التي كانت تبتسم لرؤيتي تلك التي قلبت موازين حياتي ستعود يوما ما وتقول لي احبك انا متأكد من ذلك.

خرجت يافا وصديقاتها معها قبيل الساعة الثانية ظهراً ولم يبقَ أحد

في الكلية الا العدد القليل فاليوم يوم الخميس واغلب المراحل تنهي محاظراتها في الساعة الواحدة ظهراً، نظرت يافا يمينا فرأتني واقف انتظرها أقبلت هي واحدى صديقاتها الجدد وصلتا بقربي قالت صديقتها لي إلى متى تأتي هنا، الفتاة لا تحبك ولا تريدك اتركها وشأنها، قلت لها انا احبها والامر ليس في يدي، قلبي يريدها، نظرتُ إلى يافا ورأيت في وجهها وعينيها نفس الكلام ادركت انها قد تغيرت بالفعل لا ادري كيف وضعت يدي في جيبي وأخرجت المنديل واعطيته اياها وقلت لها «لن يحبكِ أحدٌ مثلي». ثم مشيت وانا منهار لا ارى شيئا امامي.

كان هذا الانهيار العاطفي الثاني بالنسبة لي بعد شكوى ابيها عليّ في الامن الجامعي آنذاك. حبيبتي يافا لمَ كل هذه القسوة لماذا جعلتيني احبكِ بهذا القدر ثم تغيرتي علي.

لماذا كنتِ تبتسمين عند رؤيتي لماذا؟!..

لماذا اوصلتيني إلى هذه المرحلة التي لا عودة بعدها!..

فانا الآن لا استطيع ان اعيش من دونك، ولا أستطيع ترككِ..

رديني إليكِ..

او رديني إلي..

لا تتركيني في المنتصف..

كانت لهذه الحادثة الاثر الكبير في قلبي لانني رأيت في وجه يافا تلك الكلمات التي قالتها صديقتها عكس ما رأيت في وجهها يوم انتظرت منها الجواب عندما صارحتها بحبي لاول مرة، فعادة اغلب البشر نَرى ما في قلوبهم على وجوههم عندما يتحدثون عما يريدون فاذا تكلم الانسان في امر ما متحمسا نعلم انه يؤيد ما يقول وعندما نرى شخصا يتكلم ووجهه محمر وهو يتلكأ في الكلام نعلم انه قد أُجبر على قول ذلك او انه خائف من أمر ما فالوجه مرآة القلب في غالب الامر، واضف إلى ذلك ان ذلك الوجه وجه حبيبتي فكيف لي ان لا اعرف ان هذا الكلام منها هي لكن صديقتها هي التي قالته.

لكن لماذا صديقاتها هنَّ اللواتي يتكلمْنَ وليست هي في كل المواقف التي تحدث بيننا!.

لماذا تتهرب هي من الكلام معي؟!. إلى يومنا هذا لا اعلم لماذا كانت يافا تلتجئ إلى صديقاتها بامور تخصها هي!. هل كانت شخصيتها ضعيفة ام انها خجولة لا تستطيع ان تقول ما تريده؟!!.

مرّ اسبوع على الحادثة ولم اذهب لرؤيتها وانا مشتاق لها جدا رغم الذي فعلته بي فانا لازلت احبها، احبها جدا ورغم كل ما تفعله بي لا استطيع ان اكرهها ولو قليلا ابداً. فحبها قد وقر في قلبي ودخل إلى شغافه فلربما صدق القائل حينما قال:

أتاني هواها قبل ان اعرف الهوى فصـادف قلبـا خاليـا فتمكنـا

كنت بعيدا عن الحب والهوى قبل ان اراها في ذلك اليوم، ليتني وقتها بقيت نائما لبعض الوقت ليتني تأخرت أكثر لعل تلك النظرة لم تكن تحصل..النظرة التي غيرت حياتي نعيماً لفترة قصيرة وجحيما في بقيتها لكن مهما يكن فإن الامر قد حصل وهذا قدر الله وجب أن أؤمن به واحمد الله على كل حال.

لربما سيأتي يوم وتكون هذه الايام الصعبة والقاسية عليَّ ذكريات أُعاتب فيها يافا إن أمكنني الله ان اتزوجها، وسأكون سعيدا بهذه الذكريات ان كانت هي من تشاركني في استعادتها.

جاء يوم الاول من نيسان من السنة نفسها حيث يصادف يوم تأسيس جامعة الموصل وتقام في هذا اليوم احتفاليات واستعراضات كبيرة ويأتي المسؤولون الكبار لزيارة الجامعة كالمحافظ او شخصيات من المجلس المحلي او حتى احيانا يأتي وزير التعليم العالي للجامعة احتفالا بهذا اليوم يوم التأسيس او عيد الجامعة كما هو متعارف عند

الطلبة. والجميل في هذا اليوم ان الطلاب يلبسون ملابس تقليدية كلٌّ حسب قوميته متحررين من ملابس الزي الموحد الذي يلبسونه طوال ايام السنة.

وما ان يحل الصباح إلا وترى الطالب العربي قد لبس الجلباب «الدشداشة» الابيض الجميل او الوان اخرى مع ما يلبسه العرب على رؤوسهم الذي يسمى العقال مع الغترة البيضاء الناصعة او الشماغ الابيض والاحمر وفوق الجلباب ترى بعضهم قد لبس العباءة «البشت» التي يلبسه الشيوخ عندهم وتراهم قد تجمعوا في احدى الحدائق وهم يمارسون نوعا من انواع الرقص التقليدي عندهم اذ يقفون مصطفين بجانب بعضهم البعض ويؤدون تلك الحركات المتشابهة وهم يهتفون هتافات او يغنونون اغانيهم الفلكلورية الشعبية التي تعبر عن الفخر والكرم والجود عندهم.

أما الطالب الكردي فتراه قد لبس زيهم المشهور المتكون من شماغ أحمر يُلَف بطريقتهم الخاصّة وتحته طاقيّة صوفيّة، كما يرتدون الشروال الّذي له شيّالان، مع سترةً تحتها قميص ويحيط وسطها بحزام من قماش خفيف.

وترى الطالب التركماني قد لبس الزي التركماني الذي يعود تاريخه إلى العهد العثماني وبما انني من القومية التركمانية فقد لبست في ذلك اليوم زياً من احد ازياءنا المتنوعة وهي عبارة عن جلباب «دشداشة «منقوش عليها نقوشات جميلة بالخيط مع سترة من نفس قماش الجلباب وفيه نقوشات تشبه التي في الجلباب وطاقية على رأسي وكنت

قد وضعت العلم العراقي على كتفي الايمن والعلم التركماني «الازرق الفاتح والابيض» على كتفي الايسر.

كانت ملابسي غريبة جدا لبقية الطلاب من القوميات الاخرى ولهذا السبب الكثير من الموجودين في ذلك اليوم طلبوا التقاط صورة معي فأخذت صوراً متنوعة مرة مع من يلبس الزّي العربي ومرة مع من يلبس الزّي الكردي ومرة كنا نقف جميعا في صورة واحدة وقد امتزج فيها كل الوان الطيف العراقي الجميل بعيدا عن تعصب القوميات التي أدت إلى خراب بلادنا وحصل لنا من ورائها الويلات.

فما اجمل ذلك اليوم حين ترى ان الكل مجتمع والكل قد ارتسم في وجهه تلك الابتسامة النابعة من الداخل، والبعيدة عن التصنع فهم فرحون مع بعضهم البعض ولا يحملون لبعضهم الا كل شيء جميل عكس ما تنقله وسائل الاعلام على أننا قوميات متصارعة فيما بينها وكل قومية تريد الهيمنة على السلطة لتتحكم برقاب البقية.

وبينما انا في وسط الزحام والجميع يريد التقاط صورة معي جاءني مذيع احدى اذاعات الراديو التي تبث في مدينة كركوك باللغة التركمانية وعمل معي لقاءاً حيث ابدى اعجابه بملابسي اولا وثم بوضعي العلمين العراقي والتركماني على كتفي وبدء يسألني ويشيد بفكرة وضع العلمين سويا، وكنت اجيبه بلهجتي التي تختلف عن لهجة اهل مدينة كركوك بعض الشيء.

كان يوما جميلا بالنسبة لي وكان السبب الرئيسي من لبسي تلك الملابس هي يافا فقد مرّ على عدم رؤيتي لها قبيل عشرة ايام بالضبط

وبينما نحن نتجول في الجامعة انا واصدقائي رأيت يافا وصديقتها تلك التي اتت معها قبل عشرة ايام وقالت لي ما قالت حينها.

اقتربنا منهما واذ بها تراني في تلك الملابس الغريبة فضحكت وتكلمت مع صديقتها، قلت لربما ضحكت لانها لم ترى زي كهذا من قبل، رجعنا إلى قرب المركز الطلابي حيث التجمعات واصوات الاغاني من على مكبرات الصوت وفي كل حين نلتقط الصور تلو الصور إلى ان حلت الظهيرة واصبح الجو حارا بعض الشيء، خرجنا من الجامعة متوجهين إلى السكن الجامعي بعد يوم جميل من ايام الدراسة الجامعية.

وفي الليل جلسنا ننظر إلى الصور التي التقطناها سوية في الاحتفالية وبينما نحن نقلب الصور واذ بي ارى صدفة، يافا موجودة في احدى الصور خلفنا لكن بالكاد يبدو وجهها، لم يركز اصدقائي على تلك الصورة.

وعندما اكملوا مشاهدة جميع الصور نقلت تلك الصورة إلى هاتفي النقال ومسحتها من حاسوب صديقي، فتحت الصورة وبدأت اقرب الصورة إلى وجهها لكن المشكلة انني عندما أُقرّب الصورة تختفي ملامح وجهها وعندما أُصغرها تبدو من بعيد!. لكن مهما يكن فانا الآن استطيع ان آراها كل يوم.

الامر الطريف انني كنت اذهب لرؤيتها من بعيد وعندما حصلت على صورة لها بالصدفة ايضا كانت تبدو فيها من بعيد فسبحان الله على هذا البعد متى ينتهي!.

وبعد يوم الاحتفالية هذا لم استطع ان أمنع نفسي من الذهاب إلى

هناك حيث يافا رغم الذي حصل، لكن ما في اليد من حيلة لا استطيع ان اتركها ليتني كنت أحبها فقط فكلمة الحب شيء بسيط جدا بما أشعر به تجاهها لكنها لا تقدر ذلك، وكم كان الفضول يقتلني لاعرف مالذي جعلها تتصرف معي بكل هذا الجفاء والقسوة.

أحيانا كنت اقف في شرفة غرفتنا في السكن الجامعي والتي كانت تطل على ساحة وقوف السيارات لمطبعة ابن الاثير، وارفع رأسي إلى السماء وأصيح بداخلي يااااافاا! واعيدها مرات ومرات، وكأنني أقلد بذلك ما كنا نراه عندما كنا صغارا في الافلام الكارتونية وخصوصا ما كان يفعله عدنان عندما كان يصيح باعلى صوته ليناااا، لكن لينا كانت تسمعه ويافا لا تسمعني بالتأكيد، ولربما حتى لو سمعتني لاغلقت اذنيها فهي لا تحبذ رؤيتي فكيف لها ان تسمع صوتي، لربما بدأت وقتها بالقيام ببعض التصرفات التي لا يفعلها الا المجانين، أيعقل ان تخرج وتصيح في داخلك يافا لعلها تسمع؟!. فذلك قمة الجنون، لكن من قال انني لست كذلك فانا مجنون حقا بحبها وهل رأيت احدا يقدم كل هذه التضحيات وتقابله هي بكل هذه الجفوة والقساوة ويبقى يحبها ويشتاق اليها الا مجنون وقعت جوارحه تحت رحمة من يُحب!.

كانت رؤية يافا حينها تمدّني بالقوة لكي استمر بالحياة فهي لا زالت تمثل ذلك الحلم الجميل الذي اتمنى من الله أن يحققه لي رغم فقداني الأمل بذلك.

مرّت الايام قُدماً ودخلنا في شهر ايار وفي نهايته كان موعد الامتحانات النهائية لتلك السنة التي كانت من اسوأ السنوات في حياتي

عدا الاسبوع الاول منها بالتحديد، فقد مر على ذلك اليوم المشؤوم يوم الثامن من يناير وتلك الشكوى عند الامن الجامعي قرابة الستة اشهر وانا لازلت أعاني من اثار تلك الحادثة الاليمة التي كانت نقطة تحول في حياتي من الاحلام والامنيات الجميلة التي كنت اعيشها مع اجمل فتاة في العالم كله إلى كوابيس قلبت حياتي رأسا على عقب واذهبت تلك الاحلام والامنيات ادراج الرياح.

وفي احد الايام وبينما نجري إمتحان مادة الرياضيات وانا جالس في قاعة الامتحان مرت مجموعة من الفتيات وبينهن رأيت يافا، لم اصدق عيناي يافا أتت إلى قسمي لا لا هذا شيء لا يصدق لا ادري كيف خرجت وقتها من ذلك الامتحان وصرت ابحث عنها هنا وهناك علني اراها، وصلت إلى باب القسم الخارجي واذ بي ارى طلاب وطالبات المرحلة الاولى لقسم الحاسبات قسم يافا قد اجتمعوا عند الباب فانا اعرفهم لانني كثير الذهاب إلى هناك ومعرفتي لهم تقتصر على الوجوه فقط دون الاسماء، سألت احدهم ماذا عندكم هنا؟.

قال لي جئنا لنستلم درجات الرسم الهندسي، وقد كان الاستاذ الذي يدرسهم مادة الرسم الهندسي استاذا من قسمنا، حينها علمت ان يافا في غرفة استاذ الرسم الهندسي اسرعت هناك وصلت باب غرفته لكنني وقفت ولم ادخل، فانا لم اأكن أعلم ماذا ساقول له اذا سألني ما تريد.

جاءتني وقتها فكرة، والافكار تأتيني سريعةً عندما يتعلق الامر بيافا، وكما قلت انها ملكت تفكيري وقلبي وجوارحي فالكل كان يعمل بطاقته القصوى عندما يتعلق الامر في ملكتهم يافا كنت وقتها قد امتحنت مادة

الرسم الهندسي فقلت سادخل واسأل الاستاذ كيف كانت الاجابات وما هي نسبة النجاح مع أنني كنت اعرف جيدا انه لم يكمل تصليح الرسومات لانه يمر سوى يومين على الامتحان، دفعت الباب واذ بيافا تقف هي مع صديقاتها، نظرت يافا إلى من دفع الباب ليدخل واذ بها تراني. واخيرا التقت عينيَّ بعينها بعد اشهر طويلة.

كم كان بوسعي وقتها ان امتلك قوة خارقة لكي اوقف الزمن حينها لتبقى تلك النظرة وتستمر معي لأكثر وقت ممكن لاعود بالذكريات إلى ايام حبي الاول واستذكر هنا في هذا القسم تلك النظرات وتلك الابتسامات التي دخلت شغاف قلبي.

لكن كل ذلك لم يحصل كانت نظرة سريعة لم تتجاوز ثانية من الزمن، بدا على الاستاذ انه منشغل باسئلة الطالبات صديقات يافا، وقفت انتظر حتى يكملوا اسئلتهم لكي ابدأ باسئلتي فهم قد اتوا قبلي، وبينما انا كذلك انتبهت لامر غريب لا ادري ما هو السبب فقد كانت يافا ترتجف حينما كنت واقفا بقربها انتظر، امر غريب لماذا ترتجف يافا فنحن في الشهر السادس شهر حزيران والجو حار والغرفة كذلك، ايقنت انها لا ترتجف من البرد وان الذي يحصل لها اما انها ترتجف بسببي او ان امرا ما اجهله جعلها ترتجف، وكما هو معروف ان الرجفة ليست بيدنا في غالب الاحيان ولا نستطيع السيطرة عليها الا بزوال السبب.

خرجت يافا مع صديقاتها وخرجت ورائهن حتى انني لم اسأل الاستاذ حينها، لربما نسيت ان اسأله فكل تفكيري عند يافا، وصلن إلى باب القسم الخارجي ادركت انها ستذهب فقد اكملت ما جاءت من أجله عندنا.

ذهبت يافا وانا انظر اليها وهي تبتعد شيئا فشيئا إلى ان اختفت عن ناظري لقد كان يوما جميلا، والايام يقاس جمالها عندي بمقدار رؤيتي ليافا فكلما رأيتها زاد جمال ذلك اليوم ونقشت كل تفاصيله في ذاكرتي فكل موقف يتعلق بيافا يرتسم هنا في الذاكرة ولا حاجة لي ان اكتبه في دفترٍ او ما شابه فالذاكرة تكفي.

وبعدما أكمل اصدقائي الامتحان توجهنا إلى باب العلوم للخروج من الجامعة حتى نستأجر سيارة اجرة توصلنا إلى السكن الجامعي وبينما نحن نخرج من الباب نظرت يمينا واذ بيافا واقفة وحدها تنتظر السائق الذي يوصلها إلى البيت لا ادري لماذا كانت وحدها ولماذا من هنا بالتحديد فهي كعادتها تخرج إلى البيت من باب الملعب البعيد من هنا والقريب إلى كليتها! لماذا ارادت الخروج من هنا اليوم!!.

نظرت اليها ونظرت الي، وكانت تلك النظرة آخر نظرة لي اليها قبل العطلة الصيفية الطويلة، عبرنا الشارع واستقلينا سيارة اجرة بيضاء اللون فسيارات الاجرة عندنا ليست موحدة اللون، ترى السائق لديه وظيفة، ويمتلك سيارة شخصية يعمل بها سائقا ليستطيع ان يوفر لقمة العيش لافراد عائلته وهذا امر طبيعي لدى اغلب شعوب المنطقة.

انتهت الامتحانات النهائية وانتهت تلك السنة الدراسية الحافلة بالاحداث الجميلة والحزينة في نفس الوقت، فقد بدأت بها وانا هدفي شيء واحد فقط الا وهو أن اكون الاول على مرحلتي بالتحديد ولم يكن في الحسبان انني سأقع في الحب وانني سأعيش قصة لربما استطيع القول عنها الآن انها كانت قصة مأساوية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

مرّ الاسبوع الاول من العطلة وفي الاسبوع الثاني اعلنت النتائج وايضا كانت نتيجتي جيدة انتظرت إعلان تسلسلات الطلبة، حتى جاء ذلك اليوم الذي ذهبت لاجل ان اعرف تسلسلي على طلاب مرحلتي واذ بالمقرر يقول لي انك الثالث على طلبة مرحلتك، احسست وقتها بالفرح والحزن في الوقت ذاته، فرحت لانني رغم ما حصل لي ما حصل جراء ذلك الحب وما اعقبه آثار اليمة تركت في قلبي وغيرت موازين حياتي الا انني لازلت في اطار المنافسة ولازلت من الاوائل الثلاثة على مرحلتي.

لكن الحزن اصابني لان هدفي كان هو ان اكون الاول ولم استطع الوصول اليه والانكى من ذلك انني نزلت درجة مما كنت عليه في المرحلة الاولى، فقد كنت الثاني حينها واصبحت الثالث الآن، شعرت بالخسارة من كلا الطرفين لم احصل على يافا ولا وصلت إلى ما أريد لكنني مع ذلك لم ابتعد كثيرا عن محور المنافسة.

وفي احد ايام الصيف ذاته رأيت يافا في منامي رأيتها في الساحة التي كنا نلعب بها كرة القدم عندما كنا صغارا وكان الحلم في الليل والقمر كان بدرا كنت ماسكا يدها ثم قلت لها ـ يافا ألا تحبينني؟.

ـ بلى، أحبك لكن أهلي يقفون في طريقي اليك.

ثم سحبت يدها من يدي واختفت وانتهى ذلك الحلم الجميل الذي أعطاني لربما نوعا من الامل انها تحبني لكن السبب هم اهلها ولعل كل احلامي التي تتعلق بيافا تكون في الغالب واقعا ولا انسى ذلك الحلم الذي رأيته قبل ان يشتكي ابوها عليَّ في الامن الجامعي آنذاك.

طال صيف ذلك العام جدا علي، وكانت تأتيني أيام اشتاق فيها إلى

يافا شوقا عظيما يجعل قلبي وكأنه يُعصر من شدة الشوق لرؤيتها فما من سبيل لرؤيتها الا في الاحلام، والاحلام ليست في يدنا، وكم كنت افكر فيها قبل النوم علني اراها ولو لبرهة من الزمن لعل ذلك القلب يهدأ قليلا ونعود بالاحلام إلى ذلك الزمن الجميل حيث يافا كانت عندنا في قسم الميكانيك وكنت اعيش بوجودها اجمل ايام حياتي على الاطلاق، لكن كما ان هذا العالم سينتهي يوما ما وان كل شيء كُتب عليه النهاية فكان لابد لتلك الايام ان تنتهي وتقلب معها اجمل صفحات الذاكرة التي لا يمكنني ان انساها ما حييت.

انتهت العطلة الصيفية اخيرا وبدأت السنة الدراسية الجديدة اصبحت في المرحلة الثالثة ولا اعلم هل يافا نجحت ام رسبت في سنتها الاولى، بدأت بالسؤال عنها من عدة اشخاص إلى ان تأكدت ان يافا قد رسبت في السنة الاولى، خبر محزن جدا فحبيبتي قد رسبت ولابد انها كانت حزينة جدا لانها لم تستطع النجاح، وكم كنت اتمنى ان اكون بجانبها في مثل هذه الاوقات اخفف عنها، لكنني لم اعلم بهذا الامر الا بعد ثلاث اشهر ولابد انها قد تجاوزت مرحلة الحزن في الوقت الحاضر.

فكرت كثيرا في اسباب رسوبها فقلت لربما ان اعادة الترشيح التي جاءت متأخرةً قبيل امتحانات الفصل الاول باسبوعين جعلتها لم تستطع فهم المواد جيدا واللحاق بالطلبة الذين اتوا قبلها باكثر من شهر. واحيانا كنت اضع اللوم على نفسي فلربما كنت سببا في رسوبها نعم هي كانت لا تلقي اهتماما لي عندما كنت اذهب لرؤيتها طوال تلك السنة هذا ما كان يبدو لي، لكنني لم اكن اعلم انها لربما تتأثر بقدومي هناك وان ذلك يؤثر في مستواها الدراسي.

مهما يكن فقد احسست بالذنب وبانني جزء من سبب تعاسة حبيبتي وذهاب سنة دراسية من عمرها فقررت عدم الذهاب اليها الا مرات قليلة جدا كي لا اؤثر عليها مرة اخرى، فرغم صعوبة الامر على نفسي الا انني لا استطيع ان اكون مؤذيا قيد شعرة لتلك الفتاة الجميلة التي احبها من كل قلبي. لقد كان لشعوري بالذنب تجاهها سببا رئيسيا لعدم ذهابي هناك اضافة إلى ذلك انها سوف لتتأخر في بدأ الدوام لانها ستنتظر قدوم المرحلة الاولى الجدد لكي تنضم اليهم في رحلتها إلى عبور هذه المرحلة المزعجة جدا.

أحيانا نحن البشر نقدم الحب بطريقة عمياء لا ننظر إلى العواقب ولا إلى ما يحصل لمن نحب بعدها، ظنا منا ان ذلك الحب والاهتمام الزائد يوصلنا إلى ما نريد وسنكون سعداء بالطبع في نهايته، لكنها نظرة احادية خارجة من القلب دون المرور بالعقل الذي يكون الصواب منه غالب الاحيان.

كانت لحياتنا في السكن الجامعي الاثر الاكبر في جعلي ابتعد قليلا عن يافا وان اتركها وشأنها، فقلت لنفسي إن كانت من نصيبي سأتزوجها ولو وقف اهل الارض كلهم ضدي وان لم تكن كذلك فلن استطيع الزواج منها ولو كان اهل الارض كلهم معي هذا ايماني بربي كان هذا التفكير المنطقي نوعا ما اساس قرار الابتعاد عنها والتقليل من الذهاب هناك حيث كليتها.

مرت الايام هكذا وانا اذهب لرؤية يافا في كل شهر مرة او مرتين بعدما كنت اذهب هناك كل يوم في السنة الماضية. وفي الفصل الثاني طلبني مقرر القسم لغرفته وقال لي اننا سوف نقيم معرضا في القسم

بمناسبة اليوبيل الذهبي لتأسيس كلية الهندسة والذي كانت يصادف قبل عيد الجامعة بايام قليلة وقال لي انك ستكون مسؤولا عن مشاركات الطلبة في المعرض نظرا لنشاطك الجميل في المجلة التي تصدرونها في القسم بدأت انشر الخبر وادعوا الطلاب والطالبات للمشاركة في المعرض وكنت قد جهزت مشاركة لي وهي الكتابة بالالوان الزاهية على المناديل الورقية وزخرفة جوانبها كذلك المنديل الذي اعطيته ليافا العام الماضي.

وكانت هناك مشاركات اخرى للطلبة منها الرسم والخط العربي الجميل اضافة إلى ذلك اخرجنا الاجهزة الميكانيكة الموجودة في المختبر ووقف عليها اساتذة ليشرحو لمن يسأل عنها.

وقد حضر الافتتاح حينها رئيس الجامعة الاستاذ أُبي سعيد الديوجي وكانت قناة الموصلية ايضا موجودة تصور المعرض وعملت القناة عدة لقاءات مع الاساتذة بعدها طلب المذيع ان يعمل لقاءا مع احد الطلبة فاختارني المقرر من بين الطلبة الواقفين لعمل اللقاء التلفزيوني حينها

كنت مرتبكا جدا فانا لم اعمل لقاءا تلفزيونيا في حياتي لكن الاختيار وقع علي ولابد ان اقف واتكلم عن المعرض بدأ المذيع يسألني وانا أجيب لكن الارتباك كان واضحاً على وجهي وكنت خائفا ان اقع في خطأ ما، وصلنا إلى نهاية اللقاء فقال لي المذيع عرف عن نفسك فقلت يوسف محمد طالب في المرحلة الثالثة القاعة «بي «هنا كان الخطأ الفادح الذي لربما لم ينتبه عليه احد وقتها حتى انا لم انتبه لذلك لكن صديقي حردان كان يصورني بهاتفه اثناء اللقاء، وبعدما اكملنا اللقاء

شاهدت ذلك في هاتف حردان، وكم خجلت من نفسي عندما ذكرت القاعة «بي «وما علاقة القاعة بالكلام لربما هذه كانت من الدقة التي تعودنا عليها في الهندسة فانا اعطيت موقعي بالتحديد ولم يكن ينقص الا ان اقول له المقعد الفلاني من على اليمين قرب النافذة!.

قلت لنفسي لربما يافا سترى اللقاء في التلفاز وتضحك على ما قلت، لكن اظنها ستقلب القناة اذا رأتني فهي لا تحب رؤيتي بتاتا، وبعد مرور عدة ايام اخبرني مجموعة من الاشخاص انهم رأوا اللقاء في التلفاز لكنهم لم يذكروا لي ما كنت خائفا منه فقلت في نفسي مرت على خير لم ينتبه احد لذلك الخطأ المضحك.

مرت الايام وبدأت اشتاق لرؤية يافا كثيرا فقد مضى على اخر مرة رأيتها فيها اكثر من شهر، وفي احد الايام كان الجو غائما، قررت الذهاب هناك إلى كليتها وصلت إلى احدى الحدائق جلست قليلا واذ بيافا معها طفلة صغيرة تشبهها بعض الشيء عمرها تقريبا خمس سنوات وصديقاتها ايضا معها خرجن من القسم وجلسن بعيدا عنا قرابة الثلاثون مترا وكانت يبدو على تلك الطفلة انها مشاغبة جدا لا تقعد في مكانها فاما تهذب وتقطف الازهار او تأتي لتضرب يافا بيدها الصغيرة تلك. مرت الطفلة من امامي ويافا تلاحقها وهي لا تسكن بتاتا حتى امسكت بها واخذتها إلى حيث صديقاتها، بعدها نظرت إلى يافا نظرة اخيرة وحملت حقيبتي التي فيها كتبي وذهبت متوجها إلى السكن الجامعي. وانا في الطريق روادتني افكار كثيرة ندمت على عدم استغلالي تلك الطفلة علني كنت اتقرب منها، قلت لنفسي لماذا لم اذهب واقطف وردة واعطيها لتلك الطفلة كانت ستأخذها بالتأكيد، لماذا لم امسك بالطفلة

المشاغبة تلك واحملها واقبلها ثم اعطيها إلى يافا ألم يكن امرا جميلا مني لها لو حصل ذلك!.

وكعادتي في اغلب امور حياتي الافكار الجميلة تاتيني بعد ذهاب الفرصة من امامي ولا تاتيني تلك الافكار في الوقت المناسب، لكن كيف لي ان اعاتب نفسي على هذه الافكار المتأخرة، وانا عقلي يتوقف عن العمل عند رؤيتي ليافا وكأنني أتحول إلى آلة متخصصة للنظر فقط لا يمكن لها التفكير ولا فعل اي شيء سوى الابحار في تلك العينين الجميلتين والوجه البريء الذي اذا ابتسم إلى وردة انحنت له تلك الورود اجلالا لجمال ابتسامتها التي تفنن الخالق فيها، فهنيئا لمن يرى تلك الابتسامة كل يوم.

مرَّ على حبي ليافا اكثر من سنة ونصف وكأن القدر يقول لي أن هذه الفتاة ليست لك في كل حادثة تحصل لي أتبين اكثر فأكثر أن الامور تذهب إلى شيء يستحيل حدوثه، وكم قالوا لي دعها وشأنها فهي لا تريدك وإن ذهبت لخطبتها، فحتى لو حصلت على الموافقة من اهلها فهي لن توافق بالتأكيد.

لكن كان لدي أمل كبير وشعور قوي أنها ستحبني يوما ما وانها ستقول لي «أحبك «نعم أنا متأكد من ذلك ولا أبالي بما يقولون، لربما انا عنيد بعض الشيء لذلك لم اكن اهتم بما يقولون كنت افعل ما أريد ولا أبالي بأحد. أحيانا نحن البشر عندما ننصح احدنا الاخر نكون مثاليين جدا في النصح في امور لاتخصنا اما اذا حصل لنا امر مشابه فعلنا عكس ما كنا ننصح، ولعل تلك الفتاة التي قالت لي اننا لا نحب هذا الامر وان

مجرد وقوفنا معك امر غير مقبول عندما انتظرت الجواب من يافا يوم تكلمت معها لاول مرة كانت في مرحلة النصح المثالي ليافا لكن عندما تعلق الامر بها ذهبت ومشت مع ذلك الطالب متناسيةً ما قالته لي قبل عدة اشهر.

وفي أحد الايام لعله في نهاية شهر أيار من سنة 2013 م كنت واقفاً مع أحد طلاب قسم الميكانيك، يدعى مصطفى من محافظة الانبار من مدينة القائم بالتحديد على الحدود السورية العراقية، وكان مصطفى شاعرا متمكنا رغم صغر سنه فقد كانت تدهشني اشعاره الجميلة وكانت لا تقل جمالاً عن اشعار شعراء كبار، لهذا كنت احيانا اشك ان هذه الاشعار الجميلة التي كنت استمتع بقرأتها ليست له وظننت انه يترجم اشعارا من لغات اخرى ويقوم بترتيبها هذا ما كنت اتصوره. وقفنا نتكلم على احدى الممرات المطلة على ساحة السكن الجامعي والظلام دامس بالكاد ارى وجهه لان الكهرباء كانت منطفئة حينها، وبدأنا نتكلم عن الحب والاشعار وقصص الحب إلى أن سألني أتحب؟.

قلت له دعك من ذلك، قال اريد أن اعرف قصتك، أصر على معرفة قصتي، فبدأت بسردها له من بدايتها إلى ذلك اليوم الذي كنا نتكلم فيه، وبعدما اكملت له القصة أتتني فكرة جميلة قلت سأختبر بها مصطفى هل هو شاعر فعلا، قلت له أكتب لي قصيدة تصف قصتي باختصار ولم اقل له انني اختبر مدى شاعريته، لم يمانع مصطفى وقال لي سآتيك بها عن قريب.

وفي يوم الاحد السادس والعشرون من شهر أيار من سنة 2013 م

والساعة تشير إلى الثامنة وثلاثون دقيقة تقريبا جاءني مصطفى يحمل هاتفه النقال وقال لي لقد أكملت كتابة القصيدة وكان قد كتبها على هاتفه فبدأت أقرأ القصيدة التي كان عنوانها «بريد الحياة»:

سـألت الليـل عن شـوق لأيـامي   صـارت تجـوب اليـوم فـي معاناتـي
أمسـت تطيـل السـطر فيّ آلامـي   وأضحت تصوغ الوصف من دمعاتي
رأيـت العمـر زهـرا عنـد أحلامـي   وحـبٌّ لهـا يحيـى فـي هواياتـي
هـاج بحر القلـب حيناً وأقـامي   خطّـت حـروفـا دونهـا آهاتـي

***

عن حـاجز في مطلـق الاوهـام   أدمـى اللقـاء والقـى ضـوء شـمعاتي
ألقـى الشـمّوع في وسـط الظـلامَ   حتـى يـسير اليـأس في جراحـاتي
مات عندي اليأس كلا لا لإيلاميَ   أنا لسـتُ ممحـواً وكـذا طموحـاتي
روحـي بـريـد مـفـعم بسـلامي   حبي وشـوقي فـي الحيـاة، حيـاتي

أذهلني بهذه القصيدة الرائعة جدا من ناحيتين، اولها انني قد قيّدته بأمر ما وهو سر موجود في القصيدة، وثانيها انه ابدع في وصف القصة بهذه الابيات الثمانية فقد كانت ابياتها الاربعة الاولى تتكلم عن مدى الآلام التي اعيشها جراء هذا الحب والشوق والمعاناة وأنني اهواها جدا.

لكن البيتان الخامس والسادس كانا وصفاً دقيقاً جداً لما حصل فهو يصف والدها بالحاجز الذي وقف امام حبي ليافا واكمل يقول «القى الشموع في وسط الظلام «فعلا هو فعل ذلك فقد كانت الشكوى هي نقطة التحول في حياتي فقد تغيرت يافا علي تغيرا كبيرا جدا وكأن والدها قد أطفأ انوار تلك الشموع على عالمي حتى جعله مظلماً لان يافا رحلت منه بسببه.

نجح مصطفى في ذلك الاختبار الذي لم افصح عنه له وأيقنت أن هذا الشاب سيكون شاعرا كبيرا في يوم ما فقد استطاع تحويل قصة طويلة مرت عليها اكثر من سنة وستة اشهر إلى قصيدة بثمانية ابيات رغم التقيد الذي طلبته منه في البدايات.

ولا أُبالغ ان قلت أنني قد حفظت القصيدة من قرآتي لها للمرة الاولى فقد أعجبتني كثيراً، وابديت الامتنان والشكر لمصطفى فقد كتب لي اجمل قصيدة لاجمل قصة في حياتي رغم ان القصة مؤلمة لكن مجرد انها تتعلق بيافا فهي جميلة عندي ولو كنت متألما منها.

مرت الايام وأكملنا الامتحانات واتذكر انني ذهبت لارى يافا للمرة الاخيرة في تلك السنة الدراسية التي كانت عاديةً جدا فلم تحمل احداثا جميلة مع حبيبتي، انتظرتها حتى تخرج من امتحانها الاخير ومن حسن الحظ خرجت وحدها لاول مرة ارى يافا وحدها وليست معها احدى صديقاتها، توجهت يافا إلى باب الملعب للخروج من الجامعة فهي تنتظر السائق خارج ذلك الباب، لحقت يافا ولا يوجد احد في الطريق سوانا اقتربت منها وحاولت ان اوقفها، لا ادري لماذا لم استطع ان اقول لها، يافا هل بامكاننا التحدث، كان لدي الكثير من الاسئلة، وددت ان اسألها لكنني لم استطع التحدث معها.

أمر غريب فبعد كل هذه المدة من الحب لازلت لا اعرف ما يحصل لي عندما اتقرب منها ما هذا الحب العظيم لتلك الفتاة امر غريب فعلا، وصلنا إلى الباب ذهبت هي ووقفت حيث موقف السيارات وانا عبرت الشارع لاذهب إلى السكن الجامعي كان ذلك اخر مشهد لي معها في تلك السنة.

إختفاء يافا..

بدأت العطلة الصيفية بعد انتهاء الامتحانات النهائية وكالعادة بعد عشرة ايام اعلنت النتائج وكانت نتيجي افضل من نتائج السنوات الماضية وبعد مدة ذهبت لاعرف تسلسلي على طلاب مرحلتي في تلك السنة، دخلت غرفة مقرر القسم ففاجأني وقال لي ان تسلسلك الاول على طلبة مرحتلك كان خبراً سعيداً جداً وقتها، فرحت كثيرا وتمنيت يومها ان يافا بقربي وتشاركني فرحتي بهذا الحلم الذي تحقق بعد التعب والجد والجهد المتواصل طوال تلك السنة، حمدت الله كثيرا حينها فقد وصلت إلى ما كنت انوي اليه قبل سنتين بالتحديد نعم لم احقق الهدف المنشود بعد ولكنني احسست اني وضعت قدمي على الطريق وانني باذن الله سأصل إلى ما أريد.

أنتهت العطلة الصيفية وبدأ الدوام وبدأت اسأل الطلاب الذين أعرفهم هل يافا نجحت هذه السنة أم رسبت كالسنة الماضية؟، أخبروني أنها قد نجحت من الدور الاول، فرحت كثيرا عندما سمعت بهذا الخبر، وفكرت ماذا عساي ان افعل لها لكي أبين لها مدى فرحتي بنجاحها، جاءتني فكرة جميلة بأن أشتري كتابا واغلّفه واكتب فيه «مبروك النجاح» واضعه فوق مقعدها في القاعة.

ذهبت إلى مكتبة البيع المباشر للكتب والتي تقع في بناية المركز الطلابي نفسها دخلت المكتبة وأنا ابحث عن كتاب مناسب لاهديها، بحثت كثيرا هنا وهناك حتى رأيتُ كتابا للشيخ الدكتور عائض القرني عنوانه «أسعد إمرأة في العالم» فقلت في نفسي هذا هو الكتاب المطلوب دفعت ثمن الكتاب وخرجت إلى مكتبة صغيرة قرب مكتبة الكتب التي اشتريت منها الكتاب لكي اغلفه واكتب فيه تهاني النجاح ليافا، أكملت التغليف وخرجت متوجها إلى قسمها، كان الجو مشمسا وصلت إلى هناك قرابة الساعة العاشرة وعشر دقائق وانا احمل الهدية بيدي رأيت صديقا لي جالساً على احدى المقاعد في وسط الحديقة ذهبت اليه وجلست معه وكان على علم بقصتي مع يافا، سلمت عليه وجلست بقربه وانا انتظر الفرصة لكي ادخل إلى قسمها ولكن المشكلة انني لا اعرف اين تقع قاعتها الجديدة وان علمت فلا ادري اين تجلس بالضبط فانا لا استطيع ان اعطيها الهدية بيدها خوفا من تلك الشكوى القديمة حاولت ان اطلب المساعدة من صديقي لكنه لم يقبل وفوق كل ذلك بدأ يقول لي ان هديتك ليست مناسبة فمن يقرأ الكتب في وقتنا، من الاجدر بك ان تهديها عطرا او ساعة جميلة او شيء من هذا القبيل أحبطني كلامه جدا وقلت لنفسي كلامه صحيح فمن يهدي حبيبته كتابا في وقتنا الحالي!.

لعل فكرة اهداء الكتب جاءتني من المسلسلات التي كنت اتابعها وانا صغير، كنت ارى الشباب والفتيات يهدون الكتب لبعضهم البعض اذا وقعوا في الحب وكانوا يفرحون بذلك لكن الذي حصل لي انني تراجعت عن الفكرة من اساسها ورجعت إلى قسم الميكانيك وفتحت الغلاف عن الكتاب ووضعته في حقيبتي.

مرّ شهر تشرين الاول سريعا وفي بداية تشرين الثاني عُلقت اسماء مشاريع التخرج التي قدمها الاساتذة وكان عددها ثلاثون مشروعا وبما ان عددنا نحن طلبة المرحلة الرابعة ضعف هذا العدد تقريبا فقُسمنا إلى مجاميع في كل مجموعة طالبان، وكل مجموعة تختار مشروعا من تلك المشاريع واذا حصل تشابه في اختيار مشروع واحد من عدة مجموعات تدخل المجاميع في قرعة حتى تفوز احداها بذلك المشروع ويتوجب على بقية المجاميع التي لم تفز بالقرعة اختيار مشاريع اخرى إلى ان يتم أختيار مشروع لكل مجموعة من تلك المشاريع، وقع إختياري لمشروع استاذ قد حصل على الدكتوراه في السيطرة الضبابية في تلك السنة من المانيا وقدم إلى العراق في شهر ايلول من السنة نفسها.

عند اختيار المشاريع في كلية الهندسة لا يكون اهتمامهم الطلبة كبيرا بالمشروع قدر اهتمامهم لاختيار أستاذ المشروع، وهم قد تكونت لديهم وجهات نظر عن بعض الاساتذة من قبل فلا يتقربون لمشروعه ولو كان مشروعا جيدا!.

وهذه من الاخطاء التي وجب على ادارة الكلية حلها حفاظا على المستوى العلمي لهذه الكلية العلمية العريقة، وجدت أخيرا احد الطلاب الذي قبل أن يكون معي في المشروع واستطعنا الحصول على المشروع بكل سهولة لانه لم يختره أحد سوانا.

وبينما أنا منشغل بمشروع التخرج والبحث عن المصادر وقراءتها، أشتقت ليافا وقررت ان أذهب لرؤيتها، ذهبت هناك وجلست في احدى الحدائق انتظرها، أصبح وقت خروجها إلى البيت لكنها لم تخرج،

فالساعة تشير إلى الثانية ظهرا خرجت جميع بنات مرحلتها وهي غير موجودة انتظرتها للثانية والنصف ولم تخرج قلت في نفسي لعلها غائبة عن الدوام في هذا اليوم فتوجهت إلى خارج الجامعة لاذهب إلى السكن الجامعي.

وفي اليوم التالي ذهبت ايضا لرؤيتها لكنها لم تكن موجودة، بدأت أتساءل ما الذي حصل لها!.. لعلها مريضة ولا تأتي إلى الدوام لا أدري لقد قلقت عليها جدا حينها، مرّ اسبوع ولم تأتِ يافا إلى الدوام. بدأت أسأل عنها من الطلاب الذين اعرفهم ولدي صداقة معهم اين اختفت يافا قالوا لي إنها أجّلت هذه السنة، صدمت بالخبر قلت ولماذا أجلت السنة قالوا لا نعلم.

بدأت الافكار تأخذني بعيدا لماذا أجلت هذه السنة لعلها مريضة مرضا خطيرا لاسامح الله لا لا، لم يكن يبدوا عليها شيء في آخر مرة رأيتها فيها، لكن ما الذي جعلها تؤجل سنة من عمرها هل لديها ظرف عائلي لربما أم أنها ستتزوج، لا لا أظن أنها ستتزوج فأهل مدينة الموصل لا يزوجون بناتهم ويقطعون دراستها لا يفعلونها حسب معرفتي بعاداتهم لكن من سيأتيني بخبر أكيد عنها فلا يوجد أحد يساعدني في هذا الامر.

مرت الايام وانا قلق جدا لامرها ولا أعلم مالذي حصل لها. وبينما انا منشغل بيافا واريد ان اعرف سبب تأجيلها لسنتها الدراسية تلك، أعلنت مواعيد المناقشة الاولى لمشاريع تخرجنا، ومن محاسن الصدف أن كان يوم مناقشة مشروع تخرجي في الثامن من كانون الاول من سنة 2013 م في نفس اليوم الذي صارحت به يافا بحبي لها قبل سنتين بالتحديد.

وبقي من الزمن لهذا التاريخ اقل من شهر تقريبا وانا بعدُ لم افهم شيئا عن مشروع تخرجي فماذا سأشرح لو جاء وقته، بدأت أقرأ المشروع يوميا وحاولت ان أفهم ولو الشيء البسيط لكي استطيع أن أتكلم في المناقشة.

مرت الايام وجاء ذلك اليوم يوم المناقشة وقد حضرت مادة من المشروع لكي اشرحها دخلنا إلى قاعة المناقشة وكان طلاب وطالبات المرحلة جالسين في المقاعد الاخيرة وعدد من الاساتذة كانوا جالسين في المقاعد التي في المقدمة..

بدأ صديقي الذي معي في المجموعة يتكلم عن المشروع وعن الهدف منه وما هو الفرق «السيطرة الضبابية والسيطرة الاعتيادية» وانا قد جهزت مثالاً على السبورة لأشرحه بعدما ينتهي صديقي من الكلام، اكمل صديقي الكلام وبدأت أشرح المثال الذي قد حضرته قبل المناقشة وكان مثالا طويلا جدا وفيه الكثير من الرسومات التي توضح فكرة المثال والغاية منه ولم اتوقف عن الشرح الا بعد نصف ساعة تقريبا وبعد انهائي للشرح توجهت اليهم لاستقبل اسألتهم، وكالعادة فالطلبة هم يبدأ بالسؤال عندنا قبل الاساتذة لكن لم يسأل أحد منهم اي سؤال، وبدأ الاساتذة يسألون لكن اسألتهم لم تكن صعبة لانهم لا يمتلكون فكرة عن الموضوع، وفي نهاية المناقشة اشاد الاستاذ المسؤول عن المشاريع بالشرح الذي قدمته وبدا على وجه استاذ مشروعي السعادة فانا امثل مشروعه وكل استاذ يسعد اذا كان طالبه قد قدم عرضا مميزا في المناقشة. كان يوما جميلا كنت سعيدا فيه لما قدمت، لكن لم يكن أكثر سعادة من نفس هذا اليوم قبل سنتين من الآن.

اليوم هو الذكرى الثانية لاحداث الثامن من ديسمبر يوم هدمت طائرات عينيها المركز التجاري للحب في جسدي... انا لا احن إلى تلك الايام، قدر ما أحن إلى نفسي كيف كنت حينها..

تمر الايام وتتوالى..

النكبات والنكسات والافراح والاحزان ..

وتمضي كما تمضي الساعة في دورانها..

دون قيد..

دون توقف..

دون مشاعر ..

الا انها في غفلة من الزمن..

والطيور ترتجف في اعشاشها..

في برد ديسمبر ..

والهدوء يشجبه صوت ..

طقطقات الاسنان..

والدخان من الافواه يتعالى..

وقطرات الندى تتساقط..

تساقطا رتيبا..

وكأن الدنيا قد خليت..

الا من تلك الاصوات..

وبينما افرك كفاي من شدة البرد..

اشرقت يومها شمسان..

نعم شمسان..

شمس ملأت الارض دفئا..

وشمس انارت قلوب العالمين ضياءا..

عندئذٍ...

دبَّ دبيب البشر..

وغردت البلابل بين الشجر..

وازيح الهدوء واندثر..

حينها تراقصت كلماتي..

وتناغمت تناغم امواج البحر..

بين مدٍ وأخرى جزر..

سلطانتي لا ادري أنتِ شمسٌ..

أم قمر..

أم انتي زخات من المطر..

ام زهرة نيسان ام برد ديسمبر..

قولي لي كيف اليك المفر..

وكل ما حولك خطر في خطر..

ردّي الي قلبي وانصرفي..

فكل الامور مصيرها القدر..

ومرت الايام قُدُما وفي إحداها خرجنا انا واصدقائي من الامتحان وذهبنا لتناول الغداء في مطعم المركز الطلابي وكانت هذه عادتنا في ايام الامتحانات فنحن لا نطبخ الغداء لنستغل الوقت وننام قليلا لنصحو العصر وندرس مادة الامتحان الذي يلي، وبينما نحن في الطريق ذاهبون للمركز الطلابي رأيت أحد أصدقائي وهو طالب في قسم الحاسبات قسم يافا، سلمت عليه وبدأت اسأل عنه وعن دراسته حتى قال لي

ـ أعلمت لماذا أجلت يافا هذه السنة؟.

ـ قلت له لا أعلم.

ـ قال لقد سمعت خبرا مؤكدا أن يافا قد أجلت هذه السنة لانها ستتزوج من ابن عمها.

ـ ممن تأكدت؟.

ـ قال لقد سمعها احد اصدقائي وهي تتكلم مع مقرر القسم ان سبب تأجيلها هو أنها ستُخطب وسوف تتزوج من إبن عمها.

صُدمت صدمة كبيرة بهذا الخبر المؤلم جدا، لقد تزوجت يافا وتركتني وحيدا في هذا العالم الواسع الذي أصبح ضيقا جدا كمخيط الابرة في عيني، ضاقت علي الارض بما رحبت. لم أتصور يوما أنني سأبقى وحيدا كالطفل الصغير الذي يموت ابواه ويُلقى به ملجأ الايتام وحيدا يقاسي ظلمة الحياة وحده، ولا يجد حضنا دافئا كي يرتمي فيه ليشعر بالامان فكل شيء حوله أصبح مخيفاً، لقد أظلم هذا الخبر عليَّ عالمي الذي قد بنيته مع يافا وهُدّمت اسواره وأصبح مهجورا لا

حياة فيه فقد ماتت روح عالمي الخاص يافا تلك التي كانت الازهار والورود تحسدها لجمالها ذلك القمر الذي لا يغيب يوما عن عالمي حتى في النهار!.

رحلت يافا بعد مضي سنتان وشهر واحد وستة ايام على ذلك الحب العفيف الذي بدأ من قسم الميكانيك وانتهى هناك حيث هندسة الالكترونيات التي قدمت إليها قبل أكثر من ثلاث سنوات ونصف عندما زرت الجامعة حينها، وبدت على القصة انها انتهت هنا ولا أمل لي بيافا بعد اليوم.

يجب علي أن أبدأ حياتي من جديد دونها، وان اهتم بدراستي أكثر فأكثر فقد خسرت يافا ولا أريد أن أثنّي خسارتي، كان الخروج من هذا الوضع الصعب يحتاج إلى عزيمة كبيرة وسيطرة على النفس وتقليل التفكير بها وعدم الذهاب هناك حيث كليتها لاسترجاع الذكريات وامور كثيرة وقد ساعدني في تلك المواقف الآليمة التي مررت بها في حياتي فأنا لم أعش طفولة سعيدة لقد كانت لحياة الطفولة القاسية التي عشتها الجزء الكبير في تخطِ هذا الموقف الصعب.

فما قيمة هذا الموقف أمام ما كانت أمي تقصه لي عن موقف أليم في طفولتي، فعندما كان عمري سنة وسبعة أشهر توفي والدي في قصة غامضة وهو لم يبلغ الاربعون عاما، تقول أمي انني كنتُ متعلقا جدا بأبي وهذا حال جميع الاطفال، تقول لقد كنت يا ولدي تجلس على الباب تنتظر أباك ليعود وانت صغير لا تعرف معنى الموت وان الميت يرحل بلا عودة وعندما كنتَ ترى رجلا قادماً من بعيد كنت تركض اليه وتصيح

باعلى صوتك أبي أبي. تقول بأنها كانت تمسك بي وتحضني وهي أبكي، إلى يومنا هذا تدمع عيناي حينما اتذكر هذا الكلام.

لقد كانت طفولتي قاسية جدا بعد رحيل أبي وكان أكبر أخوتي حينها في السابعة من عمره رحل أبي مبكرا وتركنا نصارع هذه الحياة القاسية وحدنا، لكنه ترك وراءه زوجة صالحة لم تتركنا وكرّست حياتها لكي تربينا وهي كانت تستطيع ان تتزوج، فقد كان عمرها عندما مات ابي في الرابعة والثلاثين لكنها أبت الا أن تربينا وتوصلنا ما وصلنا اليه، لقد كان والدي موفقا في اختياره لامي فقد ربّتنا على الدين والتقوى والصلاح والامانة والاخلاق واسأل الله ان يوفقني لارد جميل والدتي ولو بالشيء اليسير.

كانت لمواقف حياتي المؤلمة في الطفولة سببا رئيسيا في تجاوز أغلب المواقف الصعبة التي صادفتني في بقية العمر ومنها زواج يافا من ابن عمها، لم أحزن لما حصل الا اياما قليلة ولم يؤثر ذلك حتى على دراستي.

لم انسَ يافا لحظة بعد تلك الحادثة ولا قبلها ولكنني كنت اتناساها لكي استطيع ان استمر في حياتي فلربما قد تعودت على فقدان من أحبهم منذ صغري، وتعودت ايضا على نسيانهم.

حلّ شهر آذار مارس من سنة 2014 م وبدأنا نحن طلاب المرحلة الرابعة بالتحضيرات لحفلة التخرج وكنا نعمل اجتماعات كثيرة وقتها في قاعة مناقشة المشاريع في اوقات فراغنا لنتشاور ونختار القاعة التي سنقيم فيها الحفل ونتفق على شكل درع التخرج الذي سنشتريه وايضا

الاتفاق على ايام نخرج فيها لالتقاط الصور الجماعية، كنت فرحا حينها بتلك المناقشاتٍ التي كانت تحصل بيننا ونحن نستعد لاجمل يوم في حياتنا الدراسية الا وهو يوم حفلة التخرج وسوف تأتي عوائل الطلبة ويجب ان نحضر شيئا يليق بمجيئهم فهذا يوم رد الجميل لهم لانهم تعبوا جدا حتى اوصلونا إلى هذه المرحلة.

أستطعنا أن نؤجر اكبر قاعة موجودة في المدينة حينها لان عدد الحاضرين حسب التوقعات سيفوق الخمس مائة شخص وكان من سوء حظنا ان يوم الاحتفال يصادف يوم سقوط بغداد في التاسع من نيسان ولم نستطع تغيير الموعد بسبب الزخم الحاصل على القاعة من جميع الكليات والاقسام، ولم نكن نستطيع تأجيل موعد حفلة التخرج إلى تاريخ أبعد من ذلك لانها ستكون قريبةً جدا من امتحانات الفصل الثاني لم يكن لدينا خيار آخر إلا القبول بالامر الواقع وأن يرتبط يوم حفل تخرجنا بيوم سقوط بغداد تلك الذكرى الاليمة، فلربما سيحصل توازنٌ في المشاعر في يوم الذكرى الثانية عشر لسقوط بغداد والذكرى الاولى لحفل تخرجنا في السنة القادمة فإن حَزِنا لذكرى السقوط فسنفرح لذكرى التخرج وإن كان الامران لا يتقارنان بالطبع فما قيمة ذلك الفرح بيوم التخرج أمام دخول المحتل إلى بلدي ولا اقلل ايضا من قيمة التخرج فله ايضا اثر كبير على قلب كل طالب اكمل دراسته لكن الحزن مهما يكن عظيما فهو حزن في نهاية الامر وكذلك الفرح.

مرت الايام ونحن منشغلون جدا بتحضيرات الحفلة وعمل برنامج لها واختيار الطلبة الذين سيشاركون في الفعاليات التي سنقدمها فيها، ومن سيلقي الكلمة الافتتاحية للحفلة ودعوة الاصدقاء والاساتذة

لحضورها، وكم كنت أتمنى أن تكون يافا من المدعوات إلى الحفلة لكانت سعادتي مضاعفة يومها لكن هي أقدار بيدالله والحمدلله على كل حال.

وفي ليلة الحفلة اي يوم الثامن من نيسان ذهبنا انا واصدقائي إلى القاعة لكي نرتبها ونضع اسماء الطلبة على الطاولات لكي تأتي عائلة كل منهم وتتعرف على مكان جلوسها مباشرة والسبب من ذهابنا في الليل للقاعة لان الحفلة تبدأ غدا صباحا ونحن لا نستطيع اللحاق باكمال التحضيرات.

وبينما نحن منشغلون بالترتيبات وسحب الكراسي والطاولات ولم ندرك ان الوقت داهمنا وان الساعة أصبحت في الحادية عشر والنصف ليلا اسرعنا بالخروج لعلنا نستطيع ايجاد سيارة اجرة لكي توصلنا إلى السكن الجامعي فالقاعة تقع في الجانب الايسر والسكن الجامعي يقع في الجانب الايمن والمسافة بعيدة بينهما، وكانت المفاجأة أن الشوارع خالية من السيارات وذلك لان الوضع الامني حينها لم يكن جيداً في المدينة والناس تذهب إلى بيوتها في العاشرة مساءا او بعدها بقليل. لكن ماذا نفعل واين سنقضي الليلة وغدا حفل تخرجنا ونحن بعيدون عن السكن الجامعي لم يكن لدينا خيار سوى الذهاب مشيا على الاقدام ونحن عشرة اشخاص، وكان اكثر تخوفنا من نقاط التفتيش للشرطة على الطريق كنّا خائفين ان يرموا علينا الطلقات من بعيد، فالوضع الامني غير مستقر في المدينة منذ سقوط بغداد في 2003.

بدأنا بالسير والتوجه إلى احد الجسور الذي يجب ان نعبره حتى

نصل إلى الجانب الايمن من المدينة، وصلنا إلى بداية الجسر الثالث كما يسمونه في المدينة حيث كان فيها نقطة للشرطة أوقفنا أحدهم وقال من أين تأتون والى اين تذهبون قلنا له ان لدينا حفل تخرج غدا وقد تأخرنا في ترتيب القاعة التي سنقيم فيها الحفل، ونريد عبور الجسر لكي نذهب إلى مكان مبيتنا في السكن الجامعي. قال لنا إن عبور الجسر ممنوع مشيا على الاقدام، فقلنا له وما الحل؟، قال لا اعلم انتظروا لعل سيارة تأتي وتقلّكم إلى الجانب الآخر، قلنا له ومن أين تاتي سيارة والشوارع فارغة!.

ثم قلنا له أخبر احدى الدوريات ليأتوا ويوصلونا إلى السكن الجامعي فقال بانه لا يستطيع فالجهة الثانية ليست من قاطعنا، قال احد الشباب الذين معنا لما لا نتصل بسيارة اسعاف وعندما يأتي السائق سنشرح له القصة رأى الشرطي اننا مصممون على العبور، فقال سأتصل بالضابط وأكلمه عن حالكم لعله يقبل بعبوركم الجسر مشيا على الاقدام ذهب عنا بعيدا واخبر الضابط ثم رجع وقال لنا لقد قَبِل الضابط بعبوركم الجسر، ثم نادى بجهازه اللاسلكي إلى نقطة التفتيش الموجودة في الطرف الآخر للجسر وأخبرهم أن هناك عشرة اشخاص سيعبرون الجسر مشيا على الاقدام لكي لا يرموا علينا الرصاص. الساعة تشير إلى الثانية عشر ليلا بدأنا بالمسير فوق الجسر ونحن خائفون جدا وعندما وصلنا إلى منتصف الجسر بدأت أشعر بنسيم من الهواء البارد القادم من نهر دجلة جلعني اغمض عيني وأخذ نفسا عميقا لطيب ذلك النسيم الذي يخرج من اجمل واعذب نهر. نهر دجلة الذي تغنى به الشعراء وكتب عنه الادباء فكم وكم من قصيدة قد كُتبت عنه وقصص تعلقت احداثها به.

ولعل قصيدة دجلة الخير لشاعر العرب الاكبر الجواهري مثال بسيط عن عظمة هذا النهر الخالد.

أكملنا المسير حتى وصلنا إلى الجانب الآخر من الجسر فسألنا احد افراد الشرطة كما سألنا الاول من أين تأتون والى اين تذهبون حتى خيّل إلي ان هذا السؤال قد اصبح في لسان كل نقاط التفتيش عندنا لعله سؤال يُدرّس للشرطي او الجندي عندما يذهبون لدورات التدريب!.

أجبناه نفس الجواب الذي قلناه لذلك الشرطي الذي يقف في الطرف الآخر من الجسر، ومضينا في طريقنا إلى السكن الجامعي حتى أصبح لا يفصلنا عنها سوى شارع واحد على يميننا في تلك اللحظة، لكن المشكلة ان في بداية ذلك الشارع الذي لم نصل اليه بعد توجد نقطة تفتيش للشرطة الاتحادية الصارمة في تعاملها مع الناس، وبدأ الخوف ظاهراً على وجوهنا، قلنا ان هؤلاء لا يمنعهم شيء من اطلاق النار علينا ونحن في هذا الوقت المتأخر من الليل، لكن ما في اليد حيلة لابد ان نصل إلى السكن الجامعي، فغداً ينتظرنا يوم شاق ويجب ان ننام ولو قليلاً، قلنا سنتقرب منهم شيئا فشيئا ولانضع ايدينا خلفنا ولا في جيبونا لكي لا يظنوا اننا نحمل سلاحا تقربنا من نقطة التفتيش واذا بشرطي واحد فقط جالس يتكلم مع احدهم في هاتفه النقال على الاغلب كان يتكلم مع حبيبته عندما رآنا اشار بيده وقال اعبروا ولم يتكلم معنا وقتها، لإنشغاله!.

وكأن الروح قد رحلت وعادت إلينا من جديد فقد كنا خائفين جدا، وصلنا إلى السكن اخيرا بعد ساعة من المشي تقريبا ولم ننشعر بالتعب لان شعور الخوف قد تغلب عليه حينها.

طرقنا الباب الرئيسي للسكن الجامعي الذي كان يغلق في الساعة العاشرة مساءا في كل يوم خرج احد حراس الباب وقال اين كنتم؟..

لماذا انتم متأخرون لهذا الوقت؟..

كان يعرفنا لان هذه هي السنة الرابعة ونحن في اﺍالسكن الجامعي وجميع الحرس والمشرفين يعرفوننا. قلنا له باننا كنا نرتب القاعة التي سيكون فيها حفل تخرجنا غدا.

فتح الباب وأخذ هوياتنا وابقاها عنده وقال ستستلموها غدا، دخلنا اخيراً ووصلنا إلى غرفة أحد اصدقاءنا الذي كان قد جهّز لنا العشاء، تناولنا العشاء ثم ذهبنا إلى النوم مباشرة لنستيقظ غدا لذلك اليوم الذي لطالما انتظرناه انه يوم حفلة التخرج.

أستيقظت في صباح اليوم التالي يوم التاسع من نيسان من سنة 2014 لبست بدلتي الرسمية «القاط» وكان لونه نيلياً قريبا من السواد مع قميص ابيض وربطة عنق باللون الاحمر الغامق كما كان الاتفاق مع جميع طلاب المرحلة على الوان البدلة والقميص وربطة العنق «الرباط «وتوجهت إلى الجامعة حيث كان علي اكمال بعض الامور الضرورية للحفلة قبل التوجه إلى القاعة منها طبع الكلمة الافتتاحية للحفلة التي سألقيها اليوم أمام اكثر من خمسمائة شخص ومنهم عائلتي، وايضا كان عليّ جلب العلم العراقي من قسم الميكانيك لاننا سندخل دخولا جماعيا للقاعة بعد القائي للكلمة الافتتاحية، وبعدما أكملت ما ذهبت لاجله إلى الجامعة توجهت مباشرة إلى القاعة وبينما انا في الطريق اتصل بي أخي الكبير وقال لي نحن قادمون في طريقنا إلى القاعة.

وصلت إلى القاعة الكبيرة والجميلة تلك ورأيت اصدقائي قد وصلوا وهم يقومون بالترتيبات اللازمة لبدء الحفلة في الساعة الحادية عشر صباحا.

بدأت عوائل الطلبة بالقدوم شيئا فشيئا وكنا قد أوقفنا مجموعة من اصدقاءنا من بقية المراحل وبقية الكليات على الباب ليستقبلوا العوائل ويوصلوهم إلى مكان جلوسهم وايضا منهم من كُلّف بمنع التصوير بالهواتف النقالة وآخر يقف قرب الاستاذ الذي يسلم درع التخرج للطالب او الطالبة عندما ينادي عريف الحفل بإسمه.

كنا قد رتبنا الامور من جميع النواحي حينها، فالتحضيرات قبل الحفل قد أخذت منا قرابة الشهر ونصف الشهر واخيرا وصلت عائلتي..

استقبلتهم في الباب وسلمت عليهم وأوصلتهم إلى مكان جلوسهم على يمين القاعة.

بعدها ذهبت لاكمل مع اصدقائي ترتيبات الحفل، اصبحت الساعة العاشرة والنصف ولم يأتِ أحد من الاساتذة الذين قد تم دعوتهم للحفل اتصلنا بهم اخبرونا انهم مشغولون وليس باستطاعة احد منهم المجيء اصبحنا في موقف محرج فالعوائل كلها قد وصلت وهم بانتظار بدء الحفلة ونحن لا نستطيع إعلان بدايتها لأن الذي سيسلم الدرع للطلبة غير موجود والذي يجب ان يكون من الاساتذة.

لم يكن امامنا خيار سوى اختيار والد احد الطلاب ليقوم بتسليم دروع التخرج للطلبة، كان والد احد اصدقائنا يعمل مهندساً في معمل النسيج في الموصل وكنا قد تعرفنا عليه أثناء زيارتنا للمعمل للتعرف

على آلية العمل لديهم، عندما كنا في المرحلة الثانية الاستاذ طلال انسان مثقف ذو روح شبابية، أعطينا اسمه لعريف الحفل لكي يستدعيه عندما يحين الوقت لبدء توزيع دروع التخرج.

الساعة تشير إلى منتصف الحادية عشر صباحاً وقفنا على باب القاعة نحن الخريجون احدنا خلف الآخر في صفين طويلين وكنت في مقدمة احدى الصفين حاملا بيدي علم التخرج الذي يحمل اسم دورة تخرجنا وقد كنت صممته في احدى البرامج المتخصصة بالشعارات وكان على شكل مسننات الواحد فوق الآخر بالوان مختلفة وفيه سهم كعقرب الساعة يشير إلى الرقم «47» اي الدورة السابعة والاربعين الذين تخرجوا من قسم الميكانيك وكانت بجانبي اي في مقدمة الصف الثاني طالبة معنا وهي تحمل العلم العراقي وبينما ندخل أُشغِل موسيقى قرع الطبول وبدأ الحضور بالتصفيق ونحن ندخل إلى نهاية القاعة ونمشي على مهلنا حتى اصبح جميع الخريجين داخل القاعة توزعنا إلى الصفين كل على طرف وادرنا وجوهنا لبعضنا البعض ثم طلب عريف الحفل من الحاضرين الوقوف وقال كلمة غريبة بعض الشيء «والآن نرفع على مسامعكم آذان العراق» وهو يقصد بذلك النشيد الوطني العراقي، كيف له ان يقول ذلك فنحن لا نستخدم هذه الكلمة إلا في النداء إلى الصلاة لكن «هل الدين الاسلامي يقدس بعض الكلمات ويحصرها لمعنىً واحد؟».، أم أن هذا امر طبيعي لان اللغة العربية لغة عظيمة جدا ولا يمكن حصر كلماتها لشيء محدد. لا اعلم مدى صحة هذا القول لكن قد استخدمه هذا الشخص وانتهى الامر.

وقف جميع الحاضرين وانا انظر حولي والقاعة ممتلئة بهم وبدأ عزف

النشيد الوطني كان مشهدا مؤثرا بالنسبة لي، لم اشعر بشيء كهذا منذ زمن وكادت الدموع تذرف من عيني، لربما كان ذلك الشعور بالوطنية حينها هي من بقايا ايام دراستي الابتدائية في عهد الرئيس السابق صدام حسين حيث كنا في كل يوم خميس نصطف صباحا في الساحة ونرفع العلم العراقي ونردد النشيد الوطني جميعا باعلى صوتنا ونشعر بالقوة والاباء فنحن مواطنون في بلد يمتلك جيشا قويا ورئيسا ذو هيبة هكذا كنا نتصور او كنا نشعر بالفعل، لكن بعد السقوط ودخول المحتل إلى بلدي ذهب ذلك الشعور ونُسي، لكن في هذه اللحظة من حفلة تخرجي توافقت الذكريات القديمة معها فأصبحت أعيش لحظات من تداخل الازمان بين الطفولة والشباب.

أنتهى عزف النشيد الوطني جلس الحضور وجلسنا نحن ايضا، قام عريف الحفل وتكلم بكلمات توحي إلى افتتاح الحفلة ثم قال «والآن سيلقي الخريج يوسف محمد الكلمة الافتتاحية باسم الخريجين نرجوا منه التفضل إلى المنصة»..

توجهت إلى المنصة ووقفت خلفها نظرت إلى الحاضرين وهم يملأون القاعة وكلهم قد وجهوا انظارهم الي، كان موقفا صعبا على الرغم من انني كنت اشارك في المهرجانات الشعرية التي كان طلاب قسمنا يقيمونها وكنت القي الاشعار امام الطلاب والطالبات والاساتذة الا أن الامر مختلف هذه المرة فالعدد كبير جدا، كان لوجود والدتي الدافع القوي إلى ان لاارتبك في القائي كلمة الحفل، ألقيت التحية والسلام على الحاضرين ثم بدأت بالقاء الكلمة، مع قليل من الارتباك..

و لا انسى تلك النظرة وبينما القي الكلمة رأيت والدتي تبكي وتذرف الدموع من عينيها وهي ترى نتاج عمرها والسنين التي قضتها لتربينا انا واخوتي واخواتي فقد كانت تقوم بدور الام والاب في نفس الوقت، لقد اكملت ما عليها ونجحت في ايصالنا إلى هذا المستوى الذي يجب علينا بعده رد الجميل لها.

بعدها طلب عريف الحفل المهندس طلال الذي اخترناه بدلا من الاساتذة الذين خيبوا ظننا ولم يأتوا للحفل لكي يخرج إلى المنصة لتسليم دروع التخرج للمتخرجين ثم بدأ العريف بالقاء العبارات الجميلة التي قد كتبناها عن كل خريج وخريجة قبل ان يصيح باسمه ويدخل القاعة ويقوم المصور باخذ الصور له او لها لحين الوصول إلى المنصة لاستلام درع التخرج.

بدأ الخريجون بالدخول تباعا إلى أن جاء دوري ودخلت والتقطت الصور إلى ان وصلت إلى قرب المهندس طلال فسلمت عليه وبارك لي التخرج وقبلنا بعضنا البعض والتقطنا صورة تذكارية وهو يُسلّم الدرع لي.

بعد انتهاء استلام جميع الخريجين والخريجات دروع تخرجهم بدأت الفعاليات التي حضرناها مسبقا من مسابقات واسئلة وهدايا وكذلك قمنا بتقديم مسرحية تتكلم عن حياة الطالب في السكن الجامعي وصعوبة الدراسة فيها مع القيام بالاعمال البيتية من الطبخ والغسل والتنظيف وكذلك المشاجرات التي كانت تحصل بين اعضاء الغرفة في الامتناع عن اداء الواجب والتماطل فيه بشكل مضحك وهزلي.

وكذلك قدمنا للحاضرين تقليدا مضحكا للبرنامج المشهور «The Voice» وكانت لجنة التحكيم ثلاث طلاب يقلدون كاظم الساهر وعاصي الحلاني وصابر الرباعي وطالبة رابعة كانت تقلد شيرين وفاجأتنا عندما استطاعت ان تتكلم باللهجة المصرية، كانت فعالية جميلة سُرَّ الحاضرون بها كثيرا وضحكوا كثيرا لما قُدم لهم في هذه الفعالية من الامور الفكاهية الجميلة وهم يقارنون الشخصيات الحقيقية بهؤلاء الطلبة المقلدون.

ومع انتهاء هذه الفعالية بدأت العوائل بمغادرة القاعة شيئا فشيئا والساعة تشير إلى الرابعة عصرا وبقي من بقي لالتقاط الصور التذكارية في ذلك اليوم الجميل الذي قضينا فيه اجمل الاوقات مع اهلنا واحبابنا.

داعش..

عُدنا إلى الدوام في الاسبوع الذي تلا حفلة التخرج لان امتحانات الفصل الثاني كانت على الابواب ونحن لم ندرس جيدا قبلها بسبب انشغالنا بتحضيرات الحفل. وفي تلك الايام لم اسمع اخبارا جديدة عن يافا فبعدما سمعت بخبر زواجها وتركها للدراسة في تلك السنة انقطعت اخبارها عني وبقيت يافا في الذكريات فقط، تأتيني بين الحين والآخر عندما تدق اجراس الشوق في قلبي المتيم بها.

مرت الايام وفي نهاية شهر أيار بدأت الامتحانات النهائية في تلك السنة، وفي كل السنوات يكون موعدها تقريبا في نهاية أيار، وفي يوم الخميس الخامس من حزيران كان الوضع الامني عاديا كبقية ايام السنة خرجنا من الاقسام متوجهين إلى الجامعة وكل شيء طبيعي جدا، دخلنا الامتحان واذكر ان الأسئلة كانت صعبة وطويلة والسبب في ذلك لان بعض طلاب المرحلة قد اشتكوا إلى عميد الكلية عن صعوبة الاسئلة التي يمتحنهم بها استاذ هذه المادة، واحسست في الامتحان ان الاستاذ قد انتقم من الجميع بسبب تلك الشكوى التي لم تكن في وقتها ونحن على ابواب الامتحانات فهم لم يفكروا بردة فعل الاستاذ حين سمعاه بشكواهم. لكن وقع الامر وسيفشل اغلب الطلاب في الامتحان انا متأكد من ذلك جراء تلك الشكوى غير الموفقة.

خرجنا من الامتحان والكل يتكلم عن صعوبة الاسئلة وان هذا انتقام يجب ان نفعل شيئا وفي تلك اللحظات كانت قوة من تنظيم «داعش» قد دخلت احدى أحياء سامراء وتدخلت قوات الرد السريع في حلّ الامر، هذا ما سمعناه من وكالات الانباء حينها باختلاف الروايات، وبينما نحن واقفون نتكلم جاء احد الطلاب وقال أن الطرق قد أغلقت وسيُعلن منع التجوال في المدينة بعد ساعة من الآن اسرعوا بالخروج من الجامعة وليذهب الجميع إلى بيته، خرجنا من باب العلوم اقرب الابواب إلى قسم الميكانيك من جهة شارع «المجموعة الثقافية» في ذلك اليوم الغائم ورأيت الطلاب والطالبات قد ملأوا الشوارع وكلٌّ يتوجه إلى التقاطع الذي فيه السيارة التي تقله إلى بيته.

توجهنا إلى مكان وقوف الحافلات التي تقلنا إلى السكن الجامعي فلم نجدها، ولا توجد سيارة اجرة فارغة في الشارع فكل السيارات تحمل اشخاصا وهم متوجهون إلى بيوتهم يأسنا من السيارات وقلنا سنذهب إلى السكن الجامعي مشياً على الاقدام، الجو حار نعم ولكن ما في اليد حيلة فالكثير من الطلبة والموظفين قد خرجوا من دوائرهم وهم متوجهون إلى بيوتهم مشيا على الاقدام، كان يوما أشبه بالخيال من كان يصدق قبل ساعة ان يحدث هذا!.

لقد كان كل شيء طبيعياً حينها قلت في نفسي وما علاقتنا نحن بما حصل في مدينة سامراء وهي تبعد عنا مئات الكيلو مترات!. لكن بعدها سمعنا اخباراً تقول ان هناك عشر سيارات ملغمة قد دخلت المدينة لذلك أعلن منع التجوال بهذه الطريقة المستعجلة جدا. وبعد المشي لنصف ساعة من الزمن وصلنا إلى نقطة التفتيش نفسها في بداية الجسر

الثالث عندما كنا متأخرين في قاعة حفلة تخرجنا قبل شهرين تقريبا لكن اليوم شاهدنا جنودا من الجيش واقفين عليها وليسوا من الشرطة!. وكما هو معروف ان عبور الجسر للمشاة ممنوع في كل الاوقات ليلا ونهارا، اوقفنا الجندي وبدأ ينظر إلى السيارات التي تريد عبور الجسر حتى وجد سيارة فارغة فتكلم مع السائق لكي يساعدنا في عبور الجسر فقط وبعدها ننزل ونكمل طريقنا مشياً، لم يمانع السائق ركبنا في السيارة واوصلنا إلى الجانب الآخر، حاول صديقي حردان ان يعطيه الاجرة لكنه رفض ان يأخذ شيئا، فشكرناه ثم نزلنا وتوجهنا إلى السكن الجامعي، وكان بقية طلاب السكن الجامعي قد أتوا كما أتينا مشيا على الاقدام، كان يوما غريبا جدا رغم اننا أعتدنا على فرض منع التجوال كثيرا لان الحالة الامنية للمدينة ليست جيدة لكن هذه المرة شعرتُ أن شيئا كبيرا سيحصل!. مر ذلك اليوم بسلام وقد وصل جميع الطلاب إلى السكن الجامعي واغلقت الابواب خوفا عليهم.

وفي الساعة الثالثة فجرا من يوم الجمعة السادس من حزيران دخلت قوة من تنظيم «داعش» والذي كان يقدر عددهم كما سمعنا بعد الاحداث قرابة الاربع مائة مقاتل وهم قادمون من منطقة الجزيرة غربي مدينة الموصل وكانت هذه المنطقة معروفة منذ سنوات انها معقلهم الاصلي وكم حصلت عليها حملات عسكرية لكنها باءت جميعها بالفشل بسبب المساحة الشاسعة للمنطقة ولان مقاتلي داعش يقاتلون في ارض يعرفونها جيدا عكس الجنود العراقيين.

وقد استطاعت هذه القوة من نقطة التفتيش على ثلاثة احياء من المدينة وهو الحي الرفاعي وحي 17 تموز والاصلاح الزراعي وكل

هذه الاحياء تقع بالقرب من بعضها غربي المدينة واستيقظنا وقتها على اصوات الانفجارات والاشتباكات التي حصلت بين القوة المهاجمة والجيش والشرطة العراقيين.

واستمرت اصوات الطلقات النارية بالاسلحة الخفيفة والمتوسطة إلى الصباح، ثم توقفت وكان ذلك اليوم يصادف يوم الجمعة، اصبح وقت صلاة الجمعة واراد الطلاب الخروج من الاقسام والذهاب إلى الجوامع القريبة لاداء تلك الفريضة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز وانزل سورة باسمها.

لكن حراس الباب منعوا الطلاب من الخروج خوفا عليهم من الذي يحصل في الخارج، فالسكن الجامعي يحوي بداخله اكثر من اربعة الاف طالب وهذه مسؤولية كبيرة في عاتق مدير السكن الجامعي ومشرفيه ايضا.

تجمع الطلاب وقالوا بأننا سنقيم صلاة الجمعة في داخل السكن الجامعي فالصلاة الجماعية لدى الطلاب كانت مهمة جدا فكيف بصلاة الجمعة!.

وكانت المشكلة ان مسجد السكن الجامعي كان صغيرا ففي صلاة المغرب والعشاء يمتلئ المسجد بالمصلين فكيف بصلاة الجمعة!.

المسجد لا يكفي فقرروا فتح احدى المخازن الفارغة لمطبعة ابن الاثير التي تلاصق السكن الجامعي من جهة الشمال وكان المخزن كبيرا جدا، ففتحوا الباب وتدفق الطلاب إلى الداخل وكلٌ يحمل سجادةً معه او قطعة قماش او حتى لحافه الذي ينام فيه جاء به ليصلي عليه.

جلسنا داخل ذلك المخزن الكبير والحار جدا، قام احد الطلبة وأذن من على مكبر الصوت الذي أتوا به من المسجد وبعدما أكمل الاذان خرج احد الطلاب ليخطب بنا وكانت موضوع خطبته عن العبر والعظات من قصة موسى عليه السلام، وبدا عليه الارتباك بعض الشيء، وهذا امر طبيعي فالحضور كثير واضف إلى ذلك انه لم يكن يعلم انه سيكون خطيبا في ذلك اليوم الا قبل سويعات قليلة فهو معذور لما فيه من الارتباك وضعف موضوع الخطبة السريعة تلك.

انتهت الصلاة وكلٌ رجع إلى غرفته وما كنا نسمع حين خرجنا من الصلاة الا اصوات طلقات قليلة من هنا وهناك عكس ما كنا نسمعه في الفجر من انفجارات واصوات طلقات نارية تكاد لا تنقطع. وقبيل صلاة المغرب بدأت اصوات الطلقات النارية بالاسلحة المتوسطة بالبدء كما في الفجر وكانت شرفة غرفتنا في تلك السنة تطل على الشارع من الجهة الغربية للسكن اي من جهة المناطق التي دخلتها مقاتلي تنظيم «داعش»، استمرت الاشتباكات في تلك الليلة إلى الصباح ونحن واقفون على الشرفة ننظر إلى الطلقات وهي تذهب بعيدا في السماء ليلا.

وفي صباح اليوم التالي اي يوم السبت جاء احد اصدقائنا وقال انه قد اتصل باحد اصدقائه الذي يسكن في الحي الرفاعي وسأله عن قصة هؤلاء المهاجمين؟ فقال له انه قد رأى مقاتلون من دول اخرى باكستانيين وافغانيين ويمنيين وهم يلبسون ما تلبسه حركة طالبان الذي يسمى بلباس «البشتون» وانهم قد أتوا اليهم وقالوا لهم اما أن تقاتلوا معنا او أن تخرجون من بيوتكم لانهم قالوا ان المعركة ستستمر والقصف مستمر علينا. وفعلا كان حينها الجيش وبالتحديد الفرقة الثانية التي مقرها في

الحي العربي تقصف الاحياء الثلاثة التي سيطر عليها المقاتلون بالمدفعية الثقيلة، فبدأت العوائل بالنزوح وتركِ بيوتهم والتوجه إلى الاحياء الآمنة او حتى العبور إلى الجانب الايسر.

ولا انسى المواقف الانسانية التي وقفها اهل الموصل مع طلاب الاقسام في تلك الايام فقد استمر منع التجوال لليوم الثالث ونفذت المواد الغذائية لدى الطلاب فقامت العوائل المجاورة للاقسام بخبز كميات كبيرة من الخبز وارسالها إلى السكن الجامعي واتصل اصحاب محلات المواد الغذائية القريبة للاقسام الداخلية في سوق البورصة واخبروا بعض الطلاب بفتح محلاتهم واخذ المواد الغذائية منها وتوزيعها على الطلاب، فقد جلبوا اكياس الرز وتم توزيعها على الغرف بالتساوي وكذلك مواد غذائية اخرى.

رغم المحن والنكبات التي تحدث لهذه الامة العظيمة الا ان مثل هذه المواقف الانسانية هي التي تعكس الصورة الحقيقية لعمق التآلف والتكاتف الاجتماعي بين افرادها، فمصيبة احدهم هي مصيبة الجميع.

كما قال صلى الله عليه وآله وسلم:

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم: مثل الجسد، إِذا اشتكى منه عضو: تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وفي صباح يوم الاحد الثامن من حزيران جاء تبليغ لادارة السكن الجامعي إلى اخلاء الطلاب منه لان مقاتلي تنظيم «داعش» قد اقتربوا منه كثيرا وكذلك خوفا من القصف المدفعي للفرقة الثانية ان تطال السكن الجامعي وفيه هذا العدد الكبير من الطلاب.

جاء المشرفون وأبلغونا بامر الاخلاء وقالوا لنا البسوا ملابس الزي الموحد «القميص الابيض والبنطلون الاسود» لكي يعرفكم الجيش والشرطة ولا يرموا عليكم الرصاص، تجمع الطلاب في ساحة السكن الجامعي وكلٌ يتفق مع اصحاب منطقته لكي يكونوا سوية في الخروج والمشي على الاقدام والعبور إلى الجانب الايسر من المدينة.

وضعت ملابسي والامور المهمة جدا في حقيبتي وكان لدي شعور قوي ان رجوعنا هنا سيطول وان القتال سيستمر اياما طويلة، فما سمعناه في الايام الثلاثة الماضية يدل على مدى شراسة المعركة وبما ان التقدم أصبح لصالح داعش فظاهر الامر ان المعركة ستطول وان الامتحانات ستؤجل.

وربما كان سبب تقدم داعش هو وجود خلايا نائمة لهم في تلك الاحياء الامر الذي ساعدهم بالصمود والتقدم في الدخول لاحياء اخرى تباعا لكن الجيش كان يقاتل بشراسة ايضا حينها.

خرجنا وسط الطلاب متوجهين نحو الجسر الخامس ذلك الجسر الجميل الذي تفنن المعماريون في تصميمه وهو يعتبر اكبر جسور الموصل الذي يربط جانبها الايمن بالايسر.

لم نكن نحن الطلاب فقط في السير نحو بر الامان هربا من تلك المعركة التي لم نعرف لماذا بدأت ومتى ستنتهي!.

توجهنا نحو ذلك الجسر وعندما وصلنا إلى بدايته كانت العوائل والطلاب قد ملأوا الجسر وهم متوجهون نحو الجانب الايسر وكأنه يوم المحشر فالعدد هائل جدا بالالاف وترى شيوخا جالسين على الطريق

وهم قد تعبوا من المشي واطفالا يبكون في احضان امهاتهم اللواتي تعبن من المشي لتلك المسافة الطويلة، مشاهد مؤلمة جدا صادفتها في ذلك اليوم.

أكملنا مسيرنا متوجهين نحو الحي العربي، فقد سمعنا ان هناك سيارات قد احضرها نائب رئيس مجلس محافظة نينوى الذي كان من مدينتي لكي تنقلنا تلك السيارات إلى بيوتنا، وبعد ساعات من المشي على الاقدام وصلنا الحي العربي ومررنا من أمام مقر قيادة الفرقة الثانية وكان بعض الضباط والجنود واقفون وهم ينظرون الينا وبينما نحن كذلك أطلقت المدفعية من تلة صغيرة في وسط مقر القيادة صاروخا نحو تلك الاحياء وكان صوته قوياً جدا ونحن بقربه وفي طريقنا نحو نهاية الحي كان ابناء الحي واقفين على الطريق وهم يقومون بتوزيع الماء البارد على النازحين كان موقفا يحسب لهم في ذلك اليوم العصيب.

وصلت إلى البيت في الساعة الرابعة عصرا تقريبا بعد ثمان ساعات من خروجي من السكن الجامعي كان يوما شاقاً وطويلا جدا.

بدأت الامور تتأزم شيئا فشيئا وأعلن رئيس الجامعة يومها عن تأجيل الامتحانات النهائية إلى إشعار أخر، فالوضع يشير نحو المجهول والمعارك لم تقف منذ فجر الجمعة ومسلحو داعش يتقدمون في سيطرتهم على الاحياء لكن تقدمهم كان بطيئا في بداية الامر..

إستمرت المعارك في تلك الاحياء إلى ان سمعنا في اليوم التالي ان المسلحين قد وصلوا في تقدمهم قرب السكن الجامعي، من جهة حي الزنجلي احد احياء مدينة الموصل المعروفة بكثرة الانفجارات التي

تحصل فيها والاشتباكات مع الجيش الامريكي والعراقي منذ سقوط بغداد والى ذلك اليوم.

وفي صباح يوم العاشر من حزيران 2014، تفاجأ الجميع من سيطرة داعش للمدينة بأكملها وهروب قادة الجيش نحو المحافظات الشمالية وتناقلت جميع وسائل الاعلام صور ومشاهد لسيارت الجيش العراقي وهي تنسحب من المدينة!.

وسط ذهول المحللين العسكريين لما حصل، آلاف الجنود تركوا مواقعهم في الجانب الايسر من المدينة دون مقاومة تذكر، وتركوا مخازن الاسلحة لداعش. انهار الجيش حينها إنهيارا كبيراً، بسبب تخاذل القادة وهروبهم، وكأن الامر قد دبّر بليل. إذ لا يمكن لمجموعة لا يتجاوز عددهم الاربعمائة من التغلب على ثلاثون ألفا من الجنود والشرطة المدربين والمسلحين بكل تجهيزات الاسحلة الثقيلة والخفيفة!.

سيطرت داعش بعدها على مدن واقضية كثيرة بوقت قصير، ثم هدأت الاوضاع بعدها ولم يحصل اي ضرر للجامعة وحتى للدوائر الحكومية، انتظرنا اعلان استئناف الامتحانات حينها لكن الحكومة المركزية أعلنت انها لا تعترف باي امتحانات في المدن التي تقع خارج سيطرتها الامر الذي جعل مستقبلنا مجهولا حينها، ولم يكن يفصلنا عن التخرج سوى اربع امتحانات فقط.

ومضت الايام ودخلنا في الشهر الفضيل شهر رمضان المبارك ولا احد يعلم متى وكيف سنجري ما تبقى من الامتحانات ونكمل هذه السنة التي كنا نحلم بانهائها ونحن قد اكملنا دراستنا لكن شاءت اقدار الله ذلك ولا راد لقضاءه وقدره.

وبعد مرور شهرين من الزمن سمعنا ان الامتحانات التكميلية ستقام في جامعة كركوك في شهر تشرين الاول وقد طلبوا منا ملئ استمارة الكترونية يبين فيها الطالب اسمه واسم كليته والقسم الذي هو فيه وكذلك المواد التي لم يكمل اجراء اختبار بها ومن ثم ارسال الاستمارة إلى موقع الجامعة على الانترنت، سارعت في ملئ الاستمارة واخبرت اصدقائي عنها واتفقت معهم بالذهاب إلى كركوك المدينة التي تتنازع عليها قوميات ثلاث العرب والكرد والتركمان لكنها اليوم تحت سيطرة قوات البيشمركة الكردية.

وفي تلك الايام وبينما الساعة تشير إلى الحادية عشر والنصف ليلا جاءتني رسالة على هاتفي «مرحبا كيف حالك انا رغد اردت ان اسأل عنك فقد انقطعت اخبارك بعد الاحداث».

ارسلت لها رسالة وقلت فيها الحمد لله انا بخير وانتِ كيف حالكِ، لم ترد هي برسالة بل اتصلت بي بعدها.. فتحت الهاتف واذا بها هي فعلا فانا اعرف صوتها بدأنا نتكلم كلاما عاديا كأي زميل وزميلة في الجامعة.

والغريب في الامر انني لم اعلم كيف استطاعت ان تحصل على رقم هاتفي فانا لا أعطي رقمي الا للاصدقاء فقط، تكلمنا يوما او يومين وبدأت الفتاة تظهر شيئا من الاهتمام الزائد بي وكأنها تنوي إلى امر ما، اصبحت تحاول قول شيء في قلبها وبدأت تلمح لي وانا اغض الطرف عنها لانني اعتبرها مثل اختي منذ عرفتها والى اليوم لم اعتبرها اكثر من ذلك، لكنها فاجأتني برسالة كتبت فيها بالحرف «احبك»!. قلت لها كيف هذا ومنذ متى قالت منذ اربع سنوات لكنك لم تنتبه الي كنت احاول ان

أثير إنتباهك أنني معجبة بك واحبك لكنك كنت خجولا ولا تتقرب من الفتيات وهذا ما اعجبني فيك، فليت كل الشباب مثلك، اجمل شيء فيك انك عندما تمشي لا تهتم لاحد لا تنظر الا امامك انت ذو شخصية قوية وجميلة.

لا انكر انني كنت مستمتعا لهذه الكلمات منها واي شاب في مكاني كان سيفرح بهذه الإطراء والعبارات الجميلة التي تتحدث بها عنه. المشكلة لم تكن هنا المشكلة هي انني قد سمعت بأن هذه الفتاة قد تزوجت فكيف لها الان تقول لي أحبك!!.

تكلمنا مرة اخرى وذكرت لها ما سمعت عنها، فقالت نعم انا متزوجة!.

قلت لها وكيف تحبينني وانتِ متزوجة، انا لا اقبل على نفسي هذا، بدأت تبكي وتقول ان زوجي يهملني ولا يهتم بي وانه يحب إمرأة آخرى وهي تحبه وتلك المرأة متزوجة ولديها اطفال قلت لها استغفر الله ما الذي تقولينه!.

قالت نعم فقد وعدت زوجي انها ستنفصل عن زوجها لكي يتزوجا، تعجبت كثيرا مما تقول وقلت في نفسي إلى اين وصلنا ألهذه الدرجة!. ثم قلت لها وكيف علمتي بذلك قالت هي صديقي على الفيسبوك «موقع التواصل الاجتماعي «وهي قالت لي ذلك، وبدأت تبكي وتقول لقد حاولت الانتحار قبل فترة وشربت كمية من الحبوب لكنني لم أمت، ثم قالت يوسف انت حلمي وانا احبك منذ زمن بعيد. قلت لها ولماذا تزوجتي إن كنتِ تحبينني، كانت اعذارها واهية ولم اقتنع بما تقول

واحسست انني ساقع في مشكلة كبيرة ان استمريت معها فهي متزوجة وانا لا اقبل على نفسي ان اتحدث مع إمرأة متزوجة، لكنني خفت عليها من ان تحاول الانتحار مرة اخرى.

كانت مشكلة كبيرة حينها فانا لا اريد التحدث معها وفي الوقت ذاته انا خائف عليها من ان تنتحر وأبقى لوم نفسي طوال عمري.

وفي احد الايام لا ادري كيف هداني الله سبحانه وتعالى إلى بعض الكلمات التي انقذتني من تلك المشكلة الكبيرة فقد اتصلت بي وهي فرحة فقد اكملت امتحاناتها في ذلك اليوم واتصلت بي تخبرني انها ستكلمني وقتاً أطول من قبل. بدأت اسأل عن زوجها، ألم يتغير معكِ في معاملته قالت لا لم يتغير واضافت انها اليوم في بيت اخيها الكبير وانها ارسلت رسالة إلى زوجها تقول فيها له. «انني سأعطيك مهلة ثلاثة اشهر ان رجعت فيها الي وتركت تلك المرأة واهتممت بي سارجع اليك والا فساطلب الطلاق».

ثم قالت لي هذه المدة نستطيع ان نتكلم على راحتنا، لم يكن خبرا سعيدا بالنسبة لي، لكنني تكلمت معها بلغة العقل وليست لغة العواطف قلت لها اذا تكلمنا مع بعضنا ثلاثة اشهر بالطبع اننا ستتعلق ببعضنا البعض فالمدة ليست بالقصيرة لكن ماذا لو ان الله هدى زوجكِ وقال لكِ ارجعي الي وانا ساترك تلك المرأة واعود لاهتم بك فقط فهل ترجعين له؟.

قالت نعم سارجع، قلت لها وانا ماذا سيحل بي بعد أن أتعلق بك وتتركينني قالت انت على حق انا لم افكر الا بنفسي، ثم زدت عليها وقلت لها انتِ تتهمين زوجكِ أنه يخونك وانه يتحدث مع إمرأة غيرك

قالت نعم، قلت لها والآن انتي ماذا تفعلين ألستي تتكلمين معي وانا غريب عنكِ فكيف تتهمين زوجك بشيء وانتِ تفعلين مثله ولو كان هو الذي بدأ بالخيانة أليست هذه خيانة ايضا!.

عدنا إلى القاعدة نفسها اننا نحن البشر نرى ما يفعله الاخرون خطأً جسيما وعندما نفعل خطأً مشابها لا نراه كذلك!. كما فعلت ندى صديقة يافا «تلك التي منعتني من يافا وقالت هذا امر غير مقبول عندنا وبعد مدة رأيتها تمشي مع طالب وحدها!». أحسست انها اقتنعت بما قلت وقالت لي سأذهب الآن لان والدتي تناديني. انتهت تلك القصة التي بالكاد استطعت الخروج منها واحمد الله على توفيقه لي بتلك العبارات التي انقذتني لربما من مشكلة لا تحمد عقباها.

و مرت الايام قُدُماً واقبل الشهر العاشر شهر تشرين الاول من سنة 2014 ميلادية وصادف في بداية ذلك الشهر عيد الاضحى المبارك وكان موعد امتحاناتنا التكميلية في محافظة كركوك في الثالث عشر من نفس الشهر وأصبح الاتفاق ان نذهب إلى كركوك بعد العيد مباشرة لعلنا نستطيع ايجاد غرفة في السكن الجامعي لجامعة كركوك.

وقبل ذلك خطرت لي فكرة بأن لا اعود إلى البيت بعد اكمالي للامتحانات، فبعد سيطرة داعش على المدينة أصبح العمل فيها معدوما وحتى من كان لديه عمل قد توقف بسبب الاوضاع المتأزمة، قلت لنفسي سأكمل الامتحانات ومن ثم أتوجه إلى محافظة السليمانية القريبة من محافظة كركوك فهناك حسب ما سمعت توجد شركات هندسية لعلي اعمل في احداهن إن وقفني الله.

أخبرت أهلي بما انوي اليه وانني لربما سابقى بعيدا عنهم لفترة طويلة لم يمانعوا بقراري وشجعوني عليه.

وفي يوم الاربعاء الثامن من اكتوبر، خرجت من البيت ولدي شعور قوي ان عودتي اليه بعيدة نظرت نظراتي الاخيرة وانا اودع اهلي، ثم توجهت إلى المكان الذي اتفقت أن أتقابل مع اصدقائي الذين أستأجروا سيارة توصلنا إلى سيطرة مدينة كركوك.

وبعد نصف ساعة من الانتظار وصلت السيارة وضعت حقيبتي وكتبي في مؤخرة السيارة وركبتها ثم بدأت السيارة تبتعد شيئا فشيئا عن المدينة التي احببتها من كل قلبي وكيف لا وهي تحتضن يافا تلك الفتاة الجميلة الرائعة، نعم انها قد تزوجت ولكنني لا احمل لها في قلبي الا كل حب وامنيتي ان اراها يوما ما، وادعوا لها بالسعادة في حياتها فمهما يكن فهي تشاركني بذكريات لا يمكنني نسيانها ابدا.

وبينما نحن في طريقنا نحو مدينة كركوك فقد كانت هناك سيطرات لداعش في الطريق نمر عليها، حتى وصلنا إلى احدى نقاط التفتيش القريبة من ناحية القيارة أمروا السائق بالوقوف وطلبوا منا النزول من السيارة وقالوا لنا مسؤول نقطة التفتيش يريد التحدث معكم نزلنا من السيارة ثم جاءنا هذا المسؤول الذي تحدثوا عنه رجل يلبس لباس طالبان «البشتون» متوسط القامة ذو لحية خفيفة سلم علينا ثم بدأ يتكلم على ملابسنا وعلى عدم وجود لحية في وجوهنا ثم نظر في وجهي وقال «زلفك طويل» قلت له ليس طويلا بل وجهي طويل، نظر إليَّ نظرة غضب ثم قال اريدكم أن تعدوني بفعل ما قلت لكم، قلنا ان شاء الله سنفعل، ثم قال اذهبوا في طريقكم.

ركبنا في السيارة واكملنا المسير باتجاه مدينة كركوك وبعد مضي اربع ساعات تقريبا وصلنا نقطة التفتيش الرئيسية لمدخل مدينة كركوك ورأينا الناس متجمعون هناك كلٌ يريد عبورها، وقفنا في مكان لربما نستطيع القول عنه انه الاعراف دون تشبيه، فعلم «داعش» يبعد عن علم البيشمركة الكردية قرابة الخمس مائة متر ونحن واقفون بينهما كان منظرا غريبا «فنحن في البقعة التي لا سلطة فيها لكلا الطرفين!».

كان الحر شديدا في ذلك اليوم فقد وصلنا هناك في الظهيرة ثم وقفنا ساعتين تحت حر الشمس حتى اصبح بامكاننا الدخول إلى مدينة كركوك استأجرنا سيارة اخرى لتوصلنا إلى جامعة كركوك فنحن لم نزر المدينة من قبل ولا نعرف اي مكان فيها، اوصلنا السائق إلى مكان خالٍ من الناس امام بنايات توحي انها سكنٌ جامعي لكن لا يوجد احد لنسأله، انتظرنا قليلا ثم جاءت سيارة اوقفنا السائق وسألناه عن هذه البنايات قال نعم انه السكن الجامعي لجامعة كركوك لكن للطالبات، اما سكن الطلاب يقع داخل الحرم الجامعي، حملنا حقائبنا وكتبنا وبعد مشي على الاقدام حوالي عشر دقائق وصلنا إلى بوابة كبيرة حديثة البناء وحولها طلاب وهم واقفون خارجها، تقربنا منهم وسألنا احدهم لما هذا التجمع، قال انهم يمنعوننا من الدخول ويقولون ان الدوام قد انتهى اذهبوا اليوم وفي الغد سنهيء لكم بناية فارغة لكي تسكنوا فيها حاول بعض الطلاب التحدث اليهم وانهم لا يعرفون المدينة اين يذهبون وهم كثر، لكنهم رفضوا ذلك.

وبعد مضي ساعة تقريبا ذهبت لاتكلم مع احد افراد الشرطة الواقفين على الباب لعله يسمح بدخولي على الاقل وان نجحت سيجرب الباقون ما فعلته حتى ندخل جميعا.

وقبل ان اذهب سمعت الطلاب يقولون ان اغلب افراد الشرطة الموجودين على الباب هم من القومية التركمانية، استغليت الموقف وعندما وصلت اليهم تحدثتُ مباشرة باللغة التركمانية وقلت لهم اريد الدخول، فسمحوا لي بذلك بكل بساطة، مشيت إلى الداخل اخرجت هاتفي واتصلت باصدقائي لكي يدخلوا الواحد تلو الاخر، وقبل حلول الظلام استطعاع الجميع الدخول إلى السكن الجامعي وفي الليل استطعنا حجز غرفتين لنا لان عددنا كان كبيرا تجاوز العشرة اشخاص.

بعدما حصلنا على مكانٍ يأوينا في تلك الفترة الامتحانية، اخذتُ قسطا من الراحة وقلت سابدأ بالتحضير للامتحان الاول غدا ان شاء الله.

وفي اليوم التالي سمعنا اخبارا تفيد ان داعش في الموصل اصدروا قرارا بمنع الطلبة من الذهاب إلى مدينة كركوك لاجل اكمال امتحاناتهم، الا بعد اعطاء التعهدات بالرجوع وجلب ورقة مختومة من القاضي الشرعي يسمح له بذلك والا سيُعتبر مخالفا لهم وسيعاقب على فعلته!.

لكنني كنت حينها قد خرجت من المدينة قبل هذا القرار الذي جعل الكثير من الطلبة يترددون بالمجيء لتكملة الامتحانات في مدينة كركوك.

مهما يكن فقد بدأت ادرس تحضيرا للامتحان الاول ولم افكر كثيرا بهذا القرار الذي اخاف الكثير من الطلاب والسبب في ذلك أنني قد قررت عدم الرجوع إلى الموصل حينما خرجت منها وقلت سأذهب إلى محافظة السليمانية لاعمل هناك عكس اغلب الطلاب الذين سيرجعون إلى بيوتهم بعد اكمال امتحاناتهم.

مر اليوم الثاني عاديا فقد كان السكن الجامعي مزدحم جدا حينها

والطلاب يتدفقون من المحافظات الاخرى لكي يكملوا تلك السنة الدراسية المتعبة. وصل اصدقائي من محافظة الانبار والذين هم معي في نفس القسم ونفس المرحلة، وتجمعنا من جديد بعد اربعة اشهر على احداث مدينة الموصل.

وجلسنا في ليلة ذلك اليوم نتسامر ونتحدث عن الاحداث وما حصل في مناطق كل منا خلال هذه الاشهر الاربعة وبينما هم يتكلمون، وقفت انظر اليهم واقول في نفسي من كان يصدق اننا سنجتمع هنا في كركوك ونجري بقية الامتحانات هنا، اذكر اننا خرجنا من اخر امتحان امتحاناه قبل الاحداث كنا واقفين على الباب نتكلم عن صعوبة الاسئلة وان الاستاذ قد انتقم منا ويجب ان نتكلم مع رئيس القسم، من كان يتخيل ان الامتحان الذي يليه سيكون في جامعة كركوك! امرٌ لا يصدق، لكن هذه هي حياتنا الغيب لا يعلمه الا الله سبحانه.

بدأت الامتحانات في الثالث عشر من اكتوبر وبدأنا ندخل غمارها، فالدراسة في السكن الجامعي أصبحت امرا صعبا جدا بسبب كثرة الطلاب الموجودين، ففي غرفتنا كان العدد المقرر ست طلاب أصبح عددنا سبعة عشر طالبا ورغم هذا الزخم الحاصل على الغرف كان هناك طلاب ينامون في الحديقة، حتى فنادق المدينة قد امتلأت ولم يبقَ مكان ينام فيه الطلاب كانت اياما عصيبة وفوق كل ذلك يجب علينا ان ندرس جيدا لعلنا لا أُجبر على الرجوع هنا بعد ذلك اذا فشلنا باجتياز الاختبارات. مهما يكن فلم يكن لدينا خيار آخر سوى تحمل الوضع الذي نحن فيه وهي فترة قصيرة لابد وان تنتهي وتتحول إلى ذكريات عابرة لربما نكون سعداء في استعادتها يوما ما!.

دخلنا الامتحان الاول ثم الثاني ثم الثالث حتى جاء يوم الامتحان الاخير، تجمعنا في تلك الليلة التي كانت ليلة وداع فكل منا سوف يذهب إلى مكان ولقاؤنا لربما سيطول فلا ندري ما تخبئه لنا الايام القادمة في جعبتها. كانت ليلة رائعة مع الاصدقاء الذين عشت معهم اربع سنوات من عمري وكنا كالاخوة في السراء والضراء نأكل سوية وندرس سوية ونساعد بعضنا البعض اصدقاء بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

وفي اليوم التالي بعدما ودعت اصدقائي الذين رجعوا إلى ديارهم حملت حقيبتي واتصلت بصديقين لي وهم اخوين قالوا سنأتي معك إلى السليمانية لكن الامر الذي كان يخيفنا هو أن الدخول إلى تلك المحافظة يحتاج إلى كفيل من احد سكانها ونحن لا نعرف احدا هناك!. اتصلت بأحد اصدقائي الاكراد الذي كان طالبا معي في قسم الميكانيك وهو كردي من سكان كركوك، بأن يأتي معنا لكي يتكلم مع الضابط في سيطرة الدخول إلى السليمانية باللغة الكردية لعله يسمح لنا بالدخول، استقلينا سيارة أجرة وتوجهنا إلى السليمانية وكلنا أمل بأن يسمحوا لنا بالدخول هناك، كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف ظهرا حينما خرجنا وبعد مرور اكثر من ساعة وصلنا إلى سيطرة مكتوب عليها

«سيطرة باني مقان» لا ادري معنى هذه الكلمة فهي باللغة الكردية، أمرنا الجندي بالنزول من السيارة والذهاب إلى غرفة على يمين نقطة التفتيش يوجد فيها رجال الامن «الاسايش باللغة الكردية»

تكلم معهم صديقنا الكردي واخبرهم أننا طلاب جامعة جئنا للسليمانية لنقدم استضافة دراسة في جامعتها، ومن حسن حظنا كان

الضابط يعرف التحدث باللغة التركمانية، فتحدث معنا وسألنا عن الكلية التي ندرس فيها ثم قال لنا اذهبوا، ركبنا في السيارة حتى نكمل طريقنا.

وبينما نحن في الطريق سألنا السائق متى نصل إلى نقطة التفتيش التي تمنع الناس من الدخول الا بحضور الكفيل، فردّ السائق وقال لنا لقد عبرناها للتو لم نصدقه قلنا كيف ذلك لماذا لم يطلبوا منا الكفيل، قال احيانا يدخلون الناس بدون ذلك فالامر مرهون بمزاج الضابط الموجود عليها!.

مهما يكن فقد كنا سعداء نحن الثلاثة بدخولنا تلك المحافظة التي لم ازرها من قبل، وسمعت انها محافظة جميلة بطبيعتها وعمارتها الجديدة وهي ايضا محافظة الرئيس العراقي حينها السيد جلال الطلباني وقد اهتم ببنيانها وجلب المستثمرين اليها فهناك الكثير من المشاريع فيها حسب ما سمعت ومن هذا المنطلق كان سبب مجيئي إلى هنا لان فرص العمل فيها اكبر من غيرها من المحافظات.

وصلنا إلى مكان نرى فيه المدينة بوضوح وكان منظرها جميلا كما قيل عنها فالمدينة تقع في وادٍ وحولها جبال شاهقة ويوجد في منتصف المدينة برج ذو بناء رائع ازرق اللون يشبه كثيرا برج العرب الموجود في دولة الامارات الشقيقة لكنه أصغر حجما مقارنة به، بعدها اوصلنا السائق إلى مكانٍ قرب المحكمة وقال لقد اصبحنا داخل المدينة بأمكانكم ان تستقلوا سيارة اجرة توصلكم إلى اينما تريدون، لم تكن السفرة هذه متعبة فقد وصلنا إلى المدينة بعد مرور ساعة ونصف الساعة.

وفي اليوم التالي بدأت ابحث عن عمل في الشركات الموجودة

في المدينة، وصرت اتجول هنا وهنا حاملا بيدي السيرة الذاتية التي لا تحوي سوى معلومات بسيطة فانا خريج جديد لا امتلك خبرة في اي مجال سوى تلك الدراسة النظرية لاربع سنوات مضت، لكن ذلك لم يكن يسبب لي اي خوف من اي عمل فانا واثق من نفسي واستطيع فهم اي اختصاص اعمل فيه وليس من الضروري ان اعمل في مجال تخصصي الميكانيك.

مرّ اليوم الاول بعد ست ساعات من البحث المتواصل عن مواقع الشركات ومقراتها وكلما دخلت إلى إحداها اعطيهم سيرتي الذاتية على امل انهم سيتصلون بي اذا احتاجوا مهندسا عندهم في العمل.

بقيت هكذا لثلاثة ايام، ساعات من المشي على الاقدام بحثا عن العمل فالحياة ليست مفروشة بالورود والذي لا يتعب فيها لا يحصل شيء منها المشقة مقرونة بالنجاح والوصول إلى المبتغى فلن يأتي احد ليدق بابك ليقول لك تعال واعمل عندي انا بحاجتك، الحياة ليست بهذه السهولة البتة!.

بعدها اتصل بي صديقي أحمد الذي قد تخرج من كلية هندسة الاتصالات في السنة التي تخرجت بها، وقال لي انه جاء إلى مدينة السليمانية بحثا عن العمل هو ايضا.

التقيت به بعد مرور اكثر من خمسة اشهر على احداث الموصل. قال لي أحمد ان عمي لديه صديق مدير لشركة متخصصة بالسيطرة على المنظومات هنا في السليمانية، لكنه قال انه لربما لا يستطيع العمل في هذه الشركة لانها ليست من اختصاصه فهو كان يبحث

عن عمل في شركات الاتصالات لكنه قال سنذهب اليه لعله يقبل بنا بالعمل في شركته.

فالعمل بالاختصاصات معدومة في بلدي ترى مهندس الميكانيك يعمل في المستشفى ومهندس الاتصالات يتعين في الزراعة!. في بلدي ترى ما لم تره في اي بلد آخر هنا الشهادة ليست ذات اهمية بقدر «الواسطة» التي تجلب الوظيفة للشخص المعني!.

وفي اليوم التالي ذهبنا إلى مكان الشركة لنقابل مديرها، كان مقر الشركة عبارة عن بيت من طابقين اضافة إلى الطابق الارضي والسرداب، دخلنا غرفة المدير وجلسنا عنده، رحب بنا ثم سكت كان مشغولا يعمل على حاسوبه الشخصي بقينا انا واحمد صامتين حتى بدأ هو بالكلام سأل عن اسمائنا وعن الاقسام الهندسية التي تخرجنا منها، ثم بدأ يتحدث عن الشركة وماهية عملها واوضح في كلامه ان الميكانيك هو الاقرب على عملهم فهم يسيطرون على اجهزة ميكانيكية وهذا يتطلب معرفة الجهاز او الآلة الميكانيكية لكي يستطيع السيطرة عليها. ثم بدأ يسألني عن امور تتعلق بالميكانيك ويسأل عن امور تتعلق بالاتصالات، بعدها احسسنا انه اقتنع بنا مبدئياً طلب منا السيرة الذاتية وقال سنتصل بكم بعد مدة، بعدها خرجنا من مكتبه ونحن متأملين انهم سيتصلون بنا بعد ايام قلائل.

مرت الايام الثلاثة الاولى بعد المقابلة ولم يتصلوا بنا، بعدها احسست ان الامر سيطول او انهم لن يتصلون اصلا، عدت إلى ما كنت عليه قبل المقابلة حملت النسخ من سيرتي الذاتية وبدأت اتجول في المدينة من جديد بحثا عن هذا العمل الذي انهكني لم اكن اتصور ان

البحث عن العمل بهذا القدر من الصعوبة لكنني كنت عازما على ايجاد عمل ما، لم أكن أريد العودة إلى البيت فقد تخرجت ولابد ان اعتمد على نفسي فالى متى سأبقى معتمداً على اهلي ولابد ان افكر في المستقبل يجب ان يكون لدي مصدر رزق اعيش منه ولربما اتزوج ان امكنني الله من عمل ذو أجرٍ جيد، كانت لدي حينها دوافع قوية لاستمر في البحث.

مرت الايام إلى ان جاء ذلك اليوم الذي اتصل بي صديقي أحمد وقال أننا سنذهب غدا عند هذا المدير الذي أجرى معنا تلك المقابلة، «أظن ان عمه قد تدخل في امرنا وبحكم الصداقة القوية استطاع ان يقنع المدير بان يوافق على عملنا في شركته».

وفي ليلة ذلك اليوم كنت اتصفح صفحتي على موقع التواصل الاجتماعي واذا بـ«رغد» تبعث لي برسالة، المرأة التي قلت لها قبل ثلاثة اشهر «كيف تتهمين زوجكِ بالخيانة وانتي تتكلمين معي «تلك المرأة التي اعطت زوجها مهلة ثلاثة اشهر حتى تعود اليه والا ستنفصل عنه وتطلب الطلاق». ارسلت لي رسالة مفادها انها قد انفصلت عن زوجها وانها الآن بحكم المطلقة، المرأة فعلت ما قالت قبل ثلاثة اشهر، لكن ماذا سأقول لها الآن، بدأت اتكلم عن وضعي وبانني لا استطيع الارتباط فانا لست مستقرا في الوقت الحاضر.

فَهِمت من كلامي انني لا اريد هذا الامر لكنني لا استطيع ان اقول لها ذلك بحكم الزمالة التي كانت بيننا في الجامعة، ذهبت في حال سبيلها ولم اسمع عنها شيئا بعد ذلك. وفي اليوم التالي ذهبنا إلى مقر الشركة للمرة الثانية، دخلنا مكتب المدير وبدأ يتكلم معنا باشياء توحي انه قبل

بأن نعمل عنده، قال لنا هل لكم مانع من الذهاب لأي محافظة في العراق اذا كان لدينا فيها عمل؟، قلنا له بالطبع لا مانع لدينا.

لربما تستغرب من هذا السؤال لكنه سؤال جوهري فبلدي قد تغير كثيرا بعد دخول المحتل الامريكي الذي زرع بذور الفتنة بين اطياف الشعب واصبحنا نقتل بعضنا البعض واصبحنا نخاف من زيارة بعض المحافظات جراء تلك الفتنة العمياء التي لا تفرق بين مذنب وبريء.

تمت الموافقة على العمل في الشركة وبدأنا بالعمل في الاسبوع الذي تلى الموافقة في يوم الاحد السادس عشر من تشرين الثاني من نفس سنة تخرجنا، لم تمر على انهائي الامتحانات التكميلية في كركوك سوى ثلاثة اسابيع حتى وجدت عملا، شكرت الله حينها كثيرا.

اذكر انني عندما اتخرجت من الثانوية بمعدل خمس وثمانون درجة نصحني الكثير من الناس الذين اعرفهم ان ادرس معهد الصيدلة لان التعيين فيها مباشر في المستشفيات وقالوا لي ان الهندسة لا خير فيها فستتخرج وتبقى عاطلاً عن العمل، اذكر انني حينها صليت صلاة الاستخارة ثلاث مرات ولم ارى في حلمي شيئا حتى انني ذهبت إلى احد المشايخ المعروفين في مدينة الموصل وسألته سبب عدم رؤيتي لحلمٍ بعد صلاة الاستخارة، قال لي ليس شرطا ان ترى حلما اذهب إلى ما سيوفقك الله اليه، وقال لي جملة حينها لن انساها ابدا قال:

«لا تفكر بالتعيين منذ الآن فكم من العمائم ستسقط خلال اربع سنوات القادمة» ثم اكمل قائلا ان الامور لا تبقى كما هي والارزاق بيد الله فلا تهتم بشيء توكل على الله وامضِ حيث يوفقك.

وها قد حصل لنا ما ذكره الشيخ لا اقول انه كان يعلم الغيب لكن هناك اناس لديهم رؤية مستقبلية للاحداث واظنه كان كذلك فقد تغيرت الاحوال في السنوات الاربعة الاخيرة تغيرا جذريا وحصل ما لم يتوقعه احد لكن مهما يكن فقد وفقني الله إلى عملٍ بشهادتي بعد تخرجي بثلاثة اسابيع فقط وهذه نعمة لابد ان اشكر الله عليها.

عودة الامل..

بدأت اعمل في الشركة وانا متحمس وخائف بعض الشيء، فقد تحولت حياتي من الدراسة النظرية إلى الواقع العملي وهناك امورٌ كثيرة تختلف عما درسته في الجامعة، فالفرق كبير ولابد من التعب والمشقة حتى عبور مرحلة الخوف وبناء الثقة في النفس لاكون مهندسا ناجحا في المستقبل.

مرت الايام وانا اتعلم في كل يوم شيئا جديدا في عملي وبدأت اتأقلم مع الوضع شيئا فشيئا وفي تلك الايام اي نهاية شهر تشرين الثاني قام داعش في الموصل بمنع جميع شركات الاتصالات هناك من العمل!.

وانتشرت اشاعات كثيرة حينها حول الموضوع وقالوا ان الشركات لا تعطي داعش من ارباحها لذلك منعوها من تشغيل ابراجهم، واخرين قالوا ان داعش عمد إلى ذلك خوفا من التجسس عليهم من قبل المواطنين واعطاء مواقعهم للحكومة تحسباً لقصفها بالطائرات وايضا سمعنا حينها ان السبب هو ان داعش يريد عمل شركة اتصالات باسمهم على حساب الشركات التي منعوها في المدينة.

كثر الكلام عمّا حصل لكن النتيجة كانت واحدة ان الاتصالات انقطعت وانني لن استطيع التكلم مع اهلي واصدقائي الا عبر الانترنت.

ومرت الايام قُدُماً ولم اعد افكر بيافا كثيرا، فقد تزوجت ابن عمها واصبحت في ذمة رجل اخر ولا املك شيئا سوى الدعاء لها بالسعادة في حياتها هذا كل ما املك لها في قلبي، وارجو من الله ان تكون بخير بعد احداث الموصل ولم يحصل لها شيء او لاحد من اهلها.

ومن محاسن الصدف تعرفت في موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك على فتاة من نفس قسم يافا. وبعدما تكلمت معها اخبرتني انها تعرفني جيدا وتعرف بقصة حبي ليافا وقالت لي انها صديقة يافا، كنت فرحا جدا حينها عندما تعرفت على فتاة من صديقات يافا قالت لي كنت اراك تأتي إلى كليتنا كثيرا لكن يافا لم تكن تحبك وانت كنت تأتي وتنظر لها من بعيد، كانت تتحدث الفتاة عن امور دقيقة جدا، حصلت بيني وبين يافا وكانت على علم انني قد اعطيت ليافا منديلا قبل اكثر من سنتين، كنت اتعجب منها كيف لها ان تتذكر كل هذه الامور وهي تقول انها لم تكن صديقة يافا المقربة لكنها كانت على علاقة سطحية معها!.

وفي احد الايام سألتني هذه الفتاة سؤالا غريبا..

ـ ألم تذهب لخطبة يافا؟.

ـ يافا قد تزوجت من ابن عمها، ألا تعلمين بذلك!.

ـ لا اعلم لكنها أجّلت تلك السنة ولم نسمع عنها شيئا بعد ذلك.

مرت الايام وبينما كنت اتصفح الفيسبوك في أحد الليالي رأيت صورة لبناية قسم يافا قسم الحاسبات وكانت الصورة مأخوذة من جانب الحديقة التي كنت انتظر يافا فيها حتى تخرج، عندما نظرت إلى الصورة

عدت بذكرياتي إلى الوراء لاكثر من سنتين فكم وقفت هناك انتظر تلك الفتاة الجميلة التي دخلت شغاف قلبي وتذكرت ابتسامتها الجميلة وكأنني في لحظتها إستعدت عالمي الجميل الذي اصبح مهجورا منذ سنة ودخلت فيه من جديد لارى يافا جالسة تنظر نحوي وهي تبتسم، لقد اضاءت تلك الصورة عالمي المهجور منذ زمن وبثت فيه الروح بذكريات عابرة حملتها في طياتها، ولا اعرف حينها كيف فتحت برنامج الوورد لاكتب شيئا عن الصورة فالمشاعر هاجت حينها ولابد من افراغها على كلمات تعبر عما اشعر فيه فلا شيء ينقذني سوى كلمات تتراقص بتناغم جميل عندما تكون السبب عن تراقصها جميلتي يافا.

كتبت شيئا كالشعر الحر قلت فيه:

ذكريات عابره تمر امامي

ابتسامات غامرة تهز كياني

كم وقفت هنا وهناك

تحت حر الشمس

تحت غزارة المطر

لم اشبع من النظر

ولم اشبع من السهر

لافكر هناك حيث القمر

نعم هناك يشرق القمر

هناك ابدلوا الشمس بالقمر

هناك تشم اجمل العطر

هناك فقط...

اجمل اسم ذُكِر

وانقى حبٍ قُدِر

هناك فقط...

تلاطمت امواج البحر

وغنوا على انغام الوتر

هناك..

ثم هناك...

فرقنا القَدَر

بلا سببٍ ولا عذر

وبقي حبنا صامتا..

يقتلنا تارةً

ويحيينا تارة

احببتكي يا...... ة

كنت انظر إلى تلك الصورة واكتب القصيدة وخلال خمسة عشر دقيقة اكملتها، بعدما هاجت مشاعري وتلاطمت مع بعضها تلاطم امواج البحر في يوم عاصف ياله من حبٍ لم يكتب له ان يكتمل وهل توجد نعمة في الدنيا اعظم من لقاء الحبيب بحبيبته؟!.

هناك وما بين السطور حيث تركت ذلك الفراغ في نهاية البيت الاخير

يوجد الاسم الحقيقي ليافا الذي يشابه القافية الاخيرة، وفي حينها نشرت تلك القصيدة في الفيسبوك وارفقت تلك الصورة التي جعلتني اكتب ما اكتب معها، واذكر ان الوقت كان يشير إلى الدقائق الاولى من يوم الثامن من ديسمبر لعام 2014 م اي بعد مرور ثلاث سنوات على حبي ليافا بالتمام والكمال.

وبعد مرور دقائق معدودة من نشري لتلك القصيدة في الفيسبوك ارسلت تلك الفتاة لي رسالة تقول فيها:

ـ هل ما زلت تحب يافا إلى الآن؟.

علمت انها قد قرأت القصيدة التي نشرتها للتو.

ـ نعم احبها.

ـ يافا لم تتزوج.

ـ ماذا تقولين؟.

ـ يافا لم تتزوج.

ـ لكنني متأكد من كلامي فقد علمت بزواجها من مصادر موثوقة وسبب تأجيلها تلك السنة كانت لاجل الزواج من ابن عمها.

ثم قلت لها متى اخر مرة تكلمتي معها فالاتصالات قد انقطعت واخشى أن تكوني مخطئة؟.

ـ قالت كنت اتكلم مع يافا قبل يومين على الفيسبوك وقالت لي انها لم تتزوج!.

لا ادري ماذا الذي حصل لي حينها، يافا لم تتزوج بعد يالهُ من خبر مفرح بدأ قلبي يخفق لهذا الخبر وهاجني شعور قوي جعل جسمي

يرتجف من شدة وقعه عليّ وكأنني عدت بالزمن إلى الوراء إلى ما قبل ثلاث سنوات عندما بدأت احب يافا..

وليس بيننا سوى تلك النظرات الخجولة والابتسامات القصيرة كالطيف الذي لا تشعر به الا بعد مروره، لقد عاد الامل من جديد وعادت الروح إلى عالمي الحزين الذي ساده الظلام لسنوات مضت وحجب تراب الزمن العابر آثار الذكريات مع يافا..

إلا أن هذا الخبر كان كالغيث الذي غسل الاماكن لتلمع تلك الآثار من جديد وكأن الاتربة كانت تحافظ عليها لانها تعلم ان يافا لن تترك هذه الاثار وانها ستعود حتما وها قد عادت من جديد.. لا ادري هل عادت لتضيء عالمي الخاص الذي بنيته من اجلها منذ ثلاث سنوات ام أنها اتت لتزيد الجراحات وتدوس على تراب الزمن العابر الذي حافظ على تلك الذكريات من الزوال؟!.

اكملت حديثي مع هذه الفتاة التي جلبت لي اسعد خبر سمعته منذ زمن بأن يافا لم تتزوج وبينما كنت اسألها أكثر فأكثر عن يافا، علّقت احدى الفتيات على القصيدة التي نشرتها وكتبت فيها «هل بأمكاني أن آخذ القصيدة «قلت لها نعم بالطبع يمكنكِ ذلك، علمت أنها تريد إرسالها إلى يافا.

مرّت تلك الليلة ولم استطع النوم حينها حتى طلوع الفجر وانا افكر في الامر وافكر بيافا وبايامنا الجميلة هل ستعود من جديد هل ستحبني

يافا؟ هل ستتنازل عن كبريائها قليلا لتقول تلك الكلمة التي انتظرتها منذ سنوات؟ هل ستفعلها حقا؟.

وفي صباح اليوم التالي ارسلت يافا بنفسها لي رسالة تقول فيها انها يافا وانها لم تتزوج لم اصدق انها هي، يافا تبعث لي برسالة لتعرّف عن نفسها امر لا يصدق يافا تلك التي كنت اذهب إلى كليتها متحملا البرد والمطر في الشتاء وحر الشمس الحارق في الصيف متأملاً ان تنظر إلي نظرة واحدة لا اكثر لكنها كانت لا تفعل، واليوم هي بنفسها تأتي إلي وتعرّف بنفسها امر غريب.

بدأت أشك انها مزحة من احد اصدقائي الذين يعرفون بقصة حبي ليافا، وانه قد عمل صفحة في الفيسبوك باسم فتاة وأراد ان يمزح معي فما يحصل لي لا يعقل بتاتا الا ان يكون مزحة من احد اصدقائي لا أشك في ذلك. ثم قلت في نفسي سأسألها امورا لا يعرفها احد سوانا، وبدأت اسرد عليها المواقف بكل تفاصيلها يوما وتاريخا وساعةً، حتى أنني كنت اذكر لها ما كانت تلبس في ذلك الموقف وماذا كانت تلبس في الموقف الاخر فالمواقف التي تربطني بيافا احفظ كل شيء فيها كأسمي.

ومما زاد ظني انها ليست بيافا، انها لم تكن تتذكر اغلب المواقف التي ذكرتها لها الا موقف واحد عندما جلبت اختها الصغيرة معها تلك الطفلة المشاكسة التي كانت تقطف الزهور من الحدائق وتركض هنا وهناك ويافا تلاحقها وهي تضحك، كانت تتذكر هذا الموقف جيدا لكن عددا من اصدقائي كانوا معي في ذلك اليوم لم اقتنع انها يافا.

ثم فكرت قليلا وقلت لنفسي وكيف لها ان تتذكر كل هذه المواقف فالامر يختلف عنك، أنت كنت مغرماً بها وكل شيء يتعلق بكما تتذكره لانه امر مهم للغاية لديك. عكسها بالضبط فهي لم تكن تحبك وهذه

المواقف التي تذكرها لها لم تكن تعني لها شيئا حينها فكيف لها ان تتذكرها!.

ثم قلت سأسألها عن امور مادية ملموسة لا تتعلق بمواقف حب منها لي، فقلت لها:

ـ أتذكرين قبل ثلاثة سنوات تقريبا اتصلت بي امكِ وهي تقول اترك يافا وشأنها فانها ستتزوج ابن عمها؟.

ـ نعم اتذكر.

ـ أرسلي لي رقم الهاتف التي اتصلت امك لي منه.

وقد كنت احفظ الرقم منذ ثلاث سنوات والى الآن، ولم تمر الا ثوانٍ معدودة حتى بعثت لي بالرقم نفسه، هنا ازيحت الظنون حولها بمقدار النصف وبقي النصف الآخر حتى اتأكد انها يافا، ثم قلت لها:

ـ أتذكرين في يوم اعطيتكِ منديلا مكتوب فيه بيتين من الشعر؟.

وبينما انتظر جوابا منها ارسلت يافا لي صورةً للمنديل وقالت انني احتفظ به إلى اليوم نظرت إلى المنديل فاذا به هو نفسه ذلك المنديل الجميل، حينها تأكدت انها يافا لان المنديل كان دليلا قاطعاً أنها هي، سألتها عن سر احتفاظها بالمنديل «فهي قالت لي يومها لا احبك» واخذت المنديل واحتفظت به أليس هذا الامر غريبا!.

قالت ان لهذا المنديل مكانة خاصة في قلبي، لا اخفي انني كنت فرحا جدا لما قالت وبدأت اتكلم مع حبيبتي يافا واستذكر معها ايامنا الجميلة في الميكانيك وكنت اعاتبها مازحا على ما فعلت لي في السنوات التي

مضت من جفوة وقسوة شديدتين، لكن مهما يكن فقد عادت لي وانا لا الومها على شيء البتة.

ومرت الايام وانا في كل يوم اتكلم مع يافا ساعات طوال في رسائل الدردشة على الفيسبوك ولم اكن أشعر معها بالوقت اطلاقا فالساعات تحولت إلى ثواني معدودة لا ادري كيف كان الوقت بكل تلك السرعة حتى يحل الفجر ونحن من مساء اليوم الماضي، فالزمن مع من نحب بدون توقيت وبلا ساعة. وعدتُ إلى املي من جديد بان اسمع منها كلمة «أحبك» التي لطالما انتظرتها منها.. لكنها أبت أن تنطقها، قلت لها ألم يحن الوقت لذلك؟..

لم تستطع ان تتنازل وتقول لي أحبك رغم انها عادت اليَّ بنفسها لكنها كانت تتهرب من سؤالي وتقول انني بعدما تعرفت عليك لا اريد ان

اخسرك بعد اليوم، كانت تعيد نفس الجملة كلما كنت اقول لها ألا تحبينني؟.

أدركت انها بدأت تحبني بعدما تكلما معا لايام قلائل، فقد كنت احلم معها بالكلمات وكنا نسافر عبر الزمن ونذهب سوية إلى الحدائق ونركض ونتسابق ونأكل في المطاعم ونمازح بعضنا البعض ونسوق الدراجة سويا وكأننا اطفال صغار لا نعرف من الدنيا سوى اللعب والضحك ببراءة تامة وبروح مرحة بعيدا سفاسف الكلمات الماجنة والتي لا تمت للاخلاق بصلة.

هكذا اصبحت يافا تتعلق بي اكثر فاكثر، لكنها لم تقل لي انها تحبني حتى تلك اللحظة على الرغم من فرحها الشديد عندما كنا نتكلم سوية،

ونقوم برحلات في احلامنا الطفولية الجميلة، مرت الايام وانا في قمة سعادتي بوجود يافا معي، على الرغم اننا كنا نتكلم بالرسائل فقط لكن مهما يكن فاحساسي بيافا تتكلم معي وتسهر معي ولا تشعر بالوقت معي، كان حلما في يوم من الايام والآن اصبح حقيقة.

سألتها مرّة عن سبب التأجيل لتلك السنة وعن قصة زواجها من ابن عمها، قالت لي انني مريضة بمرض الربو منذ زمن وفي تلك السنة اشتد المرض عليّ ولم استطع اكمال دراستي حينها اما قصة خطوبتي بالاحرى وليس زواجي نعم كان هناك امرٌ بهذا الخصوص لكنني رفضت ابن عمي لانني اعتبره مثل اخي فقد تربينا سوية في بيت واحد منذ الطفولة ولا احمل له الا مشاعر الاخوة.

كان حديثها واقعيا احسست انها لا تكذب بما تقول وانها صادقة في كلامها، ثم انني لم اكن اعلم انها مصابة بمرض الربو من قبل، كنت حزينا لسماع ذلك منها، شعور موجع ان تسمع ان حبيبتك مريضة وتتألم وانت لا تستطيع فعل شيء لها ليتها لم تقل ذلك او ليتني لم اسألها سبب تأجيلها.

على الرغم من ذلك فقد كنا سعداء جدا بتواصلنا معا ومما زاد سعاتي انها كانت سعيدة معي احسست لاول مرة انها تبادلني المشاعر نفسها.

وكعادة الايام الجميلة التي تربطني بيافا تكون سريعة جدا، فبعد مرور اسبوعين من عودة يافا لي، جاء دور الحكومة العراقية بالوقوف امام سعادتي مع يافا، فقد اعلنوا قطع شبكات الانترنت من المدن التي وقعت تحت سيطرة داعش، ويافا كانت حينها في مدينة الموصل التي

سقطت بيدهم منذ العاشر من حزيران الماضي، ولم يكن بيني وبينها وسيلة تواصل سوى الفيسبوك الذي يعتمد على الانترنت.

لم يبقَ احدٌ في الدنيا الا ووقف امام حبي ليافا وكأن الاقدار تقول لي دعها وشأنها فهي ليست لك ففي كل مرة يتدخل احدهم بيني وبينها ليمنعنا من التواصل معاً، فصديقتها «ندى» تلك التي كانت حائلا بيننا في بداية حبي لها ثم ام يافا التي اتصلت بي تحذرني من الاقتراب من ابنتها، ثم ابا يافا الذي قضى على كل امالي حينها عندما اشتكى عليّ في الامن الجامعي.. وثم صديقة اخرى لها، إلى ان وصل بي الحال ان تقف الحكومة نفسها حائلا بيني وبينها وتقطع وسيلة الاتصال الوحيدة التي كانت بيننا!.

عدت مرة اخرى إلى الانتظار من جديد انتظر يافا كل يوم علها تبعث لي برسالة واحدة تطمئنني عن حالها.

مرَّ شهر كانون الاول ولم يحصل شيء ففي كل يوم افتح صفحتي حتى ساعات متأخرة من الليل انتظر يافا علها تفتح صفحتها على الرغم من انني كنت على علم انه ليس بامكانها ان تبعث لي شيئا فلم تبقَ وسيلة اتصال الا وقد قطعت عنها وعن مدينتها اما من قبل المسلحين او من قبل الحكومة!.

وفي بداية العام الجديد من سنة 2015 م هطلت الثلوج في مدينة السليمانية التي اعمل بها وقد غطت الثلوج الشوارع والازقة والجبال المحيطة بالمدينة في منظر ابيض جميل، لم اتمالك نفسي على الخروج إلى الحديقة الموجودة قبيل المكان الذي اعمل به لارى الاطفال وهم

يلعبون بالثلج ويمازحون بعضهم البعض وهم فرحين جدا بذلك، وبينما انا واقف اراقبهم التفت إلى يميني فرأيت مساحة ممتلئةً بالثلج وكأنها تقول لي تعال واكتب فيَّ ما تريد، حملت خشبة بيدي لأخطّ فيها على الثلج فكتبت فيها اول حرفٍ من اسمي ورسمت قلبا ثم كتبت اول حرفٍ من اسمها، وهذه الرسمة ليست بالامر الغريب فهي متعارفة بين المحبين والعشاق وكثيرا ما نراها على الجدران لم اكتب او ارسم على الثلج حينها سوى الحرفين ورسمة القلب لان اؤلئك الاطفال الاشقياء تجمعوا ليقوموا بقذف كرات الثلج ناحيتي وهم يضحكون، صرخت عليهم وانا اقول دعونا نصبح فريقين لكي نلعب سوية لكنهم لم يفهموا عليّ فهم لا يعرفون التحدث سوى اللغة الكردية وانا لا اجيدها.

تكاثروا علي بعدها مما جعلني اهرب منهم إلى مكان مبيتي في موقف مضحك فقامتي الطويلة بقدر ضعفين او اكثر من احدهم وانا اركض امامهم!. ولم اغضب منهم فمحبتي للاطفال تمنعي ان اضربهم او افعل شيئا لهم، وبعدما وصلت إلى باب البيت الذي اقيم فيه رجعت لانظر اليهم وقد ارتسمت في وجوههم الضحكات ويلوحون بأيديهم باشارات النصر عليّ انا المسكين الذي هربت منهم، اطفال اشقياء منعوني ان استمتع بالثلوج حينها.

ومرت الايام تباعا وشوقي ليافا هذه المرة اقوى من ذي قبل، فهذه المرة لا تشبه التي قبلها عندما اختفت يافا فترة من الزمن ثم سمعت بخبر زواجها لم يؤثر بي كثيرا لانها لم تكن تحبني ولا تريد رؤية وجهي رغم كل التضحيات والانتظار والصبر التي تحملته من اجلها لكنها ضربت تلكم التضحيات والمشاعر ضرب الحائط حينئذٍ وذهبت لتتزوج كما

قيل حينها.. لكن هذه المرة يافا كانت تبادلني نفس المشاعر، وكنا سعداء جدا بامضاء ساعات طوال معاً يوميا لكن لسوء الحظ لم تكتمل فرحتي بها كثيرا!.

وفي تلك الفترة حلمت حلما غريبا بعض الشيء فلقد رأيت في المنام أنني قد ارسلت اهلي ليخطبوها لي وأن يافا اتصلت بي وهي تقول إن ابي يسأل الناس عنك قبل أن يوافق عليك وسمعت انه غير راضٍ بهذا الامر ان يتم، كان حلماً غريبا حينها فانا لم افكر ان ابعث اهلي لخطبتها فهي لا تحبني إلى الآن فكيف لي ان اضع اهلي بموقف محرج امام عائلتها وهم يرفضون الامر لكن مهما يكن فقد انتابني شعور انه سيحصل امر كهذا لان كل الاحلام التي اراها بخصوص يافا تتحقق.

وفي احد الايام من شهر شباط سمعت خبرا افرحني كثيرا فلقد عادت شبكات الانترنت إلى الموصل لكن بواسطة الاقمار الصناعية وبدأت بعض الشركات بتوزيعها على مشتركيها.

فبتُ انتظر يافا بشغف اكبر وفي كل حين افتح صفحتي لعلها قد ارسلت لي رسالة تطمئنني عنها، وبقيت هكذا اياما طوالا لكن للاسف تحطمت امالي فيافا لم ترسل لي شيئا اردت ان اعرف السبب، وبدأت اسأل اصدقائي الذين بقوا في مدينة الموصل ولم يخرجوا منها عن حال شبكات الانترنت هل هناك اقبال من الناس للاشتراك بخدماتها؟.

قالوا لي ان عددا قليلا من الناس يشتركون فيها خوفا من ان يدفعوا مبلغ الاشتراك وتحجب الشبكة عنهم بعدها بايام كما حصل قبل شهرين عندما قطعت الحكومة شبكات الانترنت الداخلية، اضافة إلى ذلك فان الشبكات هذه سرعتها بطيئة جدا.

ادركت حينها ان يافا لم تبعث لي رسالة لانهم لم يشتركوا في خدمة الانترنت لتلك الاسباب المذكورة انفاً. وتلاشت الامال مرة الاخرى بالوصال وعودة يافا إليَّ، ومن حسن الحظ كانت للشركة التي اعمل بها حينها مشروع وقد اقترب موعد تسليم بوردات الكهرباء للجهة المستفيدة. مما جعلني اترك المكتب وانزل إلى الورشة لكي اساعدهم في اكمالها قبل موعد التسليم وبدأت انشغل بالعمل والمشاكل التي تواجهنا فيه.

كنا نعمل من الصباح الباكر إلى ساعات متأخرة من الليل مما جعلني اذهب إلى الفراش منهكا لا استطيع التفكير بشيء، جاء العمل الشاق في وقته فقد ابعدني ولو لفترة قصيرة عن التفكير بيافا.

فالفراغ هو المشكلة الكبرى لدي، احيانا كان ينتابني شعور بالضيق الشديد والتعب النفسي والخمول الجسدي جراء التفكير الكثير بها، لكن الانشغال بالعمل حينها اعاد الي روحي ونشاطي من جديد وبدأت افكر في حل المشاكل التي تواجهني ولا افكر بمشكلة يافا الازلية.

بداية النهاية..

استمر العمل اليومي المستمر بتلك البوردات الخاصة لمشروع معمل الادوية في احدى المناطق القريبة من محافظة السليمانية التي تسمى منطقة بازيان واستطعنا اكمال العمل في منتصف شهر نيسان من سنة 2015.

وبعد اكمال تلك البوردات الكهربائية وانتهاء العمل الشاق لساعات طويلة طيلة تلك الفترة كان لابد لي أن أخذ فترة استراحة قليلة قبل الرجوع إلى مكتبي لمزاولة العمل على جهاز الحاسوب، لكن بعد أن ذهب التعب الجسدي، عاد التعب النفسي مرة اخرى.. فعاد وقت فراغي إلى ما كان عليه قبل العمل في الورشة وبدأ التفكير بيافا لماذا لم ترسل إلى الآن رسالة تطمئنني عنها ما الذي حصل، أيعقل انها نسيتني!.

وفي احد الايام لعله كان آخر يوم من شهر نيسان ذهبت مع احد زملائي في العمل في فترة الاستراحة إلى تناول الغداء في احدى المطاعم القريبة خرجنا في سيارته وفي الطريق بدأ يتساءل لماذا لا تتزوج يا يوسف؟. ما الذي يمنعك من الزواج وانت مهندس في شركة محترمة ولديك راتب جيد، وانت وحيد هنا في هذه المدينة لماذا لا تتزوج وتؤجر بيتا وتسكن فيه حتى ترتاح وتستقر حالتك وتتخلص من هذه الوحدة

التي انت فيها قلت له انني لا استطيع الزواج بسبب قصة طويلة لا اريد ازعاجك بسردها قال لي وما الضير نحن في وقت الاستراحة اختصر قدر ما تشاء لعلي استطيع مساعدتك، فبدأت بسرد قصتي له باختصار مبينا له مدى عمق المشكلة التي انا فيها فقلبي اصبح ملكا لفتاة احبها جدا ولا استطيع ان احب غيرها، وهي تتواصل معي فترة قصيرة وتذهب وابقى انا بانتظارها اياما واشهرا ولا ادري متى ستنتهي هذه القصة التي انهكتني لقد وصلت إلى مرحلة اليأس منها يا صديقي فكل الناس يقفون ضدنا ولا احد يستطيع حل مشكلتي.

بعدما سمع بقصتي وتأثر بها بدأ يتحدث عن قصة زواجه هو وكيف انه واجه الصعوبات والمشاكل حتى تمكن من الزواج بالفتاة التي كان يريدها وقال لي طلبت الفتاة من اخيها وانتظرت ستة اشهر إلى ان جاءني الرد بالموافقة، ثم قال لي انني بقيت ادعوا الله فترة الانتظار كلها واطلب منه سبحانه ان يوافقوا على تزويجي اياها والحمدلله حصل ذلك، ثم قال لي يا يوسف توجه إلى الله واطلبها منه وألح على الله بالدعاء والتمس ساعات الاجابة ولا تيأس من رحمته فلا شيء مستحيل لديه.

لقد كان لقصته ولنصيحته الوقع الكبير على قلبي، لاول مرة في هذا الحب الذي لم اسمع فيه لرأي احد طوال تلك الفترة التي احببت يافا فيها كنت افعل ما اقتنع به فقط، ولا أبالي بنصيحة احد، لكن هذه المرة لا ادري لماذا تأثرت بكلامه وقلت سأتوجه إلى الله بالدعاء لعله يستجيب لي.

وفي ليلة ذلك اليوم وقبل النوم توجهت بدعاء خالص لله، ثم نمت

في ليلتها بعد ذلك الدعاء الذي كان خارجا من الاحشاء خالصا لله رب الارض والسماء.

وفي ليلة اليوم التالي وبينما انا اتصفح الفيسبوك جاءتني رسالة ففتحتها واذ بها يافا لم اصدق عيناي لقد استجيبت دعوتي بعد مرور يوم واحد فقط، لم اتمالك نفسي من شدة الفرح حينها وبدأت اصيح في الغرفة بصوت عالٍ «جاءت جاءت جاءت» كانت الرسالة تقول

ـ يوسف اتمنى ان تكون موجوداً على الفيسبوك الآن..

ـ فارسلت لها رسالة بأنني موجود..

ـ لدي امر مهم اريد ان اخبرك اياه.

ـ قلت خير ان شاء الله ما هو؟.

ـ قالت جاءت نسوة إلى بيتنا لخطبتي إلى ابن احداهن، واهلي موافقون عليه.

صدمتني بالخبر وتحول وجهي من احمرار الفرح إلى احمرار الحزن..

ـ وانتِ ما رأيكِ بالامر؟.

ـ انا لا اريده.

ـ ارفضيه اذن.

ـ هُم لم يتفقوا على المهر حتى الآن وسوف ارفض الامر حتى اذا وافقوا على المهر.

ـ ارفضيه وانا سأرسل اهلي إلى بيتكم ليطلبوا يدكِ لي.

ـ لا ترسل اهلك الآن انتظر حتى يذهب هؤلاء فاني اخاف اذا اتوا الآن إلى بيتنا سيقولون إن ابنتنا مخطوبة.

ـ سأنتظر منكِ جوابا لأرسل اهلي اليكم.

ثم أخذت منها عنوان بيتهم في مدينة الموصل وفي اليوم التالي اتصلت بأخي الكبير واخبرته بالامر حتى يكونوا على استعداد للذهاب بعدما اخبرهم بذلك.

وفي تلك الايام كانت يافا تتكلم معي كل يوم وحصل ما كنت انتظره منذ ثلاث سنوات. فبعد رسائلها الاولى التي اخبرتني فيها بخبر خطوبتها التي لم تكتمل بعد بدأت يافا تقول لي انها كانت مشتاقة لي جدا خلال اشهر انقطاع الانترنت وان الايام كانت طويلة عليها جدا.. وهي تتكلم كنت اتذكر نفسي بكلامها فكم كانت الايام والساعات طويلة عندي بغياب يافا والآن يافا قد وصلتْ إلى ما وصلتُ اليه قبل اكثر من ثلاث سنوات لقد اصبحت تعاني بما كنت أعانيه لسنين خلت.

ثم قالت لقد جاء الوقت لكي اقول لك..

احبك «يا يوسف نعم انا احبك جدا».

لا استطيع التعبير عمّا شعرت به بعدما قالت لي تلك الكلمة، فقد جعلت قلبي يخفق من شدة وقع الكلمة عليه وبدأت تزداد دقاته واحمر وجهي من كثرة تدفق الدم اليه..

كنت انتظر هذه الكلمة منها منذ زمن بعيد، بعيد جدا في تقويم حبي لها.. فقبل «ثلاث سنوات واربعة اشهر وثلاث وعشرون يوما وخمسة عشر ساعة وثلاث وخمسون دقيقة» قلت لها احبك يافا، وانتظرتها خلال كل تلك المدة لتنطق بالكلمة التي لطالما حلمت ان اسمعها منها

هي بالذات، آه يا يافا لو تعلمين كم تعبت وانتظرت وصبرت وتألمت حتى اسمع منكِ هذه الكلمة.

أحبك كلمة لا تعني شيئا من غيرك وأحبك منك تعني لي كل شيء.

لقد قالت لي أحبك نعم قالتها ومن قلبها فما حجم تلك السعادة التي تحملها هذه الكلمة على قلبي الحزين الذي عانى ما عاناه طيلة تلك الفترات من الانهيارات والجفوات والمأساة وايام خذل فيها وايام كنت انظر فيها إلى يافا من بعيد وانا متمسك بذلك الحلم الجميل انه سيأتي يوم وتحبني يافا، ما كل هذه العزيمة التي كنت امتلكها للتمسك بهذا الحب العذري العفيف.

ثم أكملت معها حديثي وسألتها منذ متى أحببتني قالت منذ أن تكلمنا قبل خمسة اشهر فقد تعلقت بك كثيرا واكتشفتُ انك تفكر مثلي واننا متشابهون في امور كثيرة وهذا ما جعلني احبك من كل قلبي ولا اريد ان اكون لغيرك وبعدها ذهبت يافا وغابت عني خمسة ايام وانا انتظرها بفارغ الصبر كي ترسل لي رسالة تخبرني ان قضية اؤلئك انتهت وانه بامكاني ارسال اهلي إلى بيتهم.

وجاء ذلك اليوم والخبر السعيد ان الامر لم يتم وانهم لم يوافقوا على المهر الكبير الذي طلبوه منهم.

جاءت فرصتي الآن والحلم يكاد أن يكون حقيقة فانا سوف ارسل اهلي إلى بيت يافا ليطلبوا يدها لي لم اصدق ذلك وكأنني أحلم، اهلي سيذهبون لخطبة يافا لي انا، امر لا يصدق بالفعل لعل ذلك الحلم الذي رأيته قبل اشهر قد يتحقق، ما قصة الاحلام التي اراها حول يافا وكلها

تتحقق بعد فترة قصيرة.. لكن انتابني خوف من ان تلك المشكلة التي تحدثت عنها في الحلم وخفت من انها ستعيقني عن الوصول اليها، وكان هنالك شيء آخر يخيفني في أمر ذهاب أهلي اليهم. فاذا تم الرفض سيقضون على كل آمالي بها ولا يمكنني ان احقق حلم السنين فالآن على الرغم من ان يافا تأتي فترة قصيرة وتغيب فترات طويلة الا انني متمسك بذلك الحلم الجميل معها. فإذا رفض اهلها تزويجي اياها سيقضون على كل شيء ولن اعود كما كنت سأخسر يافا نهائيا، لكن من ناحية أخرى لابد من هذه الخطوة فكيف لها ان تكون زوجة لي من دون هذه الخطوة التي كانت مخيفة لي بقدر سعادتي بها. اتفقتُ معها بأنني سأرسل اهلي في عصر يوم الاحد التاسع من أيار من السنة نفسها، وانني ساخبر اهلي بذلك.

كانت المنطقة التي تسكن فيها يافا تقع على الاطراف المحاذية من الجنوب الشرقي للمدينة وهي بعيدة عن المنطقة التي يسكن فيها أهلي وسط المدينة، مما أضطررت إلى استخدام برنامج «كوكل إيرث» واخذت صورة للمنطقتين ورسمت بخطٍ أحمر على الطريق من الجسر الخامس المشهور في المدينة من جهة الجانب الايسر «ذلك الجسر الذي عبرناه مشيا على الاقدام قبل أكثر من أحدى عشر شهرا قبل سقوط الموصل بيد داعش بايام قلائل»، إلى الجامع القريب من بيتهم وارسلت لاخي الصورة وقلت له عندما تصلون إلى هناك تسألون عن بيت ابا يافا فهو معروف هناك في المنطقة.

وحسب العادات والتقاليد السائدة عندنا فان النساء يذهبن في المرة الاولى ويتفقن مع اهل الفتاة ثم ينتظرون الموافقة منهم واذا تمت

الموافقة يذهب الرجال لاتمام الامر، لذلك كانت أمي وأختي الكبيرة وخالتي وزوجة أخي هم الذين سيذهبون لخطبة يافا.

كانت المشكلة في حينها أن والدتي لا تجيد التحدث باللغة العربية الا بعض الكلمات البسيطة وكذلك زوجة اخي، لكن اختي الكبيرة كانت تجيد اللغة العربية جيدا وتتقن «اللهجة الموصلية» بحكم وظيفتها «فهي معلمة في احدى مدارس الموصل»، وخالتي كذلك لانها كانت تسكن الموصل منذ اكثر من خمس وعشرون عاما، كنت خائفا جدا حينها فنصف الذين ارسلتهم سوف يبقون صامتين والموضوع يحتاج إلى الكلام وكسب الطرف الاخر به.

كان الموقف صعبا جدا فالخوف بدأ ينتابني ماذا سيقولون هل سيقبلون بي؟. ام انهم سيرفضون الامر من اساسه؟..

فأهل الموصل كما هو معروف عنهم انهم لا يزوجون بناتهم لاطراف المدينة وحتى بعض العشائر التي تعيش في الموصل فهم يفضلون تزويج بناتهم فيما بينهم فقط وأضافة إلى ذلك فهم يعقّدون امر الزواج حتى فيما بينهم ولا أقول كلهم هكذا.

وفي صباح ذلك اليوم المنشود الذي لطالما حلمت به لايام وسنين خلت فقد اقتربت من هدفي الذي وضعته قبل اكثر من ثلاثة سنوات واستطعت التوفيق بين الدراسة والصبر على حب يافا لاجل هذا اليوم الذي لربما بعدها ستكون يافا لي انا فقط، وسأعيد تلك الذكريات الجميلة مع يافا لايام فرحي معها وايام حزني وألمي بجفوتها وقسوتها علي لكن بطعم آخر هذه المرة ستشاركني يافا بتلك الذكريات فيالها من سعادة ستغمر حياتي وتفيض عليها ان حصل ذلك.

وبدأتُ أتصل بأخي الكبير في ذلك الصباح بين الفينة والاخرى اخبره بما يجب ان تقول لهم اختي عني ثم افكر بعدها واتصل وازيد على ما قلت له قبل قليل او انقص عليه، بدا الارتباك الشديد واضحا عليَّ في ذلك اليوم وكنت في المكتب وامامي صديقي الذي نصحن بالدعاء في امري وقد اخبرته انني أرسلت اهلي لطلب يد الفتاة التي احبها، اتذكر أنه كان ينظر الي ويرى وجهي محمراً وبدا عليّ بعض الحركات الّا إرداية

وهو يطلق بوجهي تلك الابتسامات القصيرة والاشارة في العينين ليقول لي اهدأ فالامر سيحصل بأذن الله وكما تريد.

أقترب وقت الذهاب واتصل بي اخي من خلال الانترنت ليخبرني ان سيارتنا تعطلت وان ابن خالتي سيأخذهن بسيارته الآن فلا تقلق، اول خبر سيء في الموضوع لكن تم حله مباشرة وتوجهن إلى بيت يافا لذلك الامر المصيري بالنسبة لي، وبذهابهم انقطع الاتصال بهم فهم لا يملكون وسيلة اتصال الا في البيت.

مرت الساعة الاولى على ذهابهم وقد فرغ صبري لا ادري ماذا افعل اجلس واقوم واتحرك واصيح احيانا ولا ادري ما اقول، كم هائل من المشاعر التي نفذ صبري عليها تخرج بصوت مرتفع وبضربة على الحائط، هكذا أصبحت لا ادري ما افعل أفتح الساعة واحركها إلى الامام أم اخرج إلى الشارع اركض بين الناس كالمجانين فانا الذي صبرت سنين عجاف لم اعد استطيع الصبر الآن لساعة من الزمن، كالصائم في رمضان يصوم النهار كله متحملا الجوع والعطش صابرا عليهما لكن صبره ينفذ قبل خمس دقائق من الاذان.

مرت اكثر من ساعة ونصف الساعة على ذهابهم ولم يرجعوا بعد، على الرغم من انني اعلم ان المسافة إلى بيت ابا يافا طويلة بعض الشيء لانهم يسكنون في حي بعيد عن مركز المدينة لكنني لم اعد اتحمل اكثر من ذلك فقد تأخروا كثيرا بتوقيتي انا، لا أكذب ان قلت ان وقت تأخرهم مرَّ عليَّ اطول من تلك السنوات التي صبرتها.

نعم كنت انتظر يافا في اليوم ساعات طويلة حتى اراها لكن الساعات والاوقات تختلف باختلاف الظروف التي تحيط بها.

وقبيل الساعة السادسة اي بعد مرور ساعتين اذ بأخي يتصل بي لا ادري كيف امسكت بالهاتف بيدي وانا ارتجف لسماع ما حصل، فتحت الخط واذ بصوت والدتي، ومن دون مقدمات قلت:

ـ نعم يا امي قولي لي مالذي حصل؟.

ـ ذهبنا إلى بيتهم واستقبلتنا ام يافا، ثم جلسنا وبدأت أختك بالكلام وأخبرتهم أننا قدمنا لخطبة يافا إلى ابننا يوسف، تقول بأنها عندما سمعت بأسمك قالت ألم ينسى ابنتي إلى الآن فقد عرفتك مباشرة..

ثم أكملت أختك وقالت لهم أن ابننا قد رأى ابنتكم في الجامعة قبل عدة سنوات ولم يستطع ان يتقدم لخطبتها لانه كان طالبا حينها وألآن قد تخرج واصبح مهندسا وهو يعمل في شركة هندسية في مدينة السليمانية، تقول والدتي اننا رأينا في وجه أم يافا القبول، لكنها قالت سنستشير اباها ونرد لكم خبرا غدا ان شاء الله ثم قلنا لهم نريد رؤية يافا، فدخلت يافا لتسلم علينا وبدا عليها الارتباك والخجل وهذه حال اغلب الفتيات في مثل هذه المواقف الجميلة في حياة اي فتاة، واكملت امي تقول إن يافا

من خجلها الزائد نسيت أن تسلم على خالتك وجلست فقالت لها خالتي تعالي سلمي عليَّ فقبلتها واجلستها بقربها، ومن ثم خرجنا من بيتهم.

لا ادري كم كانت شدة الفرح الذي شعرت به في تلك اللحظة وضاعت الكلمات مني فلم ادرِ ماذا اقول وماذا افعل حينها، كان صديقي جالسا بقربي فاخبرته بالخبر السعيد فقال لي اذهب وصلِّ ركعتين لله واشكره على توفيقه لك وادعو الله باتمام الامر وان يقبل والدها بك.

ذهبت إلى الصلاة ووقفت فوق السجادة وكبرت لكنني لا ادري ما قرأت من شدة الفرح والتفكير بالامر انهيت الركعتين ورفعت يدي اطلب من الله ان يكمل الامر وان يجعل يافا زوجة صالحة لي في الدنيا والاخرة.

وفي ليلة نفس اليوم فتحت يافا صفحتها على الفيسبوك وبدأت اراسلها واول سؤالٍ سألته إياها ماذا كان شعورك اليوم، أخبرتني انه «كان اجمل يومٍ في حياتها»، لقد وصل الحب عندي إلى ذروته، يافا اصبحت تبادلني الشعور نفسه يالَ سعادتي، من في الارض اليوم أسعد مني!.

ستكون حبيبتي زوجة لي ولا شيء يفصل بعضنا عن بعض، وبدا أن حلمي سيتحقق وسنكون في بيت واحد تحت سقفٍ واحد. في ليلتها لم اعد اكتب لها كلمة حبيبتي في رسائلي اليها فقد ابدلتها بكلمة خطيبتي، كم كانت السعادة تغمرني بقول تلك الكلمة ليافا كنت أشعر انها تصبح جزءاً مني عندما اقول تلك الكلمة الجميلة لها.

مر ذلك اليوم الطويل في بدايته والقصير في نهايته وكأنه حلم، كلمة واحدة فقط تفصلني عن يافا، كل حياتي قبلها في كفة وهذه الكلمة من

ابيها في الكفة الاخرى فاذا نطق بها وقال «موافق» سيكسر ميزان حياتي من شدة ثقلها عليه. كلمة واحدة ماذا يحصل لو قلتها وادخلت السعادة إلى قلبي الحزين الذي لطالما انتظر هذا اليوم لكي يلتقي بقلب يافا لقاءاً لا فراق بعده ابدا، حتى الموت لا يفرقهما لا شيء يفصلهما ان قلتها.

وفي تلك اللحظات تذكرت مرة اخرى ذلك الحلم المزعج الذي رأيته قبل عدة اشهر فيافا قالت ان ابي سيسأل عنك لاجل الموافقة او الرفض وهناك مشكلة ما، لم تفصح عنها يافا في الحلم، والآن لم يبقَ أحد يعارض خطوبتنا من اهلها الا والدها، لا اعرف موقفه وانا خائف جدا من رفضه، فهو صاحب اول انهيار لي في قصة حبي ليافا، يوم قدم شكواه للامن الجامعي ضدي على اني أضايق ابنته ولا ادعها تدرس!.

لكن هناك بصيص من الامل، قلت لربما اذا عرف انني ذلك الشاب الذي اشتكى عليه قبل اكثر من ثلاث سنوات سيقول ان هذا الشاب جاد في أمره ولم ينسَ ابنتي إلى يومنا هذا والآن جاء ليخطبها من الباب وارسل اهله، فيتأكد انني اريدها صدقاً وليس حباً عابراً ينتهي بعد مدة قصيرة.

فكرت حينها كثيرا بما سيقول وبما سيكون جوابه ودعوت الله كثيرا ان يهديه للموافقة ولم يكن بمقدوري شيء حينها سوى الدعاء بأن يقبل

بالامر، احيانا كنت اتفائل كثيرا انه سيقبل بي واحيانا اخرى كنت اقول لا سوف لن يقبل.

امور كثيرة وافكار تأخذني بعيدا وأصل اليه وأكلمه في خيالي لاشرح له حالي وما انا عليه من الشوق والحنين والمحبة العظيمة لابنته وانني سأحملها على اكّف الراحة واجعلها اسعد امرأة في الدنيا كلها..

فهي اميرتي وملكتي وحبيبتي وكل شيء جميل في حياتي كيف لك ان ترفضني وانا احمل كل هذا الحب لابنتك!..

من مثلي يحبها انني انافسك في حبها انت والدها وانا حبيبها بل انا احبها اكثر من امها التي حملتها تسعة اشهر وارضعتها سنتين وتحملتها ليالٍ واياما طوال نعم احبها اكثر منكم جميعا حتى انني احبها اكثر مما تحب نفسها هي، واكثر مما احب نفسي انا، فانا العاشق المتيم لها فكيف لك ان ترفضني كيف!.

كيف لك أن تقتل كل هذا الحب بكلمة واحدة كيف لك ان تكون بهذا القدر من القساوة عليّ كيف!!.

وفي اليوم الثاني توجه أهلي إلى بيت يافا لكي يسمعوا منهم الجواب الاخير وماذا قال ابو يافا في موضوع الخطبة وبدأت أنتظر الرد منهم بعد عودتهم إلى البيت، انتظرتهم اكثر من ساعتين لكن لا جواب وفي كل حين انظر إلى الهاتف لعلهم قد عادوا وفتحوا صفحتهم على الفيسبوك ليخبروني ماذا حصل، لكن بلا جدوى حلّ الليل ولم يتصل بي أخي، بدأت أخاف كثيرا قلت في نفسي لعله رفض واهلي لا يريدون إخباري بذلك.

وبعد مرور اكثر من خمس ساعات على ذهابهم وانا في قمة توتري وخوفي إذ باخي يتصل بي تكلمت معه ثم قال هذه اختك تريد التكلم معك، وأول ما قالته لي أختي..

لقد رفض ابو يافا خطوبتكما وقال انه لا يمكن ان يزوج إبنته لك لاسباب كثيرة، عندما سمعت بهذا الكلام شعرت وكأن مقبضا حديديا

قد عصر قلبي الهزيل وكادت روحي ان تخرج من جسدي، ثم تماسكت أعصابي وقلت لها:

ـ وما هي الاسباب التي جعلته يرفض؟.

ـ انه يقول يريد رؤيتك وكذلك قال انك بعيد عنهم ويريدك ان تستقر في مدينة الموصل أيضا، فهو لا يريد ان تذهب ابنته بعيدا عنهم..

ثم قال انكم من «مدينة تلعفر»، هل سيسكن هو في تلعفر!، قالت أختي أحسست انه كان يريد الوصول إلى هذه النقطة أننا من «تلعفر» فهم لا يزوجون بناتهم لاهل تلعفر من أجل تلك الحادثة التي أخبرني عنها الاستاذ إبراهيم، يوم جاء ذلك الرجل الغاضب وقال «أنتم همج». ويعيب اغلب اهل الموصل بعضهم البعض اذا اعطى احدهم ابنته لشاب من تلعفر، غريب أمرهم فعلاً!.

لكن مهما يكن فقد تم الرفض، وأغلقت الهاتف بعدما سمعت من اختي ما سمعت ووقعت على فراشي وكأن الحياة قد إظلمت في عيني

لا اذكر ان مشاعري واحاسيسي حينها كانت ترسل اشارات للقلب انها تعمل فقد فقدت كل شعور حينها.

لم يكن الخبر بقدر استطاعتي لقد كان أكبر من أن اتحمله وأظل واقفا متماسكا، فقد تراخت العضلات واصبحت لا اقدر على الحركة وكأنني مغشيٌّ عليَّ من شدة وقع الخبر. لا ادري كم استمرت معي تلك الحالة حتى استطعت الوقوف على قدمي لربما ساعة او ساعتين لا ادري فأنا كنت منهاراً جدا ولم يكن بمقدوري فعل أي شي حينها.

أنتظرت يافا في ليلتها لاتكلم معها وأرى حالتها كيف بعد هذا الخبر الذي كان قنبلة ذرية حطمت آمالي واحلامي ولم يبقَ لها أثرٌ!.

فارسلت يافا لي رسالة تبين مدى حزنها على ما حصل وانها تبكي الآن ولا تستطيع فعل أي شيء، رغم أنني كنت منهارا ولا استطيع الكلام لكن عندما رأيت حبيبتي تكتب كلمات حزنٍ شديدة بما حل بنا في ذلك اليوم لم استطع حينها ان ارى حبيبتي حزينة إلى هذا القدر فاستجمعت قواي وتحاملت على نفسي لاقلل من حزن حبيبتي فانا لا استطيع أن أراها تحزن بتاتا ووددت لو ان حزنها تحول إلي لكي احمله عنها ولا تحزن هي، وبدأت أُصبّرها وأقول لها لم ينتهي الامر، انا لن أتخلى عنكِ سافعل المستحيل حتى نكون سوية..

رأيتها قد تحمست معي وقالت وانا أيضا لن أقبل بغيرك، وبينما نحن نتكلم جاءتني فكرة جميلة وقلت لنفسي لماذا لا ارسل اساتذتي الذين كانوا يدرسوننا في الجامعة فلدي علاقات طيبة معهم وبحكم أنني من الطلبة الاوائل فأغلبهم يحبونني ولا يرفضون طلبا لي، هكذا كنت أظن، فقلت لها يافا استبشري خيرا سارسل اساتذتي في الجامعة ليقنعوا أباكِ بالامر تفاءلت يافا بكلامي خيرا وفرحت بما قلت، ثم دعونا الله ان يوفقنا وان ينزل الرحمة على قلب ابيها. ثم قالت يافا لي إن اشتراكنا في خدمة الانترنت سينتهي غداً ولن استطيع التكلم معك في هذه الفترة إلى ان نقوم بالاشتراك مرة أخرى، أما انت فحاول اقناع اساتذتك علّهم يأتون ليقنعوا أبي بالأمر. قلت لها لا تقلقي سافعل أي شيءٍ لكي يقتنع والدكِ ويوافق على خطبتنا، وانتِ كذلك ان استطعتي ان توحي لاباكِ انك راضية بي، وتكلمي مع امكِ لعلها تستطيع إقناعه افعلي اي شيء فهذه فرصتنا الاخيرة.

لم يكن امامي خيار آخر سوى التوجه إلى طلب المساعدة من

اساتذتي في الجامعة.. فاتصلت باحدهم واخبرته بقصتي لكنه إعتذر مني وقال ان أختي في المشفى ولا استطيع تركها..

وتحدثت مع آخر فقال لي إصبر لعله سيقبل بعد مدة، حطموا آمالي وكنت أظنهم لن يرفضوا لي طلباً!.

لم يبقَ أمامي سوى مقرر القسم الذي يعلم بقصتي فهو قبل اكثر من ثلاث سنوات اخبرني بقصة شكوى أبو يافا عليّ في الامن الجامعي حينها، وتدخل بنفسه ليحل المشكلة، فهو الرجل المناسب لهذه المهمة المصيرية في حياتي، فأخذت عنوان بيته من أحد اصدقائه من الاساتذة الذين كانوا يدرسوننا وارسلت العنوان إلى أخي الكبير وقلت له إذهب وتكلم معه بالامر، وفي اليوم التالي اخبرني أخي أن مقرر القسم قال انه لا يستطيع الذهاب إلى بيت ابو يافا لكنه قال اجلب لي عنوان دكّانه وسأذهب اليه «حيث كان لوالد يافا دكانا لبيع الأقمشة في سوق النبي يونس»، لم أعلم لماذا يستطيع الذهاب إلى الدكان دون البيت، لكن من سوء حظي أن عنوان الدكان ليس عندي ولا استطيع أخذه من يافا فهي غير موجودة الآن.

ضاقت عليّ الارض بما رحبت فكل شيء يقف ضدي، بعدما كنت على بُعد كلمة واحدة من يافا، والآن أشعر بأنها ستذهب مني بعيداً، بعيداً جدا.

وكأن القدر كان يخبرني في كل مرة انها ليست لي مهما فعلت ومهما حاولت، لكنني كنت مصرّا على ما اريد ولم أيأس من المحاولات، سأحاول الوصول اليك يا حبيبتي مهما كان الثمن ومهما كانت المخاطر.

كانت فرصتي الاخيرة بالحصول على يافا تتمثل بأكبر مخاطرة سأخوضها في حياتي..

قررت الذهاب إلى مدينة الموصل بنفسي والتحدث إلى والدها لعلي استطيع اقناعه بالامر والدخول إلى الموصل حينها كان من منفذ واحد، حيث يجب عليَّ أن اسافر إلى تركيا ومن ثم إلى سوريا ومن ثم الوصول إلى مدينة الموصل..

طريق طويل جدا وخطر جدا في نفس الوقت، فبعد سيطرة داعش على المدينة سُدّت جميع المنافذ المؤدية اليها من المحافظات العراقية ولم يبقَ منفذ اليها سوى ما ذكرته آنفا.

كان لابد من التخطيط والسؤال عن المخاطرة التي ساقوم بها وكيف سأصل ثم ارجع سالما وباقل الخسائر وكل هذا يحتاج إلى وقت، لذلك قررت السفر اليها بعد عيد الفطر، أي بعد شهرين تقريبا. ومرت الايام ودخلنا شهر رمضان المبارك وانا انتظر بفارغ الصبر موعد السفر وخلال تلك المدة خططت جيدا ماذا علي فعله من اول يومٍ أسافر فيه إلى تركيا فقمت اولا بحجز تذكرة إلى «اسطنبول»، وقلت بعدً وصولي إلى اسطنبول سأنام ليلتها في بيت احدى خالاتي هناك وفي الصباح سأسافر إلى مدينة غازي عنتاب المحاذية للحدود السورية.. ومن ثم سأدخل الاراضي السورية مع أحد المهربين وبعد وصولي هناك سيكون بانتظاري صديقي حيدر الذي كان معي في الغرفة نفسها في السكن الجامعي ايام دراستي في الجامعة فهو يعمل مع ابيه وأعمامه في تجارة المواد الغذائية بين العراق وسوريا اذ كان لديهم عدة محلات في مدينة

الموصل لبيع المواد الغذائية. كان الاتفاق بأن ينتظرني في أحد المدن السورية حتى نذهب للموصل سوية فهم يعرفون الطرق جيدا، وأمر آخر أن مقاتلي داعش قد منعوا خروج الناس من مناطق سيطرتهم والسفر خارجها، الا ان صديقي قال لي تعال وانا سأخرجك معي بعدما تنهي ما جئت من أجله. كان كل شيءٍ مخطط له باحكام من اول يوم من السفر إلى يوم وصولي إلى العراق من العراق. فالعراق اصبح عراقين «عراق داعش» و«عراق الحكومة» والتنقل بينهما يحتاج السفر خارج العراقين!.

لكن، في لحظة من اللحظات انهار كلُّ شيء وذهب ادراج الرياح ففي ليلة التاسع من رمضان السادس والعشرين من حزيران، اتصلت بي أختي وبعد حديثنا عن الاوضاع وعن حالهم هناك في الموصل، خطر لي أن اقول لها هل تمانعين لو طلبت منكِ الذهاب الآن إلى بيت ابو يافا مع اخي الكبير وتسألي عن يافا لعلهم قد غيّروا رأيهم وكذلك أخبريهم أنني سآتي إلى الموصل من أجلها، لم تمانع أختي وقالت سنذهب الآن ونأتيك بالخبر.

مرَّ على ذهابها قرابة الساعتين ثم اتصلت بي تقول، طرقت بابهم فخرجت لي اخت يافا الصغيرة فقلت لها نادِ لي امك اتكلم معها، تقول فخرجت ام يافا أمامي ووقفت في الباب ولم تقبل بدخولي بيتهم وقالت لي إن يافا قد خُطبت لاؤلئك الذين لم نتفق معهم على المهر قبل مجيئكم فقد أتوا وهم موافقون على شروطنا وعلى المهر فاعطيناهم يافا قلت لها يوسف ارسلني وهو يقول سآتي إلى الموصل لاتكلم مع والدها قالت لا تتعبوا انفسكم فيافا قد خطبت ولا نريد الكلام في الموضوع.

لا أدري حينها مالذي حصل لي وقلت من دون إرادتي الحمدلله، حتى أختي قالت متعجبةً أتقول الحمدلله! قلت لها نعم الحمدلله.

كانت الصدمة أكبر من أي شيء، هكذا بكل بساطة أنهوا القصة!.

الصمت خيّم على جميع جوارحي، لا أدري أكان القلب ينبض أم لا تحولتُ إلى صنم لا قدرة لي على الحركة ولا على الكلام، ولا حتى التنفس كيف يفعلون هذا بي، كيف تغيرت أم يافا، ألم تكن موافقة عليّ، ما الذي تغيّر!!.

علمت أن أم يافا منعت أختي من دخول بيتهم خوفا من أن تسمع يافا بها وتتأثر بالامر فهم يريدونها ان تنسى امري ولا تفكر بي بعد ذلك اليوم، ولا أشك ان والدها قد أتصل بأؤلئك الذين اتوا قبلنا لخطبة يافا ولم يحصل الاتفاق بينهم على المهر وانه تنازل لهم لكي يخطبوا يافا وينقذها مني، بعدما شعر أن ابنته تريدني!.

ما كل هذا الكره الذي تحمله لي يا ابا يافا، قل لي بالله عليك ماذا فعلت لك لتفعل بي كل هذا ففي بداية حبي ليافا وقفت امامي وكنت حاجزا منيعا بيني وبينها وبقيت هكذا إلى ان جاء اليوم الذي أوقف مصيري وانهى حياتي عندك بالوصال بيافا، فلم تبالِ بمشاعري لا في بداية حبي ولا في نهايته التي كانت على يديك، لقد كان صديقي مصطفى محقا عندما وصفك بالحاجز الذي القى الشموع في وسط الظلام حينما قال فيك:

عـن حاجـز فـي مطلـق الاوهـام   أدمـى اللقـاء وألقـى ضـوء شـمعاتي
ألقـى الشـموّع فـي وسـط الظـلام   حتـى يسـير اليـأس فـي جراحـــاتي

لكن بالله عليك قل لي ما هو الذنب الذي اقترفته لتفعل بي كلّ هذا؟!.

أكان ذنبي وجريمتي أنني أحببت ابنتك وجعلتها أميرتي وملكتي..

أخبرني ما ذنبي وما جريمتي.

ما الفرق بيني وبين هذا الشاب الذي وافقت عليه قل لي ما الفرق..

هل لأنه موصلّي مثلكم وانا «عفري» كما تصفوننا!. لكنني أقول لك يا ابا يافا إنني لم أخلق نفسي ولم أختر مكان ولادتي ولم اختر عشيرتي حتى أنني لم أختر ابي وامي، فكما خلقك الله من دون أن يسألك خلقني انا كذلك فكيف تحاسبني لامر ليس في يدي ولا في يدك..

وما ذنبي من ثورة الشواف التي تكرهوننا من أجلها، ما ذنبي أنا!.

فالحادثة حصلت قبل ولادتي بثلاث وثلاثين سنة حتى انت لم تشارك بها فاما كنت طفلا صغيرا او لم تكن قد ولدت بعد، كيف تحاسبني على شيءٍ لا علاقة لي به ابداً!.

عندما كنت اتكلم مع يافا كانت تقول عنك انك تصلي الصلوات الخمس في الجامع، فهل هذا تصرف رجل متدين مثلك!. قل لي بالله عليك ما ذنبي وما جريمتي.

لكن كيف لي أن أعاتب شخصاً على هذه الفعلة إن كان أبناء أمتي تقتل بعضها البعض من أجل خلاف حصل قبل ألفٍ وأربعمائة سنة وكل طائفة تتهم الطائفة الاخرى بقتل صالحيهم..

وهم مثلي لا ناقة لهم ولا جمل بالذي حصل سوى الوقوع فريسة بيد ظالم لا يرحم ويحاسبك على جريمة حصلت في كتب التاريخ!.

أختلفت الاسباب والنتيجة واحدة، ذهبت يافا من دون رجعة هذه المرة وتحقق ذلك الحلم المزعج..

وكما كانت الاحلام التي قبلها لم يتوانى هذا الحلم الا ان يتحقق..

فحلم في المنام قتل آلاف الاحلام في اليقظة!.

وألآن أشعر ان قلبي أصبح كخردة آلة عاطلة قد رُميت في قمامة جسمي فلا يستطيع سوى اعطاء تلك النبضات لكي أستمر بالحياة بدون قلب فعلي.. مشاعري واحاسيسي قد تلاشت من شدة ما عانيت جراء ذلك الحب الذي استمر ثلاث سنوات وستة اشهر وثمانية عشر يوما، ولم يحمل في طياته اياما جميلة في كل تلك الفترة الا قرابة شهرين فقط.

مقابل اكثر من اربعون شهرا من الانتظار والصبر والتحمل والجفاء والقسوة، ثم جاءت الضربة التي قصمت ظهر البعير من ابيها ذلك الشخص الذي كان وما زال سبب تعاستي في حياتي هذه واتمنى أن أراه يوما لاعرف ما سرُّ كرهه لي بهذا القدر..

يافا ايتها الفتاة الرائعة لا ادري إن كنتِ تبكين الآن ام انكِ استسلمتي للامر الواقع لكنكِ ستبقين ذلك الحلم الذي لم يتحقق، وتلك الوردة الجميلة التي لطاما حلمت يوما ان اشمها وان يفوح عطرها في بيتنا الابدي لكن شاءت اقدار الله ان تمنعنا من ذلك.

والآن يا حبيبتي لا شيء يجمعنا سوى القمر أنظر اليه في كل ليلة لعلكِ تنظرين اليه انتِ أيضا وتتلاقى تلكما النظرتان في السماء وتحتضنان إحتضان اليتيم للوسادة، فقد أصبح التقاء نظراتنا في الارض جريمة كبرى لعلها تكون في السماء مقبولة.

حبيبتي ها قد انتهت قصتنا وكل منا أصبح في مكان آخر بعدما كانت لا تفصل بيننا سوى كلمة واحدة فقط، وذهبت أحلامنا وأمنياتنا أدراج الرياح آخذة معها كل تلك الايام والذكريات الجميلة التي قضيناها سوية منذ رؤيتي لكِ إلى هذه الساعة واصبحت أرض حبنها صحراء خاوية لا صوت فيها ولا حياة!.

حبيبتي...

شكراً لك لكل نظرة نظرتِها إليَّ لتجعليني أعيش في عالم آخر من الاحلام الجميلة والامنيات.

شكرا لك لكل ابتسامة منكِ في وجهي، التي أدخلت السعادة في قلبي وجعلت أحرفي تضيع بين الكلمات بحثا عن جملة او عبارة تلقى حتفها من فمي لتموت من بين كل الكلمات.

شكرا لكِ لكل ذكرى تشاركينني فيها من الذكريات.

شكرا لكِ لكل دمعةٍ نزلت من أجلي من تلك العيون الباكيات.

شكرا لكِ لكل لحظة فكرتِ فيها بي بين كل اللحظات.

شكرا لكِ على كل شيءٍ.

شكرا لكِ.

البداية الثانية..

بدت على قصتي أنها انتهت بالفعل، وهذه المرة ليست كسابقتها قبل أكثر من سنتين عندما سمعت بامر زواجها من ابن عمها، ثم بعدها إتضح أنه خبر غير صحيح، وان يافا لم تتزوج.

لكن الخبر اليقين هذه المرة كان منها هي «يافا»، ففي احد ايام رمضان استيقظتُ من نومي لأصلي صلاة الظهر، وكعادتي كلما استيقظ من النوم افتح صفحتي على الفيس بوك واتصفح قليلا ثم اقوم من فراشي فتحت الهاتف وإذ برسالة مطولة من يافا جعلتني اقعد بكل ما أوتيت من قوة كالذي يفزع من نومه من بعد كابوس مزعج، كانت نص رسالتها:

«مرحبا حبيبي كيف حالك، إنني مشتاقةٌ اليك كثيرا، لا ادري ما اقول على الذي حصل لكن ابي هو الذي رفضك وقَبِل بذلك الشاب الذي جاء يخطبني قبل مجيء اهلك الينا «قال لي إنكِ لا تعرفين مصلحتكِ»، أنا اريد مصلحتك يا ابنتي لم استطع ان اقول له شيئا، ثم أن ابن جارنا الذي يعمل مع «داعش» قد طلبني من ابي، لذلك اسرع أبي في خطوبتي إلى هذا الشاب خوفا من الاخير لانه يعمل مع داعش.

حبيبي كم بكيت يوم جاءت اختك في المرة الاخيرة وسمعت صوتها عند الباب وهي تتحدث مع امي، ليتني متُّ ولم يحصل ذلك.

أحبك كثيرا..»..

ليتني كنت أُميا لا اعرف القراءة حينها، كم كانت الكلمات قاسية على قلبي الحزين المسكور ألما ووجعا وانا أقرأ آخر كلمات حبيبتي يافا وأغمض عيناي والدموع تذرف منهما واستعيد شريط الذكريات معها في مخيلتي من أول يوم أحببتها فيه إلى تلك اللحظة القاسية من عمري حتى اخر لحظة قبل هذه الرسالة كنت أظن أن أختي تكذب عليَّ وأنها لم تذهب إلى بيت يافا ظننت انها لاتريدني ان اخاطر بحياتي واذهب إلى الموصل عبر تركيا وسوريا، فقد كانت رافضة لفكرة ذهابي اليهم لكنها لا تستطيع منعي من ذلك.

على الرغم من أني صدقتها وبقيت على حزني اياما، لكن هذه الفكرة خطرت لي بعدما سمعت كلام أخي وهو يروي لي كيف ذهب هو واختي في تلك الليلة، قال لي امورا لم تذكرها أختي.

لا ادري هل ان كلامهما كان مختلفا أم أنني كنت أختلق الاختلاف لأكذّب خبر خطوبتها وان هذا الكلام مجرد حبكة مدبرة بين اخي واختي ليمنعاني من المخاطرة بنفسي، لا ادري لربما كنت اتمسك بلا شيء لمجرد انني لا أريد تصديق الخبر.

لكن بعد هذه الرسالة أيقنت أن الامر قد تم وأنها ذهبت مني هذه المرة إلى الابد، ومعها أكتملت كل زوايا قصتي وتحطمت زواياي أنا العاشق سيء الحظ كالذين سبقوني من العشاق فهل هذه الكلمة لعنة تلاحق المخلصين في حبهم..

لو كان التحكم باللغة العربية في يدي لحذفت منها هذه الكلمة التي

حرمتني من حبيبتي. فلم أسمع عاشقا حظى بعشيقته يوما، فهذا قيس بن الملوح قد جُنَّ بعدما حُرم من حبيبته وذاك عبدالله بن عجلان مات من اثر الحرمان.

ثم مرت الايام بعدها وانا أفكر في قصتي كيف انتهت هكذا، ماذا افعل إنني أشعر بنقص كبير في حياتي، أصبح قلبي مهجورا، مجوفا، ككهفٍ فارغٍ لا تسمع فيه سوى صدى صوت سقوط قطرات الماء، شعور بالوحدة شعور بالوحشة وكأن هذا العالم الواسع قد خلى من البشر لا صوت فيه غير ضجيج الافكار والذكريات والاحلام والامنيات ونظرات اللقاء الاول والابتسامات الخجولة أراهم في مخيلتي كشريط فيلم سينمائي وكاميرا طائرة تصور الذكريات من الاعلى وهي تتنقل من ذكرى إلى اخرى بعيدا عن طوق الزمن ومتحكماته، فتجعلني ابتسم حينا وتذرف دمعي حينا آخرا وبينما أنا كذلك توقف المشهد فجأة مالذي حصل جاءتني فكرة، لما لا اكتب قصتي، واجمع هذه الذكريات في صفحات اقلبها متى ما اشتقت إلى يافا لربما الشيء الوحيد الذي بقي لي منها هي هذه الذكريات.كانت حينها مجرد فكرة بسيطة اردت ان اسرد القصة بشيء من التفصيل لكي ادخل في عالم يافا وانسى الدنيا حينما اغوص في اسطر القصة وانا امزج الكلام بصور حقيقية في مخيلتي ولم يكن نيّتي ان انشرها للناس.

وفي منتصف رمضان من السنة نفسها بدأت بكاتبة الصفحات الاولى من القصة التي في يديك، على الرغم من انني لم اكتب من قبل قصة اطول من صفحتين او ثلاث، ولم أقرأ رواية كاملة في حياتي ولا أملك اي تجربة في كتابة قصة طويلة كهذه، لكن الشيء الوحيد الذي جعلني

استمر في الكتابة أن القصة في مخيلتي مترابطة الاحداث والذكريات مترسخة فيها بالوقت والتاريخ والطقس وملامح الوجه وحتى الملابس.

ومرت الايام وانا في كل يوم اكتب صفحات من الذكريات وانا اعيشها بالفعل فتراني ابتسم لبعض المواقف واحزن لاخرى وتنزل دمعة من عيني لمشهد ما وأحيانا كنت اشعر بضيق النفس وكأن قلبي يُعصر فاترك الكتابة واخرج من غرفتي لاتنفس الهواء خارجا، كانت تمر عليَّ ايام لا استطيع الكتابة فيها من شدة وقع الكلمات على قلبي.

وفي احدى ليالي اواخر رمضان المبارك رأيت في المنام أن أبا يافا يكلمني في الهاتف ويقول لي تعال وأخطب يافا أنا موافق، وأنا اقول له ماذا تقول ماذا تقول وكأنني لا أريد هذا الامر واتحجج بعدم السماع. كان حلما غريبا أبو يافا يريد ان أخطب ابنته وانا اتهرب منه وأدَّعي عدم سماعه!. تعجبت من الحلم وذكرته لاختي وبدأت تضحك هي أيضا هو الذي رفضني كيف له ان يفعل هذا، لعل الحلم يدعوني لبعض التفائل لكن الواقع مختلف الآن ليس كباقي الاحلام التي تحققت جميعها.

مرت ايام رمضان سريعا كعادة ايام هذا الشهر الفضيل وكانت تذكرة طائرتي إلى اسطنبول في اليوم الثالث من عيد الفطر المبارك، التاسع عشر من تموز، على الرغم من سعادتي الكبيرة بتلك السفرة التي اذهب بها إلى رؤية عائلتي بعد تسعة اشهر من خروجي من البيت الا انني كنت اتمنى ان اذهب إلى مدينة الموصل لرؤية يافا لكن الاقدار شاءت ان لا تلاقيا.

مـا كل مـا يتمنـى المـرء يدركـه   تجـري الريـاح بما لا تشـتهي السـفن

وفي ليلة يوم الاحد التاسع عشر من تموز حلقت الطائرة التي تقلنا من مطار السليمانية الدولي في الساعة الحادية عشر ليلا، كانت الطائرة مليئة بالمسافرين لاننا في العيد والكل في الاجازة الصيفية، اصوات اطفال هنا وهناك والناس يتحدثون ويضحكون الا انا انظر من النافذة إلى اضواء البيوت والقرى التي نمر فوقها واتذكر أيام طفولتي عندما كنت اشاهد ضوءاً في السماء متحركا وأسأل ما هذا النجم المتحرك في السماء فيجيبونني إنها طائرة تنقل الناس من بلد إلى آخر..

كان شعور الخوف ينتابني حينها وانا انظر إلى السماء وأقول كيف لا يخافون وهم في هذا الارتفاع العالي من الارض؟.

والآن انا في الطائرة انظر إلى البيوت فهل هناك طفل ينظر إلى الطائرة التي تحملنا ويتساءل كما كنت اتساءل؟ ربما...

وبعد مرور ساعتين تقريبا أخبرنا قائد الطائرة اننا سوف نهبط على مطار اتاتورك الدولي في اسطنبول، نظرت من النافذة وإذ ببحر من الاضواء تحتنا، انها اسطنبول ليلا، المدينة التي لا تنام ولا تتوقف فيها الحياة للحظة من الزمن، المدينة التي تعج بالسياح من كل ارجاء المعمورة، اقتربنا شيئا فشيئا من الارض حتى ارتطمت عجلات الطائرة بمدرج المطار والساعة تشير إلى الواحدة وعشرون دقيقة من منتصف الليل.

بعدما اكملت إجراءات الدخول حملت حقائبي وكان في انتظاري ابناء خالتي الذين يسكنون في اسطنبول، استأجرنا سيارة أجرة وتوجهنا إلى بيتهم، كان الوقت متأخرا جدا حينها وصلنا للبيت والساعة تشير إلى الثالثة فجرا.

وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى مرأب الحافلات التي تقل الناس إلى كل محافظات تركيا كانت وجهتي العاصمة التركية أنقرة حينها لان والدتي قد خرجت مع أخي الصغير واختي الصغيرة من الموصل باتجاه سوريا ثم دخلت الاراضي التركية، حالهم حال السوريين الذين نزحوا من بلدهم بسبب دخول داعش لتلك المدن.

المرآب كان مليئا بالناس والحقائب والكل ينتظر وقت بدء المسير إلى وجهته. كانت بجانبي عائلة كبيرة تريد السفر إلى محافظة غازي عنتاب وكان معهم اطفال وفتيات كثر ومن بينهم طفلة لفتت انتباهي ينادونها باسم «يافا»، عيناها كعيون حبيبتي يافا خضراء واسعة، كانت مرحة جدا تلعب وتركض هنا وهناك وتقفز فوق الحقائب، وانا أراقبها وابتسم بما تفعل. وكأن القدر لا يريدني ان اتناسى حبيبتي التي حرمت منها، حتى جاءت هذه الطفلة التي تحمل اجمل شيئين فيها اسمها وعيناها لتذكرني بها وانا بعيد عنها مئات الكيلومترات!!.

مرت ساعة تقريبا حتى جاءت الحافلة التي تقلنا إلى أنقرة، الجميل في الامر انني تركماني فكنت افهم ماذا يقولون واستطيع الكلام معهم بما أريد، الامر الذي سهّل عليَّ الكثير من أمور التنقل في هذا البلد الذي ازوره للمرة الاولى في حياتي.

ركبنا في الحافلة قرابة الساعة الواحدة ظهراً، وبدأت بالمسير، وكما هو معروف ان اسطنبول نصفها في قارة اوربا والنصف الاخر في قارة اسيا، والمرآب يقع في الجزء الاوربي، فكان لابد من السائق ان يعبر من على الجسر المعلق الرابط بينهما. منظر جميل من فوق الجسر فن

معماري رائع وكأن الاسلاك التي تحمل الجسر آلة نسيج السجادة في استقامتها وميلانها وتشابكها، وكذلك منظر السفن التي تسير ببطئ وطيور النورس تحلق فوقها.

نظرت إلى البحر وتذكرت نهر دجلة، كم وكم كنا نعبر فوقه في طريقنا نحو الجامعة، وتذكرت نسيمه في تلك الليلة، ليلة حفلة التخرج، وكأن الذكريات التي نمر بها في حياتنا مخزونة في مخيلتنا تظهر فجأة عند تشابه الموقف والذكرى لنعيش حالة يكون جسدنا في مكان لكن ارواحنا وقلوبنا تذهب بعيدا حيث الموطن والاحبة فنستخدم تلك المشاهد لنعيش عبرها زمانا قد مضى بكل تفاصيله، ثم نبتسم ونعود للواقع فنخزنها ايضا لنعيشها يوما ما في موقف آخر ومشهد آخر...

مضت الحافلة في طريقها، وانا لم ارفع عيني عن النافذة لجمال المناظر التي نمر من خلالها فنرى حينا جبلا مليئاً بالاشجار وفي سفحه بعض المنازل الجميلة وحينا آخرا نمر على قرى صغيرة تحوي بيوتاً متوزعة هنا وهناك ويمر من خلالها نهر صغير عذب ترى وجه الشمس عليه وكأنهما يتحتضنان بعضهما البعض ليهبوا للناس الضوء والدفء والحياة..

مرت ست ساعات حتى وصلنا انقرة ودخلنا في المدينة وقت غروب الشمس كان اخي الصغير بانتظاري في المرآب، نزلت من الحافلة وسلمت عليه ثم توجهنا إلى البيت، كانت امي واختي بانتظاري، وصلنا البيت واذ بي أرى حبيبة قلبي أمي الغالية بعد مرور اكثر من تسعة اشهر من الفراق، إحضنتني وبدأت تقبلني وهي تبكي، شعرتُ حينها انني طفل

صغير رغم انني اطول منها قامة!، فلا شيء اجمل من حضن الام، مهما كبرنا ومهما وصلنا فنحن ضعفاء جدا وبحاجة لذلك الحضن الدافئ الحنون، وكما قيل «يبقى الرجل طفلا حتى تموت أمه، فإن ماتت شاخ فجأة «فنسأل الله ان يبقينا اطفالا مدى العمر.. سلمت على اختي بعدها وجلسنا نتحدث ونشبع نظراتنا من بعضنا البعض ونحن فرحين جدا..

وفي اليوم التالي خرجت لاتجول في أنقرة، ولحبي الكبير للشعر والشعراء وبالاخص شعراء الجاهلية، كان اول ما خطر لي قبر الشاعر أمرؤ القيس، فهو مدفون حسب علمي قرب جبل عسيب الموجود في أنقرة، وقد ذكر الجبل في احد ابياته الذي قيل انه من آخر ابياته التي قالها قبل موته ودفنه هناك، فيقال انه رأى على سفح الجبل قبرا وحيدا، فسأل لمن هذا القبر، قالوا لفتاة من الروم.

وكأنه كان يعلم انه سيموت هناك ويدفن بقربها بعدما اشتد عليه المرض فانشد يقول على قبرها:

أيـا جارتنـا إن الخطـوب تنـوب   وإنـي مقيـم مـا أقـام عسـيب
أيـا جارتنـا إنّـا غريبـان هـا هنـا   وكل غريـب للغريـب نسـيب

لكن من يعرف جبل عسيب؟. ومن اسأل هنا لكي يدلني إلى قبر اشهر شاعر عرفه العرب صاحب المعلقة الخالدة «قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل»، لا اظن أن احدا يعرفه في بلد العجم.

مرت الايام هناك سريعا وقمنا بزيارة خالاتي في محافظة قيصري ومن ثم ذهبنا إلى اسطنبول للسياحة وبقينا فيها عدة ايام وزرنا جامع السلطان احمد وصلينا فيه صلاة الظهر، ثم ذهبنا إلى احدى الجزر

الخلابة التي تقع على مسافة ساعتين في السفينة على البحر، قضينا اوقاتا جميلة مع بعض، وكانت سعادتي حينها كبيرة برؤية ابتسامات امي وهي تنظر إلى البحر والمناظر الجميلة في تلك الجزيرة، اجمل لحظات الحياة هي ان ترى والدتك سعيدة والاجمل من كل ذلك ان تكون انت سبب سعادتها...

إنتهت تلك الايام الجميلة مع عائلتي بحلول يوم التاسع والعشرين من تموز وحان وقت الرجوع للعراق حيث مكان عملي في مدينة السليمانية، كان موعد الطائرة في الثالثة عصرا في مطار اتاتورك الدولي، ودعت امي واختي واخي، ثم توجهت للمطار وانا انظر اليهم وألوّح لهم بيدي، ووالدتي تمسح الدموع من عينيها بمنديلها..

ابتعدت عنهم شيئا فشيئا إلى ان اختفت ملامحهم، وهذا كان اخر مشهد لي معهم حينها.

العَودة..

عُدت إلى مكان عملي، وقلت لنفسي سأبدأ حياةً جديدة بدون يافا، لربما أصبحت أكثر قوة من ذي قبل فحادثة فقداني ليافا قد تكررت اكثر من مرة وأصبح تأثيرها على قلبي أقل من ذي قبل..

فنحن البشر بطبيعة خلقنا هكذا، حينما نصادف أمراً ما للمرة الاولى ان كان فرحا نفرح بشدة وكأن الارض كلها لا تسعنا وإن كان حزنا، نظن ان الحياة انتهت عنده.. لكن حينما يتكرر الامر نفسه، لا نجد ذلك الفرح الشديد او ذلك الحزن الاليم وكأن التكرار يميت فينا بعضا من المشاعر والاحاسيس سواءاً كانت فرحا او حزنا.

ومرت الايام قُدُماَ، على الرغم من انني قررت نسيانها، وكنت ادعوا الله لها بالسعادة في حياتها الا انني لا أخفي لحظات كانت تمر علي وانا أغوص في ذكرياتنا الجميلة التي لا أظن انها واقعة ضمن قرار النسيان او لربما أن هذه الذكريات كاحزاب السلطة في بلدي فهي لا تبالي بقرارات الاجتثاث ابدا لان مكانها فوق القانون!.

لكن ما الذي جعل لهذه الذكريات القليلة جدا معها هذه المرتبة العالية عندي، فنحن لم نتكلم سوية الا مرات قليلة تعد على الاصابع، ولم نجلس يوما في مكان نشرب فيه شيئا، او نتمشى وحدنا في الحديقة

او نتكلم في الهاتف كل ذلك لم يحصل، فلما هذا الحمل الثقيل لتلك الذكريات الضئيلة جدا على قلبي لماذا؟!.

كيف لي أن لا أملَّ من تلك الذكريات القليلة وانا أعيدها كل يوم في مخيلتي او بالاحرى اعيشها فعلا، فابتسم مع طيفها واتكلم معها واقلد ابتسامتها بشفتاي، واتذكر عيناها الجميلتان تلك. لكن ماذا عساي ان افعل فقد ذهبت هذه المرة من غير رجعة ولا ادري قد تزوجت الان ام لا؟.

لربما بعد هذه التجربة التي لا اعرف ماذا اسميها ناجحة ام فاشلة ام ماذا اقول عنها لا ادري غير انني لست مستعداً بان ادخل في قصة حب اخرى مع فتاة اخشى أن أظلمها ولا استطيع ان اعطيها حقها من الحب، فما ذنب تلك الفتاة الذي حبيبها اذا اغمض عينيه رأى غيرها، لن اقبل بشيء لغيري لا احبه لنفسي قط.

لاجل ذلك كان قراري ان ابتعد عن الحب فترة من الزمن علني اتغير او تهدأ امواج الحنين والشوق لتلك التي أخذت مني كل شيء وتركتني وحيدا فريدا، مهجور الفؤاد الا من تلك الذكريات العابسات.

ذكريات كأنها النحل، أزيزها يصم اذان قلبي المهدومة اركانه..

فتنقضّ على مشاعري تمتص رحيقها ثم تقطر شهدها دموعا تمطر على وجهي الذي حفر الحزن فيه اخاديد تصب على وسادتي كل ليلة فتمتصها وتحتفظ بها في جوفها..

وحينما استيقظ صباحا أشم رائحة ذكريات فيها، زكية كرائحة المطر عندما يعانق التراب.

كنت دائما أتساءل لماذا اتذكرك يا يافا كلما وضعت رأسي على وساتدتي؟.. واليوم علمت انها كما الارض تخبئُ في جوفها ماء الحياة، كانت هي تخبئُ الذكريات الجوفية فيها والتي لا تخرج الا عندما يثقلها رأسي فيعصرها ولا تجد طريقا الا لتتمثّل أمامي معلنة أنها جاهزة لعرض حلقة تلك الليلة من مسلسل المأساة والاحزان.. هكذا تمر لياليَّ من دونك يا يافا..

أحيانا أتمنى أمنيات خطيرة، خطيرة إلى حد أنني أستغفر بعدها حينما أردد:

ليتني رأيت كابوسا ولم استيقظ يومها..

ليتني تأخرت عشر دقائق ولم أرك..

ليتني لم التفت يسارا في تلك اللحظة..

ليتني لم ارى عيناك حينها..

ليتني وليتني لم احبك لحظة..

لكن..

ما كل ما يتمنى المرء يدركه..

رب إمريء حتفه في ما تمناه..

وكان حتف قلبي فيما تمنيته..

مهما كان وقع الذكريات الأليمة في قلوبنا إلا أن الله وهبنا نعمة من أعظم النعم ألا وهي النسيان، ونحن عندما نذكر النسيان لابد ان نعلم جيدا ان للنسيان درجات كما للذاكرة دركات.

فأهل الميت حالهم في ايام العزاء ليس كما بعدها، وشدة الألم في أول وهلة ليست كالتي بعدها، كلنا فقدنا حبيبا او صديقا او قريبا وبكينا عليهم بدل الدموع دما، ثم بعدها نسيناهم واستمرت حياتنا وضحكنا حتى ذرفت دموعنا.. نعم هي نفس العيون ونفس المنبع الذي يحرر تلك القطرات لكن مشاعرنا هي التي تتحكم بنوع الدموع، حزن أم فرح، والنسيان هو من يعطي الفرصة لنا ان تعود حياتنا إلى طبيعتها وهو أيضا يمكنه بلحظة ان يحول الفرح حزنا إذا انهزم أمام الذاكرة.

هكذا نحن البشر كتلة من العواطف، يمكن لرائحة عطرٍ أن تذكرنا بعزيز فنحزن لفقدانه، او أغنية نسمعها في سيارة الاجرة فنغمض أعيننا ونخرج من الزمن ونرحل بعيدا حيث اللحن والكلمات تذكرنا بحركة شفاه من نحب عندما كنا نغني سوية، أو حتى المقعد الذي كنا نجلس عليه ونتبادل الكلمات الخجولة التي لا نستطيع نطقها بصورة صحيحة لانقطاع النفس، تذكرنا أيضا بهم.. كل شيء محسوس او ملموس يذكرنا بهم إن ضَعُف النسيان برهة أمام الذكريات..

في حين دخلت اول درجة من النسيان التي لا تبعد عن الذاكرة مقدار رمشة عين، بعدما أشغلت نفسي في العمل، وقتلت كل فراغ يومي بالانشغال، لان الفراغ مادة الذاكرة وسيفه الذي يقطع به رأس النسيان أما الانشغال فهو ترس النسيان يقي نفسه ضربات الذاكرة بغية الحياة لاطول فترة ممكنة.

وأحسست أني قد وضعت قدمي في أول الطريق، وانا أزيد عدد التروس للنسيان بغية الصمود أكثر، وابتعد عن كل شيء يذكرني بها

مهما كان صغيرا.. ظننت حينها أنني في هذه المرة لن أسمح لاي شيء أن يكسرني بعدها، حتى جائت رسالة على هاتفي.

ـ مرحبا.

ـ أهلا.

ـ هل أستطيع التكلم معك في أمر ضروري؟.

ـ بالطبع، لكن هل بإمكاني معرفتكِ؟.

ـ حسنا، أنا مريم صديقة يافا وجارتها.

خفق قلبي حينها، يافا من جديد، هل ستعيد نفس السيناريو القديم أنها لم تتزوج وأن ظني كان في محله يوم شككت بكلام أخي وأختي، ياربُ أعن قلبي على التحمل.

ـ اهلا وسهلا بكِ، تفضلي ما الامر الضروري؟.

ـ أنا صديقة يافا المقربة منذ الطفولة، وامها تعرف مدى علاقتنا القوية.

ـ ما المشكلة ادخلي في الموضوع بسرعة فقد بدأ قلبي يدق اسرع من محرك طائرة!.

ـ بالامس جاءت أم يافا إلى بيتنا وطلبت مني أن أتحدث مع يافا فقد اغلقت الباب على نفسها ولا تكلم أحدا، فجاءتني حتى أذهب إليها علها اذا سمعت اني أتية إليها تفتح الباب وتكف عن البكاء.

ـ آه يا حبيبتي ما الذي حل بكِ، أخبريني لما هي في هذا الحال؟.

أ لأنها ترفض الزواج من ذلك الشاب؟ قولي لي ما بها؟.

ـ أتمنى ان تسمعني ولا تقاطعني فيما أقول.

ـ لكِ ذلك.

ـ لقد تزوجت يافا قبل شهر وهي...

ـ ماذا ماذا، يافا تزوجت؟.

ـ نعم قد تزوجت وهي عروسة منذ أقل من شهر.

ـ ارجوك توقفي، لا أستطيع الكتابة بعد، أعطِني مجالا لاتنفس.

اختنق صدري لم أستطع إلا أن افتح نافذة غرفتي لاستنشق الهواء.

في كل تلك الفترة التي خُطبت يافا فيها، لم أكن أتخيل أنها ستكون «زوجة»، وسيلمسها أحد، كم كانت أليمةً تلك الفكرة، أن أحدا لمسها، حتى أنا لم أفكر يوما أن ألمسها، كانت يافا في مخيلتي شيء مقدس لا يجب لمسها اطلاقا، خلقت للنظر فقط، كلوحة الموناليزا في متحف اللوفر..

كم كان المنظرا بشعا جدا وانا اتخيل، أنها قد لبست الفستان الابيض وخرجت معه في السيارة والناس حولهم يرقصون ويغنون.

يا ربااااه ارحمني وارحم قلبي، هل عليَّ ان اعرف كل شيء عنها، فقد كنت قد وضعت قدمي في اول درجة من النسيان، هل هي لعنة الحب في قدري يا رب؟!.

أعان الله قلوب العاشقين، لقد أصبحت أشعر بشعور الأم تجاه قلبي، حين يصاب ولدها بالسرطان فتراه ينهار يوما بعد يوم أمام عينيها، وهي لا تملك سوى ان تموت في اليوم الف مرة في كل صرخة وكل وقعة

وكل دمعة.. كل خبر أليم كهذا، وكل موقف انهيار حصل لي كان كهذا الطفل الذي يأخذ جرعة كيميائية فتسقط كل شعرة من جسده وكل أمل له بالحياة معها، وكذا قلبي كان في كل جرعة ألم تسقط منه النبضات فاصبحت لا أشعر به قلبا ينبض بل قلب أبدل النبض عصرا يعصره في كل دقيقة الف عصرة كأنه كتلة اشواك تمزق احشائي.

ـ يوسف، أنا مستعجلة أريد أن أكلمك بالذي جئت من أجله، رد علي أين ذهبت؟.

ـ وهل يوجد أقسى من هذا الخبر يا مريم؟!.

ـ أنا اسف، لكن أرجوك دعني أكمل.

ـ أكملي، فالقلب قد أغشي عليه، أخبريني باقسى ما لديك!.

ـ ذهبت إليها طرقت الباب، يافا أنا مريم، لم ترد، يافا منذ متى لا نستقبل احدنا الاخر ألا تذكرين كم بكيت بحضنك وأنتي تخففين علي يوم وفاة جدي، يافا أنا حبيبتكِ أفتحي الباب ارجوك، لكل شيء حل، بعدها سمعتُ صوت حركة فتحتْ القفل لكنها لم تفتح الباب لي، ثم رجعت إلى سريرها، دفعت الباب وذهبت اليها، كانت ملقاة على وجهها يافا ما هذا الحال، أنظري إلي، زاد صوت بكائها، رفعتها ووحضنتها لا تبكي يا حبيبتي لا تبكي.

كانت عيناها الجميلتان تلك بيضاها قد إحمر من شدة البكاء..

ـ آاه يا حبيبتي ما الذي فعلوه بكِ، أكملي لم يبقَ لي شيء والا أغشي عليه مما تقولين لقد أصبحت صنماً بالكاد أكتب هذه الكلمات، أصابعي لا تستجيب جيدا، أكملي.

ـ نعم، قلت لها ما بكِ لما كل هذا الحزن، مسحت دموعها بعدما توقفت عن البكاء ما المشكلة يا يافا، قالت، إن زوجي وأهله يتهموني وأهلي بأننا كذبنا عليهم وخدعناهم.

بماذا!، تعلمين أنني مصابة بالربو واستخدم بخاخ ربو عندما تضيق أنفاسي، قلت نعم وأين المشكلة، قالت، قبل عدة ايام بعدما عملت في المطبخ قليلا وأصابني التعب ضاق نَفَسي فأخرجت من أغراضي البخاخ أمامهم واستخدمته فما رأيت الا وافواههم مفتوحة، ما الذي تفعلينه، قلت لهم بخاخ ربو، قالوا، وهل أنتِ مصابة بالربو، قلت نعم، أثار كلامي حفيضتهم ورأيت الاستغراب في وجوههم، ثم ابتسموا في وجهي وكلٌّ ذهب إلى غرفته، في ليلة نفس اليوم قال لي زوجي تجهزي سنذهب للدكتور غدا، قلت حسنا.

في الصباح ذهبنا إلى الطبيب، أجرى الفحوصات والتحاليل، ثم رجعنا إلى البيت رأيت في وجهه تغيراً عن السابق، وصلنا البيت دخلت غرفتي وذهب هو إلى أمه كنت أشعر أنهم يتحدثون عن شيء ما لكنني لم أعر إهتماماً لذلك.

وبينما كنت اريد أن أخذ قيلولة في غرفتي، دخلت أم زوجي إلي.

ـ أهلا حماتي تفضلي، لكنني رأيت الغضب يثور من وجهها.

ـ يافا، لماذا لم تذكروا قبل الزواج أنكِ مصابة بالربو المزمن؟.

ـ حماتي، الربو لم يؤثر في حياتي يوما، هو مجرد مرض بسيط، ولو كان خطيرا لما أكملت دراستي وأصبحت في الجامعة، أين المشكلة.

ـ تعلمين أن زوجكِ يبلغ من العمر تسع وعشرون سنة، هل تعلمين لما تأخر في الزواج؟.

ـ لا أعلم لماذا تأخر؟.

ـ كان يبحث عن فتاة كاملة المواصفات، جميلة في الشكل وسليمة من الامراض، كلما قلنا له ابنة فلان رفض وأخرج فيها مئة عيب، وفيكِ مرض مزمن ولم تقولوا لنا أليس هذا خداع وغش يا يافا؟.

مريم، أنا صُدمت حينها، هو واقف بجانبها ولا يتكلم، كان موقفي صعباً يا مريم، كيف لهم أن يعيّرونني بالمرض، ما ذنبي أنا..

لا تبكِ يا حبيبتي، بكت يافا حينها حتى شهقت حضنتها قليلا حتى تستكين وتكمل لي القصة.

بعدما هدأت يافا وكفّت عن البكاء، أكملت قائلة، بدأت حماتي ترفع صوتها، كذابون انتم أخفيتم المرض عنا قبل الزواج، الدكتور يقول أن مرضها مزمن ويجب أن تلقى عناية خاصة ولا تتعرض للضيق في التنفس لقد أصبح حالنا كالذي «صام وصام ثم أفطر على بصلة!».

لم أتمالك نفسي يا مريم، بدأت الدموع تدرف عن عيني بلا ارادة وأصبحت لا أقوى على الكلام، تخيلي أنا عروسٌ، لم أُكمل الشهر وهذا حالي، وزوجي لا يتكلم ولا يدافع عني حتى على الاقل أنه لا يُسكت أمه وهو يرى دموعي وضعف موقفي!. ثم قبل أن تخرج حماتي من الغرفة، قالت لن تبقي في هذا البيت، وسنشتكي عليكم في المحكمة، لأنكم أخفيتكم عنا المرض قبل الزواج، وستعيدون لنا كل تكاليف الزواج حينها

ـ قلت لها، يا إلهي ما هذا التفكير، أيعقل هذا؟ هل يستحق هذا المرض كل هذا؟.

ـ قالت، كل هذا في كفة وموقف زوجي في كفة أخرى، نظرت في عينيه بعدما خرجت أمه، كان يحمل فيهما نفس كلامها، لم أتمالك نفسي وأخرجت حقيبتي ووضعت ملابسي فيها، وقلت له، أوصلني إلى بيت أهلي، لم يقل شيئا، وكأنه قد جهّز نفسه لكي يأخذني إلى بيت أهلي أوصلني إلى الباب وذهب، وانا دخلت غرفتي وأقفلت الباب وهذا حالي هذا كل ما جرى لي..

ـ قلت لها لماذا لا تكلمين أمك، قالت هم السبب لكل ما يحصل لي، لو قبلوا أن أتزوج من يوسف، لفدى نفسه من أجلي وفكّر كيف يعالج مرضي، قبل أن يتهمنا بالكذب والخداع، أما هذا فلا يملك أي مشاعر تجاهي، وها هو قد تخلى عني بكل بساطة، ويوسف أنتظرني لسنواتٍ ولم ييأس.

كانت تبكي وتقول، يوسف كان يأتي كل يوم فقط لينظر إلي من بعيد ثم يلحق بي حتى خروجي من الجامعة يقف في الطرف الاخر من الطريق بالرغم من أني لم أكن اهتم به إلا أني اليوم، أدركت جيدا ما هي قيمة الاهتمام.

يوسف، لم يجرحني بكلمة ولا يسبب لي أي أذى، كان كالطيف جميل في كل شيء ليته يعلم بحالي. لكن بأي وجه سأتكلم معه، بعدما خسرته ولم أستطع ان ادافع عن حبنا.

وحتى لو كنت استطيع الكلام معه، وان افضفض له ما بداخلي، ما

ذنبه هو عندما أكون بخير لا أكلمه وعندما يحصل لي أمر سيء آتي لازيد ألمه آلاما وجرحه جراحا!. لا لن أكون بهذا القدر من السوء، لابد أن جراحه بفقداني لم تلتأم بعد لا لن أفعل.

لكن ليته كان بجانبي، ولو بالكلام، آه يا حبيبي كم أنا مشتاقةٌ لتلك الاحلام التي كنا نعيشها بالكلام، سامحك الله يا ابي ماذا فعلت بي!.

شعرتُ بأنها تحسنت قليلا عندما فضفضت لي ما بداخلها، لكنني لا أعلم لماذا كنت افكر بأن آتي لأخبرك بهذا الكلام وهي تتحدث عنك، أنا آسفة، لربما كان يجب أن لا أخبرك بما حصل لها!.

ـ لا تتأسفي، فالشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها، وانا مذ فقدتها، يوم خطوبتها ذُبحتْ مشاعري في مجزرة الذكريات.

ـ أعانك الله، يافا عزيزة عليّ كثيرا وانا احبها جدا وهي لا تستحق ما يحصل لها ابدا وبما أنها قالت «ليت يوسف بقربي لكي يخفف عني «أتيت إليك، فهل تريد أن تراسلها بعدما سمعت بما حصل لها؟.

انا لا أريد شيئا سوى أن تخرج من أجواء الحزن التي هي فيه.

فكرت قليلا بالامر، القلب يقول لي عُد إليها وكلمها كيف لك أن تتركها في هذا الحال، والعقل يقول إلى متى ستكون سبباً في تعاستك إلى متى. لكن لا ادري كيف خرج مني كلام لم يوافق القلب ولا العقل، تدخلت المبادئ التي تربيت عليها فقلت لها.

ـ مريم، ثقي أن لا أحد يحبها مثلي، لا أمها ولا أبيها، حتى أني أحبها أكثر من نفسها على الرغم من أنها تزوجت غيري، ولم تقف بوجه

والدها، لكن كيف لي أن أكلمها وهي في عهدة رجل آخر، أعلم جيدا أن كلامي معها، ووقوفي إلى جانبها في هذه المشكلة سيزيد من حبها لي اكثر فاكثر على حساب زوجها. لكن أنا مجرد حبيب سابق وهو زوجها أمام الله والناس كيف لي أن أكون سببا في تفريق زوجين بشرع الله، لا لن أفعلها لعل الله يهدي زوجها، وحماتها ويرجعانها وتعود إلى حياتها، لا أريدها أن تفكر بالطلاق بسببي، فالحب مهما كبر لابد أن لا يكون سببا في غضب الله.

الحب ليس هو أن نمتلك من نحب بأي وسيلة كانت وأن نستغل فرصة كهذه للتدخل بينهما!.

الحب مفهومه اعمق من هذا بكثير، لو جاءني خبرٌ بأنها سعيدة في حياتها معه لكنت فرحت جدا، واحترمت زوجها لانه فعل الذي كنت أنوي فعله. أختاه..الحب عطاء، أكثر من كونه أخذ.

الحب هبة من الله، ولا يُزهر بمعصيته..

هكذا فهمت الحب منذ صغري، أذكر يوما جلبت خالتي قميصا جديدا وأعطته لامي وقالت هذا لاحد اولادكِ ثم ذهبت، كان قميصا جميلا جدا كنت أحلم أن البسه وأذهب إلى المدرسة. لكن عندما أعطته امي لاخي ولبسه، ثم رأيت الفرحة ارتسمت على وجهه نسيت نفسي ونسيت حلمي، كان بامكاني أن أخذ القميص بأي وسيلة كانت..لكن منذ ذلك اليوم روضت نفسي على زرع البسمة على وجه الاخرين والفرح لفرحهم ولو كان على حساب فرحتي.

لربما تقولين وما قيمة القميص امام خسارتك ليافا، فاقول لكِ إن

القيم والمبادئ لا ينزلان بوحي من السماء على قلوبنا، إن لم نبنيهما في صغار المواقف لن نستطيع ان نسلّها من الغمد في مثل هذه المواقف، ونقطع بهما كل شيء منافٍ للاخلاق.

ومن قال لكِ أن الفرحة منازل، الفرحة قيمة غير قابلة للقياس، ففرحة الطفل بلعبة قيمتها دراهم معدودة هي نفسها فرحة الفقير عندما يربح جائزة بملايين الدراهم. هي أحاسيس تملأ صدورنا، دون النظر إلى قيمة الاشياء المسببة.

ـ ليت الجميع يفكرون مثلك، إذن لن تراسلها؟.

ـ أخبرتكِ بأعذاري، لكنني أطلب منكِ شيئاً إن سمحتِ لي..

ـ تفضل.

ـ أريدكِ أن تنقلي لي ما يحصل لها بعد اليوم، وبالاخص في هذه المشكلة التي هي فيها لكن دون أن تعلم أرجوكِ.

ـ إن شاء الله سأفعل، أنت تستحق كل خير.

كنت أظن وانا أضع أساسات النسيان، لعل جراح قلبي تستكين، وبأنني قد وضعت احدى قدماي في الطريق الذي لا عودة فيه.. ثم أتى ذكرها كالسيل الذي جرف امامه كل أثر لما نويت بناءه، ويعود الانتظار من جديد ليعلن أن إشاعة موته كان محض دعاية انتخابية لأزلام النسيان!

هكذا تحول داخلي إلى نزاعات بين الذكريات والنسيان والانتظار، كما حال بلدي كل واحد منهم يكفّر الآخر ويستبيح دمه وماله!. كم من مرة فجّرت الذكريات مفخخاتها في لحظة غفلة من النسيان وهو يبتسم.

أنا لم أعد أسيطر على نفسي، قالوا أن كثرة الضرب يقسي الحديد.

لكن قلوبنا ليست حديدا، كثرة الضرب عليها يوسع من حجمها فتصبح أكثر سعة للحزن ويجعلها تبكي وتتألم لأي موقف كان!.

أصبحت كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، كلما نسجت نسياها في قلبي جاء ذكرها فنقضَ غزلي!.

وبقيت أفكر، يا ربي هل ما قُسِمَ لي من هذه الفتاة هو الحزن فقط؟.

بعدما لم يكن يفصلنا عن بعض سوى كلمة واحدة من أبيها، كنت قد ظننت حينها أني قصمت ظهر الحزن بصبري كل تلك السنين، وأن ذلك اليوم هو يوم إعلان النصر وهدم كل ألم عمّرته السنين العجاف، يوم انتصار الثورة وهدم صنم الدكتاتورية الذي حكم قلبي وملأت ازقته بلافتات الموت وشعارات التعصب، ليحل محلها باقات الورود وشعارات الحياة لكن... ذهبت أمنياتي أدراج النياح..

وباتت تلك الكلمة حبيسة صدره، وهي تصرخ لا تحمّل عليَّ هذا العار، لا تجعلني سببا لفراق قلبين ذابا شوقا للقاء.

أخرجني من هذا الفضاء..

لأصدع أذان تتوق سماع صوتي في الغناء.

لكن الذي لا يبالي بكل هذه المشاعر كيف له ان يشعر بكِ أيتها الكلمة!.

لا داعي للصراخ..

استكيني فليقل ما يشاء..

ستخرجين يوما ما، رغما عنه..

لم أقنط من رحمة الله، كوني كما أنا..

أعتني بنفسكِ جيدا..

لا أريد رؤية هذا الحزن على وجهك..

أنتِ كيافا..

لم يُخلق الحزن لوجهيكما..

مرت الايام، وأنا انتظر مريم كل يوم لساعات متأخرة من الليل لعلها ترسل لي خبرا عن يافا فتخيل الدموع في عينيها أرهقني، أليس كفرا أن تدمع تلك العيون ألماً وحسرة!.

أين أنتِ يا مريم ألا تحملين خبر عودتها إلى زوجها، فتريحي قلبي من حزن وتتركي فيه حزنا خفيا مطمورا في الاعماق.. كأنها كانت تسمع ما يدور في داخلي ليلتها، وانا أنتظرها كالعادة..

ـ مرحباً، كيف حالك.

ـ خفق القلب فجأة، واحمر الوجه بدون إرادة، أهلا مريم، الحمدلله بخير، كيف أنتِ وحال يافا؟.

ـ الحمدلله تمام، يافا بخير، لكنها لا تكفُ عن ذكرك..

ـ يا حبيبة قلبي، أخبريني ما حل بقضيتها، ألم يرجعوها؟.

ـ القضية كبرت يا يوسف.

ـ ماذا حصل؟ تكلمي بسرعة؟..

ـ قبل ثلاثة أيام جاء تبليغ إلى يافا لحضور المحكمة..

ـ ماذا تقولين، أيعقل هذا؟.

ـ لقد أخذوا أوراق الفحص والتحاليل للقاضي، واشتكوا عليهم لإخفاء مرضها.

وهي تتكلم عن الشكوى لا أدري لماذا تذكرت شكوة أبيها عليّ في أول أيام حبي ليافا!.

أكملت:

ـ تقول يافا ذهبنا يوم الحضور إلى المحكمة، كان زوجي وأهله قد حضروا قبلنا، كانت نظراتهم تقطر شرراً كما السكين عندما يشحذ بحجر الصوان.

بعد دقائق سمح القاضي بدخولي معه فقط، سألني أولاً:

ـ لماذا لم تخبريه بمرضك يا إبنتي؟.

ـ قلت له ما قلت لحماتي يومها.

رجع إليه..

ـ وانت بعدما سمعت قولها، ماذا تقول؟.

ـ يا سيدي، أنهم عمدوا إخفاء المرض، وهذا يعتبر خداعاً، أنا أطلب منك أن تعيد لي منهم كل تكاليف زواجي.

فكّر القاضي قليلاً، ثم قال، يتأجل النظر إلى قضيتكما إلى السادس والعشرين من شهر كانون الاول القادم، إنتهى.

ـ يبدوا أن القاضي، قد أعطاهم مهلة للتفكير قبل الحكم.

ـ تماماً، وانا أيضا قلت لها ذلك، لكن يافا عازمة على الطلاق، وتقول إن لم يطلقني سأطلب الخُلع واتنازل له عن كل شيء، كيف لي أن أعيش معه بعد اليوم.

على الرغم من الغرابة الشديد من أن يطّلق شخص زوجته من أجل قضية كهذه إلا أنه لا يمكن لومه، فلكل إنسان قناعته، لربما ليس المرض نفسه هو الذي جعله يقرر هذا، لربما شعوره أنه قد ضُحك عليه وأنه يجب أن ينتقم منهم، وأن لا يقبل بالامر الواقع الذي يظن أنه فرض عليه، كل شيء متوقع، بعض القرارات التي نراها غير عقلانية، يروها غيرنا عين العقل.

ـ ماذا ستفعل إذا طُلقت يافا؟ هل سترسل لخطبتها من جديد؟.

ـ الامر مبكر لهذا الكلام أختي، لعل الله ينزل رحمته على قلوبهم وتنتهي القصة ويرجعان إلى بعضهما، أغلب الزيجات تحدث المشاكل في بدايتها ثم تُحل ويعودان ليعيشا العمر كله سوية.

كنت أقول هذا الكلام خشية أن تنقل قولي هذا إليها، لذلك لم أرد ان أعطيها أملاً مني كل همّي أن لا أكون جزءا من الطلاق، ولو كان الامر يوحي بأن قضيتهما محسومة.

ـ أنا أحبها كثيرا وأريد ان تكون سعيدة، ولا أرى سعادتها الا معك.

ـ شكرا لكِ أختي.

ـ عفوا، سأذهب الآن وإن حصل شيء سأخبرك إن شاء الله.

ـ شكرا مرة أخرى.

الحلم..

كان تاريخ حضور المحكمة هو الحادي عشر من تشرين الثاني سنة 2015، ومريم تحدثت معي بعد عدة ايام من يوم الحضور، والآن هناك أكثر من شهر على الموعد القادم والحاسم إما يُقررا الرجوع،

أو أنهما سينفصلان.

لكن التقاليد السائدة في مثل هذه المشاكل الزوجية تتم بتدخل أصحاب العقول من العائلتين لحل القضية دون الوصول إلى المحاكم، حتى أن الله سبحانه وتعالى ذكر ذلك في كتابه العزيز «وإن خفتم شقاق بينهما فأبعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها».

كيف أوصلوا القضية إلى هذه النقطة بكل تلك العُجالة، وقتلوا كل أمل لاستمرار تلك العلاقة الزوجية التي لم تتعدى الشهر الاول من ولادتها.

ومن ثم فإن نظرة مجتمعنا للمطلقة نظرة بائسة جدا، وإن كانت مظلومة في ذلك!. فهي وحدها من تتحمل تبعات ذلك الزواج الفاشل، أما طليقها فلن يجد أي مشكلة في أن يتزوج من جديد، والناس ليس لديهم أي مانع من أن يزوجوا بناتهم من مطلق، لكن الجريمة الكبرى أن يزوجوا لأحد أبنائهم مطلقة!.

هنا تظهر الازدواجية التي يعيشها مجتمعنا، والحقيقة أن الرجل الذي قد مرَّ بتجربة الطلاق وكان هو صاحب القرار في ذلك، يجب أن يحسب له ألف حساب قبل الموافقة عليه، فهو قد جرب ذلك مرة ألا يمكن أن يجرب ثانيةً؟.

هكذا تجري الامور في أغلب مجتمعاتنا العربية، وثم نتعجب ونقول لماذا وصلنا إلى هذه المرحلة، وتأخرنا عن الامم؟، لم يقتصر تأخرنا عنهم على التطور التكنولوجي فقط ولو كان الامر كذلك لكان هيناً جداً.

لكن الدمار الاكبر أننا متأخرون عن الامم بفكرنا البائس وبمقاييسنا المزدوجة وبنظرتنا الاحادية من تلك الزوايا الضيقة.

ساد الهدوء تلك الفترة، وكأن الجميع بانتظار يوم الحضور الثاني للمحكمة، ولا يوجد اي تغيير في رأي احد، ولا حتى تدخلات جانبية من الاقرباء لحل المشكلة، يبدوا أن زوجها وأهله متيقنون أن الحق معهم وأن القاضي سيحكم لصالحهم.

في كل تلك المدة كان قلبي يتمزق على يافا، كيف لتلك الفتاة الرقيقة ان يصل الحال بها إلى المحاكم!.. كيف ستحمل إسمها لقب «المطلقة «وهي في عمر الزهور، آه يا حبيبتي ماذا فعلوا بك.

أتمنى لو كان بإمكاني أن أرى وجه أبيكِ لأقول له أهذا الذي فضلته علي، هذا الذي لا يلقي لحزن إبنتك إلاً ولا ذمة، أهذا هو ابن جلدتكم ومن مستواكم!.

لكنني لن أستطيع أن أقول لك أنك تستحق كل ما يحصل لك،

ليس من اجلك بل من أجل تلك البريئة التي كانت ضحية خطأك، متى ستفهمون أيها الاباء أن لكل زمان أحكامه.

الامام علي رضي الله عنه يقول «لا تربوا أولادكم كما رباكم آباؤكم، فقد خلقوا لزمان غير زمانكم».

فإن تزوجت زواجا تقليديا هذا لا يعني أن أولادك يجب أن يفعلوا مثلك والا سيفشلوا!.

واذا كنت طبيبا او مهندسا لا يجب ان يكون أولادك أطباء او مهندسين حتى يُعتبروا ناجحين!.

فقناعاتك ليست دستورا على اولادك، وليست بالضرورة أنها صحيحة وقابلة للتطبيق في كل زمان، وأنت كما كنت تضجر من بعض قرارات والدك وانها لا تناسب زمانك، فها أنت تعيد نفس الكرّة على أولادك، أليس هذا تناقضاً يستحق أن تقف عنده؟.

حلّ يوم المحكمة، والذي كان يصادف يوم السبت، كنت قد تأخرت في النوم ليلتها، الارق والتفكير أخذا مني مأخذاً، سهرت إلى حين صلاة الفجر، صليت ثم دعوت الله أن يسهل أمرها، وأن يخلصها مما هي فيه.

ثم لا أدري كيف نمت إلى ما بعد الظهر، إستيقظتُ على صوت موسيقى بائع الغاز، الشيء المضحك أن موسيقاه أجمل من نغمة هاتفي، لا أدري إن كان هذا ذوقه أم ذوق البلدية!.

فتحت الهاتف لعل مريم قد ارسلت شيئا، لكنها لم تفعل، إنتظرتها والهاتف في يدي أفتحه كل دقيقة لاتأكد من وصول رسالة منها، ثم

أغلقه، على الرغم من أن الهاتف يصدر صوتا اذا وصلته رسالة، لكن كيف أن أقتل كل ذلك التوتر والانتظار!.

قُبيل المغرب، وبينما انا اتصفح الفيسبوك، جاءتني رسالة من مريم، وتكرر خفقان القلب كالعادة، وبدأ الجمود الجسدي وزيادة ضربات القلب

ـ مرحبا، كيف حالك.

ـ قولي لي ماذا حصل تكلمي بسرعة؟.

ـ رد المرحبا اولاً، ما بك، أهكذا الحب يفعل بالرجال!.

ـ ليس الوقت مناسبا لسخريتكِ، تكلمي بسرعة.

ـ لقد إنفصلا، وانتهت القضية.

ـ كيف، كيف إنفصلا، لم أفهم تكلمي بالتفصيل.

ـ تقول يافا، دخلنا إلى القاضي وأعاد نفس السؤال عليَّ وعليه، وأجبنا نفس الاجابات ثم نظر اليه وقال، أن مرضها لا يستوجب الطلاق وهي ليست مريضة بمرض خبيث حتى نقول أنهم قد خدعوك او كذبوا عليك أرجعها إلى بيتك لا يحق لك أن تطالب بالانفصال مع التعويض، إن أردت الطلاق فستدفع المؤخر لها أيضا.

هنا، صُدم هو بكلام القاضي، يا سيدي هؤلاء يكذبون مرضها مزمن وتحتاج إلى طبيب على الدوام.

علمت أن القاضي ضغط عليه لكي يتراجع عن قراره، لكنني قلت له، إن سمحت لي بالكلام يا سيدي، أومأ برأسه تفضلي.

أنا اتنازل عن المؤخر وعن كل شيء فقط اريد ان انفصل، لا أستطيع ان أكمل حياتي معه اطلاقا. نظر القاضي اليه، ما تعليقك على كلامها؟.

قال موافق سيدي.

فطلقني على شرط تنازلي عن كل شيء، وخرجنا من المحكمة، وكأن حملاً ثقيلاً أزيح عن كاهلي، شعرت أن كل تلك الايام كانت كابوساً حتى انني لا أريد أن أفكر فيها ولا أريد ان أتذكر منها شيئاً.

ـ الحمدلله، البارحة كنت أدعو الله ان يخلصها الله من كل الهموم، الحمدلله دائما وابداً.

ـ والآن أيها العاشق الولهان، هل ستعود إليها؟.

ـ القضية ليست بحاجة إلى سؤال، لكن المشكلة ليست هنا.

ـ أين المشكلة إذن؟.

ـ المشكلة، كيف سأفاتح أهلي بالامر، ما هي ردّة فعلهم، بعدما رفضونا من قبل كيف لي أن أقول لهم أذهبوا لخطبتها مرة أخرى، ألآن هي أصبحت مطلقة، انا خائف من ردة فعلهم كثيرا.

لكنني سأحاول بدون شك، والوقت أمامي مادامت قد دخلت في العدة سأستغل الوقت وأفاتحهم بالامر ان شاء الله.

ـ سأخبر يافا بالامر، مع أنها ستلومني كثيرا على مراسلتي لك كل تلك الفترة بدون علمها لكنها بحاجة للفرح، نعم هي فَرِحة من خلاصها منه لكنها حزينة في نفس الوقت لانها أصبحت مطلقة.

ـ بالله عليكِ، ألم تخبري يافا عن ما كان يجري بيننا قبل طلاقها؟

ـ لا والله لم أقل لها، قلت لك أنها ستلومني كثيرا إن أخبرتها عن هذا، لكنها ستتفهم الامر بالتأكيد.

ـ أوصليها سلامي وقولي لها، إن الحب أقوى من أي مرض وأقوى من تلك الكلمة البائسة «مطلقة»، سأفعل أي شيء حتى نكون سوية.

ـ الله الله، ربي يجمعكم مع بعض، أرجو الله يبعث لي شخصاً مثلك.

ـ شكراً لكِ.. أمين

تغير كل شيء بعد هذه المحادثة، وأصبح جلُّ تفكيري أصبح كيف سأفاتح أمي وأخي الكبير بالموضوع، كيف ستكون ردّة فعلهم؟، فأمي تُلمح لي دائما عن أبنة خالتي في كل مرة أتحدث معها.

تشابكت القصة عليّ، بالرغم من فرحي الشديد بإمكانية تحقيق الحلم من جديد كان هاجس الخوف يدور حول أهلي هذه المرة، وتعود سلسلة العقبات لتكمل حلقاتها، في كل مرة تخرج أمامي عقبة عندما أتقرب منها، متى ستنتهي هذه العقبات، وتنتهي الحواجز ياربِّ؟. متى أرسل لخطبتها والكل موافقون، كما يحصل لأغلب البشر؟ متى نكون سوية مع بعض، متى؟..

يا رب أنت تعلم ما في نفسي، وتعلم صدق حبي لها، كن معي هذه المرة. فكّرت مليّا بمن أبدأ من أهلي، فتجربة إخبارهم بمكالمة جماعية ستكون عواقبها وخيمة حتى الذي لا يمانع، لربما يفكر بالرفض من سماعه للبقية.

كان الخيار الأمثل أن أفتح الموضوع مع أختي الكبيرة، فهي أمي

الثانية، وهي التي كانت تعتني بي وقت أنشغال أمي عنّي في الصغر، ومن ناحية أخرى شخصيتها هادئة وتتقبل أي فكرة كانت وتتناقش بهدوء، اذا إقتنعت لربما ستؤثر في رأي أمي الأكثر تخويفاً بالنسبة لي. ولن أستطيع أن أتزوج وأمي غير راضية عن زواجي، فهي التي كرست حياتها من أجلنا منذ يوم وفاة أبي قبل أكثر من عشرين سنة.

بعدها بأيام أرسلتُ رسالة إلى أختي، أسألها عن حالهم في الموصل، وعن أوضاع المدينة التي ما زالت تحت حكم داعش منذ العاشر من حزيران من العام الماضي، السبب الذي يجعلني لا أستطيع الذهاب للمدينة، لأحلّ القضية بنفسي وأواجههم، لان المدينة محاصرة من كل الجهات، والحرب قائمة بين داعش والجيش العراقي منذ سقوطها بأيديهم، والحياة فيها متوقفة من ناحية التعليم واغلب الدوائر الحكومية، والتجارة شبه ميتة، الناس يأكلون فقط ليستمروا بالحياة، فلا شيء يتقدم بهم سوى العمر!.

ردّت:

ـ أهلا أخي، نحن بخير والحمدلله، الوضع مخيف، الطائرات لا تهدأ في قصفها، البارحة قصفت الطائرة مركزا لداعش وكان بقربه بيت قضت فيه عائلة بأكملها حتفهم تحت الانقاض، لا تخف بيتنا بعيد عن اماكن وجودهم، أخبرني كيف حالك أنت؟.

ـ أنا بخير والحمدلله، سكتُ بعد الرسالة قليلاً.

ـ ما بك قد سكت؟ هل هناك شيء تخفيه عنّي؟.

سبحان الله، كيف عرفت وهي لا ترى وجهي. ارسلت لها «ملصق الوجه الخجول «الموجود في المسنجر.

ـ هل يوجد أحد بقربكِ ، أريد أن أخبركِ سرّاً؟.

ـ لا يوجد أحد تكلم.

ـ يافا.

ـ ما بها؟ ألم تتزوج؟.

ـ بلى، لكنها الآن مطلقة.

ـ متى تزوجت حتى تتطلق بهذه السرعة، وأنت من أين علمت بذلك لا تقل لي أنك كنت تراسلها حتى الآن؟.

ـ على رِسلك، لم نتراسل منذ يوم خِطبتها، لكن صديقتها أرسلت لي وقالت أنها قد تطلقت قبل مدة.

ـ وإن يكن، ما المهم في الأمر؟. لا تقل لي أنك تفكر بها بعد كل ما حصل.

ـ أرسلتُ لها «ملصق الوجه الخجول «مرة أخرى، وقلت نعم.

ـ أتعي ما تقوله؟!.

أتعلم لو سمعت أمك ذلك ماذا سيكون ردّة فعلها، ما بك لقد طردونا من باب بيتهم، يوم ذهبت أخر مرة اليهم، أنسيت كل ذلك، كيف لنا أن نذهب إليهم مرة أخرى؟!.

ـ أحبها يا أختي، والله أحبها، هي لم تطردكم ما ذنبها، لا تحملوا

عليها ذنب أهلها فهي كانت تريديني لكنها لم تستطع إقناعهم، أرجوكِ أختي أنت أملي في حصولي عليها هذه المرة، قِفي معي أرجوكِ سكتت قليلا، أحسست أنها تأثرت، ثم أرسلت:

ـ لم تقل لي ما سبب طلاقها؟.

ـ لانها مريضة بالربو المزمن.

ـ بسبب الربو!.

ـ نعم يا أختي، لعلها من نصيبي فعادت لي.

ـ كان الله بعونها، لكن فلنفرض انني تقبلت الامر، كيف ستقتنع أمي، أنت تعلم انها تريد لك إحدى بنات خالتك، الامر صعب جدا.

ـ إن وقفتي بجانبي سيكون موقفي أمامها أفضل، إفعليها من أجل أخوك أرجوكِ

سكتت مرة أخرى.

ـ بماذا تفكرين، ألامر ليس بهذه الصعوبة.

ـ أخي هذه حياتك، وأنت ستعيش معها ولسنا نحن، إن كنت تريدها إلى هذا الحد فأنا معك، وسأحاول أن أجد الفرصة المناسبة لفتح الموضوع معهم، لعلي أستطيع فعل شيء لكنني لا أعدك بإقناعهم، سأحاول فقط.

ـ أنتِ أحلى واجمل أخت في الدنيا، أريد أن اخرج من الهاتف وأقبل من جبينكِ، لن أنسى وقفتكِ هذه طول عمري.

ـ فرحتك هذه كافية أخي، كنت أتمنى أن تكون لك قبل أن تصل الحال بها إلى هنا، لكن أهلها، سامحهم الله دمروا حياتها وأصبحت مطلقة وهي في هذا العمر، كان الله في عونها.

ـ حفظكِ الله يا أختي، لا أدري ما أقول، لم أتخيل أنكِ ستقتنعين بهذه السهولة.

ـ مادامت هذه حياتك، فأنت حر في شريكتك فيها، وأنا لن أكون عقبة أمامك ابدا. لا تفكر كثيرا، سأفتح الموضوع في الوقت المناسب، سأذهب الآن، إنتظر الجواب مني ان شاء.

حضنت الهاتف بعد المحادثة، وكأن قلبي طفل يتيم وقد إبتسم أحدهم في وجهه، الفرحة كانت غامرة، كالغيث الذي يحي الارض القاحلة بعد موتها، إحساس غريب وكأن المشاعر كسرت اضرابها عن الفرح الذي دام سنين عدة، ليعم الفرح في كل أرجاء الجسد، حتى ان طعم التنفس قد تغير، الهواء يصل كل أرجاء جسمي حتى أشعر به وهو يصل إلى نهايات أصابع يدي وقدمي!.

وكما المصائب لا تأتي فُرادا، الفرح كذلك لا يأتي لوحده، هكذا لا أحد يعلم لماذا!.

في حين غفلة فرحٍ بالذي جرى بيني وبين أختي، رنَّ الهاتف في يدي، فتحته

ـ مرحبا حبيبي كيف حالك؟.

صدمت للوهلة الاولى، كنت مستلقيا فجلست، إنها يافا.

ـ أهلا حبيبتي، الآن أصبحت بخير، كيف حالك أنتِ؟.

ـ لو تعلم كم انا مشتاقة إليك، كل ما حصل ويحصل لي أنساه حين أفكر بك.

ـ حبيبتي شوقي إليك لا توجد كلمة تتحمل ثقله ومعناه، سماع إسمك يهز كياني فكيف برسالة منك!، كيف لو رأيتكِ أمامي، لا أظنني أقوى على الوقوف هذا إن لم يُغشى علي.

ـ سلامتك حبيبي.

ـ قولي لي كيف أصبحتِ بعد الذي حصل؟.

ـ همّ وأزيح عن كاهلي، كان كابوسا مزعجاً، لا أريد أن أتذكر منه شيئاً، قلبي ينقبض حين أتذكر تلك الايام.

ـ الحمدلله، سأخبركِ بشيء جميل، قبل قليل كنت أتحدث مع أختي عنكِ، وأخبرتها أنني أريدك مرة أخرى، رفضت الفكرة بالبداية لكنها أقتنعت في الاخير.

ـ لا أصدق، هل سترسل أهلك من جديد؟.

ـ وماذا برأيك، أتظنين بأنني سأترككِ لأنك مطلقة أو مريضة؟!.

ـ لا أظنك تفكّر هكذا، أتعلم أنت مصدر السعادة في حياتي؟، كم انا محظوظة بك ليتني أستطيع أن أرد شيئا بسيطاً لما فعلته وتفعله من أجلي.

ـ الحب يا حبيبتي ليس بهذا المفهوم، ليس أن نعطي بقدر ما نأخذ، الحب عطاء دون قيد دون حساب، دون مِنّة، كيف يَمُنُّ الانسان على نفسه!، أنا أنتِ وأنتِ أنا.

إن كنتِ تريدين أن تردّي لي شيئاً، فعِديني أن لا تنزل دمعة من تلك العيون الجميلة بعد اليوم، لا شيء أرهق قلبي أكثر من تخيل الدموع في عينيك أيام كابوسك.

ـ أعدك أن لا تدمعا بعد اليوم.

ـ يوسف.

ـ يا روح يوسف.

ـ «أحبك حتى الموت».

ـ «أحبكِ حتى الجنة، الموت لن يفرقنا».

ـ متى سأتمكن من التغلب عليك، انت تغلبني في كل شيء!.

ـ وتتكلمين عن الغَلَبة، من التي أسرت قلبي من اول نظرة؟!، من التي وضعتني في سجنٍ لا قيد فيه ولا سجّان، أنا الذي أغلقت الباب على نفسي، وأعلنت هزيمتي، أنا حرٌ في سجنك، أسير خارجه، أليست هذه الغلبة والتمكين بعينه.

ـ يا لكَ من لغوي مبين.

ـ أنا غوي، سامحك الله.

ـ لغوي، بضم اللام وليس بفتحه، يا عاشق الضاد.

ـ الاحرف ليست محرَّكة، لا تعيرينني بعشقي للغة العربية، يا ماكرة.

ـ وقعت في الفخ أيها الشاطر.

ـ ليتني أقع في فخ حياتك ولا أخرج منها طول العمر.

ـ إن شاء الله، هذه المرة سنكون مع بعضنا لا شيء سيفرقنا..

ما أجمل اللحظات التي نتحدث فيها مع من نحب، لحظات أشبه بالحلم الذي لا يكترث بالوقت ولا يتقيد بالمكان، حتى قال أحدهم..

رأيتها في المنام..

ثم ماذا؟..

تمنيت أن يحل بي ما حلَّ بأهل الكهف..

على الرغم من أن أهل الكهف لبثوا ثلاث مائة سنة، إلا أنهم حين بُعثوا قال أحدهم كم لبثتم؟، قالوا لبثنا يوما او بعض يوم!.

وكأن لحظاتنا مع من نحب ولحظات النوم، أحاسيس من رحم أم واحدة حتى أصبحنا لا نشعر بها.

ترى المحبين صرعى في ديارهمُ، كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا!.

وانا غارق في أحلام اليقظة، والابتسامة على وجهي، أيقظني منبه الجوع لقد مرّت ساعتان على وقت عشائي المعتاد. كان الطقس بارداً، فنحن في منتصف الشتاء، لبست ما أستطيع أن أقي به جسمي من البرد وخرجت إلى المحلات القريبة من مكان مبيتي، منظر السيارات المتراصة خلف بعضها وأضوائها الحمراء الخلفية والدخان المتصاعد من عوادمها، كانت كلوحة فنية قضى فنان عمره وهو يرسمها، لا أدري كان كل شيء مختلف في ذلك اليوم.

هل كان الحزن قد أعمى بصري، عن كل هذه المشاهد!. كنت أخرج كل يوم هنا، لما لم أشعر بهذا من ذي قبل!. حينها ادركت أننا لا نرى

بأعيننا، وإنما نرى بقلوبنا، وقلوبنا ترى حسب ما تشعر به، الحزن يعميها او بالاحرى يبهّت المناظر من حولها، والفرح يجعلها أكثر وضوحا وبهجة، كما اليوم!.

لفت إنتباهي مطعم صغير مكتظ بالناس، وأبخرة الافواه تتصاعد مجتمعة، كأنها تأثيرات تصويرية لمشهد مسلسلٍ تاريخي، وسيخ شاورما مرصوف عليه اللحم كساق نخلة عمرها مائة سنة، كان الموجودون هناك يأكلون بشراهة، مما زاد الجوع جوعا. وصلت اليهم، إستقبلني شاب وسيم بابتسامة، ثم قال لي باللهجة السورية المحببة «تفضل استاز شو طلبك»، إثنان شاورما اذا سمحت مع كوب لبن، «تكرم عينك»، شكراً.

أكلتُ وجبة العشاء تلك، ومع إنتهائي بدأت زخات من المطر تهطل، كان جواً رومانسياً حد الجنون، كان ينقصه يافا فقط، كي نتسابق تحت المطر وأمسك بيديها ونرقص سوية وننشد سوية قصيدة السياب..

مطر، مطر، مطر..

أتعلمين أيَّ حُزْنٍ يبعث المطر؟.

وكيف تنشج المزاريب إِذا انهمر؟.

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضّياع؟.

بلا انتهاء ـ كالدَّم المراق، كالجياع،

كالحبّ، كالأطفال، كالموتى ـ هو المطر!..

آهٍ يا حبيبتي، كل شيء يصبح جميلاً عندما تكونين جزءا منه، حتى لو كان طيف إبتسامتك، فكيف بي إن كنتِ امامي؟!.

مرت تلك الايام التي سجلها تاريخ حبنا من اسعد الايام، وبدا

التفاؤل يسود ويصدر إشارات أمل بأنها ستكون لي هذه المرة، بعدما فقدت الامل عندما أجّلت دراستها وقيل أنها ستتزوج ومن ثم عندما رفضني والدها، وقديما قالوا «الثالثة ثابتة «فهل بحق هي كذلك، أم هي من الموروث الشعبي الذي يصيب مرةً ويخيب مراراً، لكن الناس تمسكوا بقصص الحدوث ونقلوها جيلا بعد جيل، وتغاضوا عن عدم حدوثها، ميلاً لتعلق القلوب بها، لا ندري.

كنت انتظر حينها رسالة من أختي، فقد مرّ وقت طويل في تقويم أيامي في الانتظار أرسلت إليها رسالة، لأجس النبض هل فتحت الموضوع معهم أم أنها تنتظر الوقت المناسب بعد.

ـ مرحبا، كيف حالكم أختي؟.

لم ترد، إنتظرتها نصف ساعة لكنها لم ترد، قلت لربما أنها مشغولة في البيت.بقيت هكذا حتى الليل، بينما أنا أريد ألخروج من البيت، رنَّ الهاتف، إنها أختي.

ـ ألو..

ـ أهلا يوسف، إعذرني لم أرد على رسالتك، كنت مشغولة جداً، إتصلت بأمي قبل قليل وسألت عنهم وعن أخبارهم هناك في أنقرة، ثم فتحت موضوعك معها.

ثم سكتتْ.

ـ أكملي، ماذا قالت؟.

ـ لا أدري ما أقول، كانت رافضة للفكرة تماما، حاولت أن أقنعها لكن دون جدوى.أ لم تتصل بك؟

ـ لا لم تفعل، سأتصل بها الآن.

ـ أخبرني بما يحصل بعد ما تنتهي من مكالمتك.

ـ إن شاء الله.

أغلقت المكالمة معها، وأتصلت مباشرة بأمي:

ـ ألو، كيف حالك أمي؟.

ـ أنا بخير يا ولدي، كيف حالك أنت؟.

ـ أنا بخير ما دمت أسمع صوتكِ، يا ست الحبايب.

ـ لقد أخبرتني أختك عن يافا، يا ولدي هل خليت الارض من البنات إلا هذه، هؤلاء الناس قد رفضوك ولم يزوجوها لك عندما كانت باكر، والآن بعدما أصبحت مطلقة تريد أن تتزوجها ماذا ينقصك لكي تتزوج من مطلقة؟.

ـ لكنني أحبها يا أمي، الأمر ليس بيدي، قلبي لا يريد غيرها.

ـ كيف تريدنا أن ندق بابهم من جديد، بأي وجه يستقبلوننا، أنا لست راضية عن هذا وإن تزوجتها، لن أحضر عرسك.

ـ أمي لا تقولي هذا، تعلمين أنّي لن أتزوج إلا برضاكِ، لكن ما ذنبها هي، فلنفرض أن أختي تطلقت هل نرضى أن تُعامل هكذا، ما ذنب المرأة إذا كان الرجل لا يستطيع تحمل مسؤولية بيته فيطلقها، ضعي نفسكِ مكانها، وافقي أرجوكِ.

ـ ولدي، أنا ربيتكم كل تلك السنين، بعد وفاة والدك وعانيت ما

عانيت حتى أوصلتكم إلى هذه المرحلة والآن تريد أن أزوجك إلى مطلقة، وبنت من؟. اؤلئك الذين رفضوك!.

ماذا نقول للأقارب كيف نواجه الناس، إنساها ولا تفكر فيها ابداً.

ـ أمي، أرجوك، أنا من سأعيش معها ليسوا أقاربي ولا الناس، إفهميني أرجوك.

ـ انتهى الامر، هذا رأيي، إن كنت تريدها، خذها لكن بغير رضاً مني.

ـ كما تريدين، أنا لن أتزوج إن لم تكوني راضية إطمئني، مع السلامة.

ـ لا تزعل يا حبيبي، لازلت صغيراً ولا تعلم عواقب هذا الزواج، أنا أمك هل هناك أحد يريد لك الخير أكثر مني؟.

ـ أعلم ذلك، ربي ما يحرمنا منك.

من جديد، في كل مرة يزداد إيماني أن هذا الحب مصاب بفيروس اسمه «رفض» نعم هكذا كلمة نكرة، لانها لا تأتِ من شخص معين، في كل مرة يختار أحدهم ثم يحضّر قضية ما، ثم يضعه حجر عثرة أمام إكتمال الامر!.

لكن لم ينتهِ الامر بعد، يجب أن أحاول معها من جديد، هي الآن في حالة صدمة لذلك لا جدوى من الالحاح كثيرا، سأطبخ ملحّتي عليها بنار هادئة، الوقت أمامي لان يافا لم تكمل العدة بعد، وقديماً قالو:

«قطرة الماء تثقب الحجر، لا بالعنف، لكن بتواصل السقوط».

لعلها إن رأت إلحاحي عليها، ستتنازل وتتقبل الفكرة، الفرصة أمامي، أهل يافا لا أعتقد أنهم سيرفضوني هذه المرة، موقفي أمامهم اذا

وافقت أمي موقف قوي، ويافا كذلك ستقف أمامهم إن حصل وأنهم رفضوا، العقبة الوحيدة هي أمي، مهما يكن فإقناعها لربما أسهل من أيّ عقبة سابقة، لكن عليّ الصبر قليلاً عليها.

مرّت الايام، وأنا في كل مكالمة مع أمي أفتح الموضوع لعلها تغّير رأيها لكن دون جدوى لم أعهدها هكذا من ذي قبل، لابد وأنها قد أعطت كلاما لخالتي، فكلما تحدثت عن يافا فتحت سيرة إبنة أختها، فأضطر إلى تغيير الموضوع!.

في المرة الاخيرة، قالت لي، لن أزوجك من مطلقة لا تتعب نفسك، وإن فتحت الموضوع مرة اخرى لن أكلمك بعد اليوم، ومن قال أنها طُلقت بسبب المرض، لعلهم يخفون شيئا آخراً، هم يستغلون حبك لها، حبها قد أعمى قلبك، انا متأكدة بأنك ستندم بعد الزواج لكنني لن أدعك تصل إلى مرحلة الندم، أخرجها من قلبك يا ولدي ولا تُتعب أمك، فقد كبرت وما عُدت أتحمل تصرفاتكم الطائشة أنت وأخوتك.

بدأت الامور تسوء على غير ما كنت أتوقع، وبدأ ذلك الشعور يعاود دق ناقوس الفقد.

ما أبشع الحب في مثل هذه المواقف، عندما يقف بين الأم والحبيبة، فلا تستطيع أن تُغضب من حملتك تسع شهور وكبّرتك وحرمت نفسها من كل شيء حتى أوصلتك إلى ما أنت فيه ولا بين من أسرت قلبك فبات لا ينبض إلا لها ولا حياة له إلا بها، هكذا تبقى ما بين بين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

بين سندان العقبات الصلدة ومطرقة الحب الموجعة..

أيُّ قلبٍ يتحمل هذا!..

خرجت صرخة من الاعماق، كفاكم إعتراضا، ألا ترأفون بحالي!.

هل إتفق الجميع على لعب دور الحاجب الذي يحول بيني وبينها، في مسلسل المأساة الذي صنعه أفكاركم في كل مرة!.

مالي ومال الناس..

مالي ومال الاقرباء والاصدقاء..

مالي وما لكم...

دعوني أختار من أريد..

متى تدخلت في قراراتكم!.

اعطوني حبيبتي وخذوا ما شئتم..

كلكم مثاليون في تصنع النصيحة بغير شأنكم، وعندما يعود الامر إليكم تفعلون ما تميل قلوبكم إليه!.

أليس هذا التناقض بعينه!..

لكن ما من سبيل، كل الناس يشكون من كلام الناس، ولا أدري من هؤلاء الناس الذين يشتكي منهم الناس!.

إختلطت الاوراق علينا، فأصبح كل منا يخاف من كلام الآخر..

أحيانا الكل يريد نفس الشيء، لكن كلهم يتجنبونه خوفا من كلام الناس!.

في مجتمع ما، العيب فيه أن تكمل البنت دراستها، وكان العيب فيه أيضا أن يكشف طبيب على محارمهم..

الكل كانوا مقتنعين أن الحل هو أن تكمل بناتهم الدراسة، لكن لا أحد منهم يستطيع كسر العيب الاول!.

لكن كيف تقبّلوا العيب الثاني؟.

ببساطة، أحدهم أضطر لذلك يوما ما، كاد أن يفقد احدى محارمه.

فأصبح الامر عاديا، والكل إتبعوه..

اذن الحل موجود، هو أن يتشجع أحدهم ويكسر الصنم في كل مرة..

للاسف ليس فيهم شجاع!.

يجب ان يضطر لذلك أحدهم، حتى يكسر الصنم وهو مُكره!.

إذن..

فليقبعوا في قعر الجحيم..

هم كذلك..

وسعداء جداً بذلك..

توقف العقل، لم تبقَ وسيلة إلا واستخدمتها، كي أقنعها لكن دون جدوى، بدى أن الاصرار لن ينفع معها، والصبر على وشك أن ينفذ.

لأول مرة يكون الرفض من جانبي، وليس من جانب يافا، منذ بداية حبي لها. إن لم أفعل شيئا سأخسرها للابد، القضية لا تحتمل أكثر من هذا. الأم مهما قست علينا في بعض الامور، تبقى أنثى خلقها الله كتلة من العواطف. والأمومة هي ارفع مراتب الانوثة، فيها تُظهر كامل طاقتها العاطفية التي فطرها الله عليها. لأجل ذلك هي لا تستطيع رؤيتنا نتألم في شيء وأن تكون وهي السبب ولو بشكل بسيط في ذلك فكيف إذا شعرت أنها السبب الرئيسي!.

لم يبقَ لي سبيل إلا أن ألعب على هذا الوتر الحساس، وتر العاطفة، إضافة إلى الغربة التي أعيشها بعيداً عنها، كلها ستصب في صالح الخطوة التي أنوي إليها أغلقت كل وسائل الاتصال بيني وبينهم عدة أيام، ومن ثم فتحت الهاتف وأرسلت رسالة إلى أختي:

ـ مرحبا أختي، كيف حالكِ؟.

ـ أهلا أخي، ما الذي حصل، هاتفك مغلق منذ أيام، قلقتُ عليك ما الأمر؟.

ـ كنت مريضاً، والآن تحسنت بعض الشيء.

ـ ولِمَ لـم تخبرنا، لماذا تخبئ عنا، كل هذا من أجل يافا، تعلم بأنّي قد فعلت كل ما بوسعي لكن أمي ليست راضية، وإن وافقتْ سأخطبها لك اليوم.

ـ لم تقصّري بشيء يا أختي، لكن أريدكِ أن لا تخبريها بمرضي أرجوكِ، سأرتاح قليلا الآن..

ـ إعتنِ بنفسك جيدا، خذ إجازة حتى تتحسن كليا، لا تذهب للعمل.

ـ إن شاء الله.

مرت ساعة بعد المحادثة، فجأة أتصلت بي أمي، أدركت أن أختي قد أخبرتها بالذي جرى بيني وبينها قبل ساعة، كما كنت أتوقع.

ـ ألو، أهلا أمي كيف حالك ؟.

ـ أنا بخير، هل صحيح أنك مريض يا حبيبي؟.

ـ لا، من قال لكِ ذلك؟.

ـ أإلى هذا الحد قد وصل بك الحال، كل هذا من أجل يافا، هل تحسب أن يهون عليَّ ذلك وأن أكون سببا في حزنك!.

كل ما أردته كان لمصلحتك، وهذا الزواج ليس من مصلحتك، لكن مادُمتَ تريدها إلى هذا الحد، وأصبحت تخفي عنا ما يحصل لك، لن أرضَ بهذا، أنا موافقة على زواجك منها.

ـ ماذا، ماذا؟؟.

ـ موافقة، هل المرض أثر على سمعك..

ـ لا أصدق، أيعقل هذا، لم يبقَ عائق امامي إليها!.

ـ لا بل صدّق، حتى أنني أخبرت أختك أن تتجهز لتذهب إليهم.

عندما سمعت ما قالته صرخت صرخة بأعلى صوتي، هيييي.

ـ ألست مريضا؟!.

ـ ها، بلى بلى، ااااخ رأسي..

ـ يا لك من مشاكس، ماذا أفعل، لقد كبرت وأصبحتُ لا أقدر عليكم.

ـ من قال ذلك، ما زلتِ شابة، لا تقلقي سأزوجكِ من شاب تركي..

ـ أسكت، وإلا تراجعت عن قراري.

ـ لا لا سوف أسكت، كل شيء الا هذا.

ـ تكلم مع أختك واتفق معها على الوقت المناسب.

ـ حاضر، يا روح الروح أنتِ.

لم أكن أتصور أن تنجح خطتي بهذه السهولة، لكن هذه هي الأم، لا

غرابة في ذلك.تكلمت مع أختي وإتفقنا أن تذهب إلى بيت يافا في اليوم التالي، مبدئياً لنرى ردة فعل أهلها، بعد كل ما حصل.

لم أخبر يافا بذهاب أختي إليهم، أردت أن أفاجأها بذلك، فالعنوان لدى أختي من المرة السابقة، لا أحتاج إلى معلومات منها.

بدت الامور كأنها فرجت لاول مرة، أصابني شيء من الخوف ليس في العادة أن يُسهّل أمرنا هكذا!، أحسست بالفعل أنها ليست طبيعية، لا أدري هل كانت حالة نفسية أم ماذا!.

يمكن مقارنة هذا الشعور بوضع العراق الحالي، أي بعد الاحتلال، أصبح من الطبيعي أن تنفجر في كل يوم سيارة مفخخة هنا وعبوة ناسفة هناك والقتلى في الشوارع كالقطط!. حتى إذا مرَّ يومٌ ولم تنفجر سيارة مفخخة أو عبوة ناسفة، شعرنا أن هناك خللاً في الوضع الأمني!. أصبح الطبيعي غير طبيعياً، جراء ما يحصل في البلاد من خراب ودمار للاسف.

صليتُ لله، أن لا يخرج عائق أمامي في هذه المرة، تعبت بالفعل تعبت، حتى أنني لم أبالغ في الفرحة، حبست أنفاسي رفقا بقلبي الذي بات لا يتحمل صدمة أخرى، فرحة منشوبة بخوف وترقب، وأفكار تأخذني هنا وهناك هل سيتحقق الحلم؟.

حلم السنين وتكون يافا لي، لي انا كم سيكون أمراً جميلا إن حصل هذا يالا سعادة قلبي.

ماذا لو لم يقف كل هؤلاء أمامنا، وكنّا سوية من أول أيام حبنا؟!..

ماذا الذي يضير الناس إن تزوج كل حبيب حبيبته!..

تقول لو كان كذلك، لما استمتعت بقراءة قصة حبٍ ولا شعر غزلٍ من عاشق متيم ولم، نكن لِنسمع بقيس وليلى ولا كثيّر وعزة، فالحب مادته الفراق والبعد. مالنا ولقصص الحب، ومن قال أن قيس كان يفضّل أن يُخلَّد ذكره على أن يخسر ليلى!.

الحياة قصيرة دعونا نعيشها مع من نحب، حباً بالله.

حلَّ اليوم الموعود، كانت عقارب الساعة مضربة عن الدوران في تقدمها، كعادة أيام الانتظار. لا أدري هل العقارب تخجل عندما نراقبها، فتخفف من سرعتها!. وعندما نغفل عنها تعود لطبيعتها، واذا تأكدت أننا في حالة فرح إستغلت الفرصة لتعوض البطء أيام خجلها، فتصبح الساعة دقيقة والدقيقة ثانية!.

غريب أمرها فعلاً، وكأنها قد تحالفت ضدنا، ولا يُسعدها فرحنا وتنتقم منا أيام حزننا فتتباطأ لكي تجعلنا نعيش كل تفاصيل الألم على أقل من مهلها!. لكنها في النهاية ستمضي في دورانها كيفما كانت وينتهي كل إنتظار إما بفرحٍ يعجّل دورانها، أو حزنٍ يبطئها..

مرّت الساعات وكأن كل دقيقة منها سنة، وحل الظلام لابد أنها قد عادت من عندهم لكنها ليست متصلة على الانترنت، الوسيلة الوحيدة بيني وبينها وبين يافا كذلك. أرسلت إليها لعلها ترى رسالتي فور اتصالها بالانترنت فترد عليّ:

ـ مرحبا أختي، أبشري ماذا حصل؟.

وعُدت بعدها من جديد للانتظار، عيناي على الهاتف، لعله يحن علي فيرن!. كنت اراقب الساعة الالكترونية للهاتف كيف يتزايد العدد ويتغير

شكله، كانت فكرة جيدة، فقد حولت الانتظار من وقت مفتوح إلى ستون ثانية وبتُ أنتظر الرقم ليتغير كل دقيقة، وأجمل لحظة فيها عندما ترى الثانية التي يتغير الرقم فيها، والأجمل من كل ذلك رأس الساعة، ففي ثانية ما، يتغير شكل كل الارقام في الساعة، جميل بالفعل مراقبة هذا الشيء، لم أجربه من ذي قبل، إلا في حالات كنت أراها مصادفة، أشياء كثيرة جميلة حولنا لكن إنشغالنا بالحياة يجعلنا لا نركز عليها..

و بينما أنتظر رأس الساعة بشغف، لكي استمتع بتغير شكل الارقام في الدقيقة الأخيرة من الساعة، رنّ الهاتف بصوت نغمة الرسالة.

ـ أهلا أخي، خير، خير إن شاء الله.

ـ تكلمي بسرعة، ماذا حصل؟.

ـ لقد تفاجأوا من مجيئي إليهم، وبالاخص أمها، ثم سألتني كيف عرفتم بطلاقها، قلت من صديقة يافا، والآن أنا آتيةٌ من أجل يافا اخي مازال يريدها، قالت هل يعلم بمرضها قلت نعم يعلم بذلك، زاد تعجبها، يعلم بكل شيء ويريدها!، إنه الحب يا أم يافا.

سكتت قليلا، ثم قالت نحن موافقون لكن يجب أن آخذ رأي والدها.

ـ والدها مرة أخرى..

ـ لا تخف هذه المرة لن يرفض ان شاء الله، موقفك أمامه قوي.

ـ ألم تَري يافا؟.

ـ بلى رأيتها، كان وجهها شاحبا من الذي حصل لها، لكن فرحتها بمجيئي كانت بادية على وجهها البريء.

أثناء المحادثة، جائتني رسالة من يافا «مرحبا حبيبي».

ـ أختي، يافا تراسلني سنكمل لاحقا، شكرا، شكرا لك كثيرا.

ـ تمام أخي، وصّل سلامي إليها.

ـ أهلا، يا روح الروح، كيف كانت المفاجأة؟.

ـ من أجمل ما تكون، لم أتوقع أنك تستطيع إقناع أهلك بهذه السرعة بالفعل كانت مفاجأة جميلة، انت مصدر سعادتي في الدنيا أنت فرحتي.

ـ قلت لكِ سأفعل المستحيل لنكون مع بعضنا، لكن لم يكتمل الامر بعد، عدنا لوالدكِ من جديد إن رفض هذه المرة، يجب أن تقنعيه أنتِ لا تكوني كما في المرة السابقة.

ـ لا تخف سأفعل المستحيل أنا ايضا، هذه المرة موقفي أقوى أمامه وهو يدرك الآن بأنني أعيش عقوبة خطأه، لا تقلق الامور لصالحنا.

ـ وماذا يريد من عَشِق تلك العينان إلا أن تكونا أخر ما يراهما قبل نومه وأول ما يراهما عند استيقاظه..

ـ للعاشق من أراد، وإن شاء بقيتا تحرسانه طول فترة نومه.

ـ عيناكِ لم تُخلقا للحراسة، بل خلقت الحراسة لهما.

ـ حبكَ يستحق أن يُخرق القانون من أجله.

ـ لم تخبريني ماذا كانت ردة فعل أمكِ، ماذا قالت؟.

ـ كانت مصدومة، بعد كل ما حصل ما زال يريدك!، بعدما رفضناه وأصبحتِ «مطلقة» ويعلم بمرضك، ما هذا الحب، لم اكن اتوقع أنه يحبكِ بهذا القدر.

ـ قولي لها، «لو كنتُ مريضة بالسرطان لما تراجع عن حبه لي، نعيش سوية ونموت سوية».

ـ لا أدرِ ما أقول حبيبي، ليت كل المحبين مثلك.

ـ لا تقولي شيئاً، أتذكرين يوم أعطيتكِ المنديل، قلت لكِ «لن يحبكِ أحد مثلي».

ـ أذكر ذلك، وأذكر كيف كنت قاسياً عليك، ولم أبالي بمشاعرك.

ـ لا تهتمي يا حبيبتي، لو لم أتحمل تلك لما كنّا اليوم نتكلم سوية أنا لا أذكرها معاتباً، وإنما الشيء بالشيء يذكر..

ـ يا روحي انت، إنتظر مني الخبر السعيد، الليلة ستفتح أمي الموضوع معه، وساكون بجانبها لا تقلق أبدا، هذه المرة لن يستطيع أحدٌ الوقوف في طريقنا.

ـ سيكون، أجمل خبر في حياتي كلها، والاسعد من كل ذلك أن تكوني أنت من تحملين ذلك الخبر..

أحيانا كنت أفكر كيف لتلك التي كانت تبخل علي بنظرة واحدة أن تتغير هكذا وتقول لي «حبيبي»!.

كنت أنتظرها الساعات الطوال لكي تنظر إلي ولو بنظرة واحدة فقط، لم أكن أحلم أكثر من ذلك، كلمة «حبيبي» كانت حينها أمنية مستحيلة كأمنيات الطفولة الخيالية بأن نملك القدرة على إصلاح الناس أجمع، أو أن نقضي على الفقر ولا نرى جائعاً في كل بقاع الأرض.

لكن الحب لا يكون حباً، إن لم يكن الاهتمام ديدنه، والتضحيات سبيله والصبر قوته.

الحب دون إهتمام كالسراب جميل من بعيد، وَهْم من قريب..

قالوا، إن الاهتمام يأتي بدافع الحب..

فإن إختفى.. إختفى الدافع معه..

مرّت تلك الليلة وأنا أتخيل الحوار الذي يجري بين أبيها وأمها، ما رأيه؟

هل ما زال رافضاً؟، هل ما زال يعتقد أني لا أصلح زوجاً لابنته بعد كل الذي حصل، لا لا أظن ذلك، كيف يرفض!. من يفعل ما فعلته، رغم رفضه لي أول الامر، ورغم كل الذي حصل لازلتُ أريدها..

إن لم يوافق من أجل إصراري عليها سيوافق من أجل كلام الناس، حتى تتخلص إبنته من تلك الكلمة البائسة «مطلقة «الذي كان هو السبب

فيها، سيفعلها انا متأكد من ذلك فكلام الناس أهم من أي شيء آخر عنده!!. رفض من أجل كلام الناس، واليوم سيوافق من أجل كلامهم، تناقض مقدس!.

لا يهم أياً كان السبب، المهم أن ينطق بتلك الكلمة ويخلصها من زنزانته الكئيبة كل تلك السنين العجاف.

اليوم التالي..

الساعة تشير إلى الدقائق الاولى من العاشرة صباحا، أتفاءل جداً بهذه الساعة من كل يوم ففيها تكلمت مع يافا لأول مرة قبل أكثر من أربع سنوات.

لقد تأخرت يافا، بدأ القلق والافكار المتشائمة تعاود ظهورها، لعله

رفض وهي لا تستطيع إخباري بما حصل، لعلهم لم يتكلموا بالامر، لربما لم يتسنَّ لهم ذلك، وبينما أنا أغوص في تلك الخيالات المتشائمة رنّ الهاتف فتحته:

ـ صباح الخير حبيبي.

ـ صباح النور عمري، أخبريني ماذا حصل؟.

ـ لا أدرِ ما أقول...

انقبض قلبي لابد أن هناك أمراً ما..

ـ تكلمي ماذا هناك؟.

ـ الحقيقة....

ـ لماذا تسكتين أكملي، لقد توقف جريان الدم في عروقي..

ـ لقد وافق، نعم وافق..

صرخت بأعلى صوتي مع قفزة للاعلى حتى طار الهاتف من يدي، ووقع على الارض وأصبح ثلاث قطع، الهاتف في جهة والغطاء الخلفي في جهة والبطارية في جهة أخرى وضعت البطارية في مكانها ويداي ترتجفان من الفرح.

ـ يا عديمة الاحساس، يا مجرمة ما الذي فعلتِه بي كاد قلبي أن يتوقف

ـ أردتُ ردّ مفاجأتك.

ـ وهكذا تكون المفاجأت يا مجنونة..

ـ هكذا أنا مجنونة، ومن الآن أقول لك أنا لست مريضة فقط ومجنونة أيضا تستطيع أن تتراجع فالوقت مبكر.

ـ إذن قولي لأبيك لقد تراجع، لم يعد يريدني.

ـ قبل أن تتراجع أخبر أختك أن أبي موافق.

ـ أتعلمين كنت أظن أنكِ كتلة من الهدوء، لا تتكلمين أبدا الا للضرورات القصوى لكن كلما تقربت منكِ إكتشفت أشياء أجمل وأجمل، يالَسعادتي بكِ.

ـ يا روحي أنت، لكنني لا أعرف التغزل مثلك، لذلك ألجأُ إلى الجنون في بعض تصرفاتي، كي أثير حفيضتك هكذا، سمّها دلع فتيات إن شئت.

ـ كل شيء منكِ وفيكِ جميل، ألا تشعرين بشيء غريب، لا شيء يفصلنا عن بعض.

ـ لكنك، بعيد متى سنلتقي ونجلس سوية..

ـ لا تحزني حبيبتي لقد تغلبنا على كل المصاعب ولم يبقَ سوى أن المدينة تتحرر من داعش وأعود إليكِ، ونقيم حفل زفافنا في نفس قاعة تخرجي، أكبر وأجمل قاعة في المدينة، تفاءلي حبيبتي سنجتمع قريبا ان شاء الله..

ـ إن شاء الله، حبيبي أخبر أختك أننا جاهزون لاستقبالها متى شاءت لنحدد يوم الخِطبة.

ـ خِطبة من؟.

ـ خِطبة خالتك من أبي..

ـ تباً لكِ، إن شاء الله في أقرب وقت ستكون عندكم.

ـ حبيبي يجب أن أذهب، سنتكلم براحتنا بعد اليوم.

ـ إعتنِ بنفسك جيدا.

أيعقل هذا..

هل بالفعل وافق؟..

كيف لي أن أصدق، لا يوجد هناك من يعترض..

ستكون لي، لي انا!.

هناك أشياء لا يستوعبها عقلنا للوهلة الاولى، أو تستمر عند البعض أياماً كالذي يأتيه خبر وفاة شخص عزيز، لن يصدق حتى ولو دفنه بيده بعد ذلك، ويبقى أياما هكذا، لا يستوعب رحيله. ومثله خبر الفرح كهذا الخبر من يافا، عقلي لا يستوعبه، كيف ذاك يافا ستصبح لي، ستكون مُلكي قطعة مني، أمام الناس وأهلها وأهلي!.

تأثير هواجس الخوف والقلق والانتظار والحرمان كل تلك الفترة قد إحتلت قلبي وخبر كهذا لم يجد له مكانا ليعلن دولته الفتية في القلب، بجانب تلك الامبراطوريات العظيمة.

بعدها..

أرسلت إلى أختي الخبر السعيد، وأن تجهز نفسها للذهاب اليهم والاتفاق على يوم الخِطبة، ومن ثم شراء خاتم بقياس إصبعها الناعم، الذي ترى فيه أثار العروق الخضراء من شدة بياضه. فهي من ستقوم بدوري وتلبسها الخاتم، في اليوم الذي كان يجب أن ألمس تلك اليدين الحريريتين وأضع الخاتم في إصبعها على مهل، لعل مدة لمس يدي ليدها تطول إلى اللانهاية، لكن كل هذا لن يحصل.

على الرغم من الفرحة الغامرة التي ملأت فؤادي حينها إلا أن البُعد كان المنغص الوحيد لها. وكأن البُعد قد كُتب على لوح هذا الحب. منذ بدايات قصتنا كنت أذهب وأنظر اليها من بعيد.. وعندما حصلت على صورة لها بالصدفة باحدى صور عيد الجامعة كانت تظهر فيها من بعيد وعندما أحبتني كان تواصلنا الوحيد هي الرسائل وكلّ واحد منا في مكان

واليوم سأخطبها أيضا من بعيد...

فمتى ستنتهي هذا البُعد يا ربِّ، ونلتقي وجها لوجه، متى!...

وتعود أمنية القصيدة المكتوبة على المنديل إلى البال..

أخبريني..

متى اللقاء سأمضي إليك حتى ولو مشياً إلى السماء
سأعبر دهرا بلا شراع حتى تجّف دموعي وتودع شراييني الدماء

بعدها:

حُدد يوم الخطبة في الثامن والعشرين من نيسان سنة 2016، أي بعد مرور أربع سنوات واربعة أشهر وعشرون يوما عن أول مرة تكلمت معها أربع سنوات من الصبر والانتظار والفقدان والحرمان والفراق والشوق والآهات والأمنيات والاحلام..

أ يعقل أن كل تلك الاحداث حصلت في أربع سنوات فقط!.

إن ما أشعره تجاوز حدود الزمن وحساباته..

الاختباء والنظر اليها من خلف الاشجار والجدران بعد شكوة أبيها..

الانتظار في الحديقة لساعات ومن ثم العودة بائساً شاحب الوجه..

الجفاء والانكسارات..

الرفض مرات ومرات..

تغلبت على كل ذلك!..

وأصبحت لي..

ما حجم هذا الانتصار!..

لو كان التاريخ بيدي، لسجلته في قائمة أعظم إنتصارات التاريخ..

نعم لقد إنتصرت، إنتصرت على الجميع، أبيها وأمها وصديقاتها وكل من وقف أمام حبي لها، لقد إنتصرت عليهم جميعا..

وآن للقلب أن يفرح..

وآن للحزن أن يخرس..

وآن للجراح أن تلتئم..

نعم، آن أوان تسجيل الذكريات الجميلة معاً..

كنت أردد دائماً..

أنا لا أملك ذكرياتٍ معك..

بل أملك ذكرياتٍ مع نفسي بك..

لكن منذ اليوم سنسجل ذكرياتنا سوية، سنتشارك في كل تفاصيل حياتنا الدقيقة..

من صباح الخير..

الى آخر رمشة من عينيكِ..

سأقص أظافرك..

وأمشط شعركِ..

سأكون لكِ أباً وأماً وأخاً وإن شئتي أختاً..

سأكون لكِ أنتِ، ولا أكون لنفسي شيئاً..

ولا أدري بعدها أأعطيت حقكِ أم قصرت فيه؟.

يافا..

هل خلقت عيناكِ من نفس طينة قلبي!..

ما هذا الزحام الشعوري المفرط عند النظر إليهما؟..

وما سر خلق تلك العيون ياربِ؟..

هل هما كالروح؟..

وما أوتينا من العلم إلا قليلا كي نفهمها!..

ثم:

حلَّ صباح الثامن والعشرين من نيسان، حتى تاريخ ذلك اليوم كان مرتبطاً بنا. فيوم ميلادي الثامن من آذار، ويوم ميلادها العشرون من تموز!. والفرق بين تموز وآذار اربعة أشهر، وحبنا دام اربع سنوات وأربعة

أشهر!.. لا أدري هل هي خزعبلات العاشقين، أم أنه بالفعل أمر يوحي للتفائل..

ذهبت إلى السوق لأشتري خاتما لي، أضعه في إصبعي ساعة

الاحتفال الذي ستحضره أختي بدلاً مني لتقوم بدوري.. في محل المصوغات، كان الاختيار أصعب من المعتاد، فأنا وحدي من سيختار الخاتم دون مساعدة خطيبتي..

وبعد عدة تجارب فاشلة لبعض الخواتم على إصبعي لفت إنتباهي خاتم منقوش عليه بنقوشات صغيرة كأنها مجموعة ماسات منثورة تحت ضوء الشمس، كل ماسة تعبر عن شكرها للضوء بعكس لون طيفٍ من أطيافها السبعة.. وضعته في إصبعي، كانه قد صُيغ له من منشأه، لوّحت بيدي ثم قلّبته شعور رائع إصبعي عليه خاتم، لكن خاتم من؟. يافا يا إلهي كم جميل هذا.. ثم قلت للصائغ أن ينقش عليها أول حرفٍ من إسمها وإسمي وتاريخ اليوم من الداخل..

هناك أشياء على الرغم أنها تقليدية واعتاد الناس على فعلها، لكن الفرحة التي فيها لم تفقد طعمها مذ يوم عرفتها البشرية..

كرسمة القلب المجروح بسهم، ما إن نرى نافذة وعليها ضباب إلا ورسمناها دون إرادة ثم نفخنا عليه ونحن نبتسم، ليتحول الضباب إلى قطرات ماء تزيل ذلك الشعور التقليدي المفرح!.

كان وقت إرتداء الخواتم عند يافا في الساعة الرابعة عصرا، هكذا أخبرتني لبست بدلتي الرسمية وكأنني في الحفل معها، وجئت بقالب كعك وزينت غرفتي.

وجلست أمام الكعك أنتظر الوقت، ليتهم كانوا يستطيعون فتح مكالمة فيديو او حتى مكالمة صوت، لكن الانترنت عندهم ضعيف جدا، الصور بالكاد تصل.لم يكن أمامي خيار سوى تخيل الموقف.

لا يهم، كل شيء يهون من أجل حبي لها، لا مكان للحزن اليوم..

وصل عقرب الساعة للرابعة ومعها أغمضت عيناي، ثم وضعت الخاتم في إصبعي على مهل، وشريط الذكريات بدأ بالعرض. لم يكن لدي مشهد مقارب لمشهد الخطبة، إلا اول وقفة معها في تلك الحديقة الجميلة..

إبتسامتها، عيناها، إحمرار خدها، تفاصيل وجهها.. وبدأت الدموع تذرف من عيناي دون إرادة، دون توقف..

في تلك اللحظة وصلت رسالة إلى هاتفي، فتحتها وإذ بصورة جعلتني أسرح فيها لا أدري كم من الوقت.. كانت أختي جالسة بقرب يافا ودموع الفرح والحزن سوية في عينيها.. فرحاً بالخطبة وحزنا بغيابي عنها..

كيف للعيون أن تحضر تلك الخطلة من الدموع، كيف لها أن توفق بين مشاعر الحزن والفرح، فدموع الفرح تكون مالحة، ودموع الحزن تكون حامضة، هل تملك العينان مختبراً كيميائياً لتحضر دموعاً متعادلة التركيب!..

وأما يافا فقد كانت سارحة في التفكير، وكأنها إلتقت معي عندما تذكرتها وأنا ألبس الخاتم. حتى صار حالنا كحال قيس وليلى عندما قال:

وأستغشي وما بي نعسةٌ لعل خيالاً منكِ يلقى خياليا.

لعل خيالي إلتقى خيالها في تلك اللحظة، فتبادلا لبس الخواتم ونحن لا ندري!.

لكن أجمل ما في الصورة كان إصبع يافا الذي فيه الخاتم.. كل

تلك المشاعر السابقة لا شيء أمام رؤية الخاتم في إصبعها.. شعور بالامتلاك، شعور أنها بالفعل أصبحت قطعة مني.. كانت تلك الصورة وحدها تستحق أن أبقى طول عمري أنتظرها وقبل دقيقة من موتي أراها وانتقل إلى جوار ربي، لحسبت أنها عوضت كل ذلك الانتظار..

ثم أرسلت إليها صورتي والخاتم بيدي..

ـ كم هو جميل خاتمك حبيبي، ذوقك جميل جدا..

ـ لم يكن كذلك، لكنه عندما علم بأنه سيكون خاتم خطيبكِ

أصبحت هكذا..

ـ ليتك حضرت اليوم وتبادلنا لبس الخواتم..

ـ لا تحزني حبيبتي، سآتي فور تحرير المدينة وألبسكِ إياه..

ـ لا أريدك أن ترتديه عندما تأتي إلي، لأنني أود أن أضعه في اصبعك بيدي.

ـ أعدك بذلك، وأعدك أن آتي إصبري لم يبقَ شيء هناك أخبار عن نيّة الجيش العراقي بتحرير مدينة الموصل من قبضة داعش قريباً..

ـ يا رب إن شاء الله، حبيبي التقطت صورا كثيرة سأحاول ارسالهم إليك

ـ لا ترسلي جميعها مرة واحدة، قلبي لا يتحمل رؤية كل تلك المشاهد في آنٍ واحد، أرسليهن بين فترة وأخرى..

ـ يا روحي انت، سلامة قلبك، حبيبي صديقاتي هنا لا أريد تركك لكن..

ـ إذهبي إليهن حبيبتي وافرحي بكل ما أُتيتي من قوة، أنا جسدي هنا لكن كل ما فيَّ عندك.

ـ وانا كذلك حبيبي، جسدي هنا وكلّي عندك..

ـ يكفيني هذا ويزيد، إرجعي إليهم حبيبتي الكل بإنتظارك الآن..

ـ أحبك.

ـ أعشقكِ.

طوال عمري لم أجرب الرقص في أي مناسبة كانت، كنت أرى ذلك أمراً مخجلاً أن يحرك الانسان جسمه بتلك الطريقة.. كانت حفلات الزفاف في مدينتنا وحسب التقاليد التركمانية السائدة في أيام أجدادنا العثمانيين، تقام سبعة أيام بلياليها، ثم مع مرور الزمن تقلصت إلى ثلاثة أيام وثم وصلت إلينا فأصبحت من ليلتها إلى اليوم الثاني فقط.

كل الحفلات التي حضرتها من قبل كان الرقص التقليدي هو السائد «إضافة إلى حركات الرقص المستحدثة بعد الاختلاط مع العرب»، حيث يشترك فيها كل شباب الحي وحتى كبار العمر، إلا انا لم أجرب يوماً أن أفعلها إطلاقاً!.

حتى في حفلة التخرج حاولت أن أتشجع لكنني لم أستطع.. لكن في هذا اليوم، يوم خطبة يافا.. لا أدري كيف، وضعت اغنية تركية على الهاتف وربطته بمكبر الصوت في الغرفة وبدأت أرقص وأرقص دون شعور، وكأني أعوض كل ما فاتني من تلك السنين، سنين الخجل وبعد ساعة وقعت على الارض وانا منهك، الابتسامة على وجهي وصورة يافا على الهاتف وقد ضممتها على صدري..

ثم أغمضت عيناي، وبدأت أردد..

الحب أقوى من كل شيء ومن أي شيء..

الحب يجعل الخجول جريئاً..

و المفترس اليفاً..

و المتوحش حنوناً..

الحب يجعل ضعفنا قوة، وصمتنا ثرثرة..

الحب يجعلنا نفعل كل ما لم نتصور فعله يوما..

الحب يغيرنا حتى أننا لا نعرف من نحن!..

وأيضا..

الحب يفعل عكس كل ما ذكرت ولم أذكر..

لو كانت للّغات عجائب الكلمات السبع، لكان الحب اولها..

لو كانت الابجدية حرفين فقط لكان الحاء والباء يفيان بحقها..

ماذا لو تحولت حروبنا حباً..

ماذا لو ابدلنا الرصاصة ورداً..

ماذا لو ألقينا على المدن بدل القنابل ياسميناً..

ماذا لو...

ما الذي كنا سنخسره..

كلفة قنبلة واحدة، تكفي لزرع ألف وردة..

الاولى، تُيتم الاطفال، وترمل النساء، وتُهدم البيوت وتشّرد الأُسر..

والثانية، تُفرح الاطفال وتبهج النساء وتعمر البيوت وتثبت القرار..

فهلّا أوقفنا مصانع الدمار؟..

هلّا أوقفنا سيل الدماء كما الانهار؟..

أم أن سنّة قابيل سيد القرار؟!..

لا أدري..

الرحيل..

يافا الحلم، أصبحت اليوم حقيقة، كانت أجمل حلم لي فتحولت إلى أجمل واقع، مع أنه كان منشوباً بالبعد المفروض علينا، لكن ما قيمة هذا البعد بعدما إستطعت كسب قلبها ومن ثم كسب أهلها، لا قيمة له..

فشتان ما بين الآن وقبل حبها لي..

الانتظار من جانب واحد كان مميتاً..

وكما قيل الاشياء التي تأتي من طرف واحد مؤلمة..

مثل كونك تنتظر والاخر نائم..

وتقلق والاخر يضحك..

وتكتب والاخر لا يقرأ..

وتحب والاخر لا يبالي..

لكن...

عندما نتشارك المشاعر من نحب يكون الامر هيناً على قلوبنا..

عندما نستيقظ ونجد رسالة على هاتفنا ممن نحب مزاج يوم كامل يتغير..

عندما نثرثر دون شعور بالملل..

عندما نتشارك بسرد أدق تفاصيل يومنا..

عندما نصارع النعاس ولا نكف عن التحدث..

عندما نُهدي الأغاني لبعضنا البعض ونشعر أن كلماتها كتبت لنا..

عندما وعندما..

كل شيء يصبح له طعم آخر عندما تكون المشاعر متبادلة..

في تلك الفترة، بدأت القوات العراقية بالتقدم نحو أطراف الموصل، بعد تحريرهم لمدينة الرمادي من أيدي داعش. كانت وجهتهم إحدى الاقضية التي تبعد عن الموصل 45 كيلو متراً..

وبفترة قياسية إستطاعوا دخول القضاء والتقدم نحو القرى التابعة له.

كانت تلك الاخبار مفرحة جدا، لأنهم كلما إقتربوا من المدينة إقترب يوم لقائي بها..

ـ حبيبتي، لم يبقَ الكثير سنلتقي أخيراً..

ـ لا أكاد اصدق هل سأراك واقفاً أمامي..

ـ ان شاء الله.. حبيبتي ماذا تريدين أن أحضر لكِ يوم مجيئي؟.

ـ أريدك أولا أن لا تلبس الخاتم في إصبعك كما إتفقنا سابقا، وأريد وردة حمراء فقط، وأنت كيف تريدني يومها؟..

ـ أنا لا أريد شيئاً سوى رؤية عينيكِ، عِديني أن تكوني بإنتظاري..

ـ أعدك حبيبي، سيكون أجمل إنتظار يومها..

ـ تذكرت، هناك شيء جميل أحضرته لكِ؟..

ـ ما هو أخبرني؟.

ـ رأيت شاباً يكتب على حبة الرز اسمين ثم يضعها في قلادة زجاجية على شكل ناب الفيل ويبيعها، طلبت منه أن يعمل لي واحدة منها ويكتب إسمينا عليها..

ـ كم أحب هذه الاشياء، أضفها إلى قائمة الطلبات عندما تأتي..

ـ هي لكِ، بالتأكيد سأجلبها..

ـ يا حياتي، أحبك أحبك..

ـ وانا أحبكِ أكثر..

سهرنا في ذلك اليوم نتحدث إلى الفجر، وانا لم أنم بعد الدوام يومها، كنت منهكاً جدا.. لكن حديثي معها لا يمكنني أن أسمح للنوم بأن يقطعه، في كل دقيقة أغسل وجهي بالماء البارد كي لا يأخذني النعاس

كيف أنام وأتركها!..

أنا الذي كنت أنتظرها ساعات طوال لكي أنال نظرة منها..

واليوم لم أنل النظرة بل نلت قلبها، وملأت فِكرها وخيالها..

لو رأيت حلماً أنها تسهر معي لهذا الوقت وتبادلني كلمات الحب والغزل لما صدقت.

كانت حربي معها ليست حرب منتصر ومهزوم..

كانت حرباً ينتصر فيه الطرفان..

حربٌ لا تشبه الحروب التي نعرفها..

في اليوم الذي أعلنت فيه إنتصاري..

لم تعلن أنها خاسرة إطلاقا..

ولو أعلنتْ الخسارة لما كان يعد ذلك إنتصاراً لي..

إنما الكفّة تعادلت..

ملكتُ قلبها، كما ملكت قلبي قبل سنين..

كان إنتصاراً لذاتي..

لصبري..

لإصراري..

إنتصارا على كل من قال أتركها فلن تُحبك يوما..

ها قد أحبتني، وليس هذا فقط، أصبحت لي طول العمر..

بعدها..

بدأت الاصوات تتعالى حول معركة تحرير الموصل من قبضة داعش، صفحات التواصل الاجتماعي مُلئت بصور العربات العسكرية المتوجهة نحو مشارف المدينة..

ومع إقتراب اعلان ساعة الصفر، إنقطع الانترنت عن المدينة، الوسيلة الوحيدة للتواصل مع العالم الخارجي من السجن الكبير الذي يعيشون فيه وكنت من ضحايا ذلك القرار، كالعادة ايام الفرح مع يافا لا تستمر كثيراً

قطعوا الوسيلة الوحيدة بيني وبينها، والحرب على الابواب كيف سأطمئن عليها؟..

كيف سأخبرها إن تحررت المدينة أنني قادم إليها؟..

متى تُرفع اللعنة عن هذا الحب يا إلهي؟..

هل حبنا سبب في كل ما حصل!..

لم يبقَ شيء إلا وفرّقنا عن بعض..

ماذا لو حددنا يوم الزواج، هل ستقوم الحرب العالمية الثالثة!..

لا أشك في ذلك..

مصائب الدنيا اجمعها صُبّت فوق هذا الحب!..

هل لا يوجد حبٌ غيره لكي تجتمع عليه بعضٌ من تلك المصائب!..

لا أريد شيئاً، مجرد رسالة ولو حتى ورقية، تخبرني أنها بخير..

ليتنا في زمن الرسائل على الحمام الزاجل، على الاقل لا يمكن منعها عن الطيران، لم يكن لأحد أن يستطيع قطع اخبار حبيبتي عني..

ما قيمة هذا التطور التكنولوجي، إذا لم يكن مفيداً في مثل هذه الاوقات

ماذا أفعل بسرعته الفائقة، إن كانت رسالتي لا تصل إليها..

تباً للتكنولوجيا، تباً للحروب، تباً لكل شيءٍ يفرقنا عن من نحب..

و في ليلة السابع عشر من أكتوبر، أُعلنت ساعة الصفر لتحرير مدينة

الموصل من داعش بالاتفاق مع التحالف الدولي الذي كانت تقوده أميركا، لمساندة الجيش العراقي من الجو.

ضجّت قنوات الاخبار المحلية والعربية وحتى بعض القنوات الاجنبية ليلتها بنقل المشاهد الاولى من بدء معركة التحرير.. كانت القوات العراقية حينها تبعد عن المدينة من الجانب الشرقي لنهر دجلة قرابة 25 كيلو متراً، الجانب الذي فيه بيت يافا، وبيت أختي..

على الرغم من الفرح الذي شعرت به لأن بدء المعركة يعني أن التحرير إقترب، وإقترب معه لقائي بتلك التي سكنت الروح والفؤاد.. إلا أن الخوف والقلق أخذ مني مأخذه، فلكل معركة خسائر في الارواح البريئة..

داعش لا يهمه أحد، مفخخاته لا ترحم صغيرا ولا كبيرا، تحرق وتهدم وتخرب كل شيء يصادفها.. لكن ما من سبيل، الخلاص من داعش لا يكون إلا هكذا..

لا نملك شيئا سوى الدعاء لهم بأن يحفظهم الله من كل مكروه..

في المدينة قرابة الثلاثة ملايين نسمة، كلهم تحت سلطة داعش، والمعركة كلما إقتربت من احياء المدينة، زاد الخطر على ارواح المدنيين العزّل.. كان أمام الجيش العراقي واضافة إلى القوات الكردية مهمة صعبة في التحرير والحفاظ على ارواح المدنيين في الوقت ذاته..

فالمعركة ليست بين جيشين في فضاء مفتوح، المعركة داخل المدينة ستتحول إلى حرب شوارع، من الممكن لقناص واحد على إحدى البنايات العالية أن يشل حركة فصيل كامل.

لكن صنف جهاز مكافحة الارهاب، أصحاب البدلات السوداء كما عُرفوا حينها كانوا مدربين جيدا على حرب الشوارع، واضافة إلى خبرتهم في القتال مع داعش في مدن عراقية أخرى.. خلال الاسبوع الاول من بدء ساعة الصفر للمعركة، تقدم الجيش العراقي كيلومترات عدة وباتوا قريبين جدا عن الاحياء المحاذية للمدينة، بيت يافا في احد الاحياء المحاذية للمدينة، لكن من جهة الجنوب الشرقي، والتقدم كان من جهة الشرق على وجه الخصوص لهذه القوات..

الخوف والتوتر يزداد مع ازدياد ضراوة المعركة، والاخبار تقول أن مقاتلي داعش ينسحبون من القرى المحاذية للمدينة، إلى داخلها، بغية تركيز المعركة فيها.. حياتي أصبحت بين صفحات الاخبار على مواقع التواصل الاجتماعي إلى القنوات الاخبارية إلى حوارات المحللين العسكريين إلى لقاءات قادة المعركة..

كنت أعيش المعركة بكل تفاصيلها، فيخيفني كلام محلل عسكري ويفرحني كلام آخر.. فأتحمس ليوم اللقاء، وأتخيل الوردة الحمراء في يدي مع الخاتم والقلادة كما طلبت يافا ذلك.. وأعيش أحلام اليقظة..

يافا بإنتظاري، واقفة من بعيد تلوح بيدها حبيبي أنا هنا..

أركض نحوها يافاااا..

وتركض نحوي كما الطفلة وأبيها..

فأحضنها حضنة تعادل عُمراً من الانتظار..

ثم أضع الوردة على شعرها، وألبسها القلادة، ثم أعطيها الخاتم

كي تضعه في إصبعي. أو أنثر أوراق الوردة الحمراء عليها، وأجثو على ركبتي فأعطيها القلادة والخاتم..

أحلام كثيرة تراودني وامنيات جمّة، ومشاعر هائجة تنتظر حين اللقاء..

حبيبتي، كوني بإنتظاري..

إفعلي أي شي لذلك اليوم أرجوكِ..

عندما أغمض عيناي أكون بقربك حبيبتي..

أتقاسم معكِ كل شعور الخوف من اصوات القنابل..

لا بل أغشكِ فيه، وأسرق من خوفكِ دون علمك..

حبيبتي..

ليتني أملك القدرة على كتم اصوات القنابل التي تخيفك..

ليتني أستطيع جعلها لا تنفجر ولا تهدم وتخرب..

ليتني أستطيع أخفاءكِ حتى تنتهي الحرب..

ليتني كنت سمعكِ، فأصم أذناك من تلك الاصوات..

ليتني وليتني كنت بجانبك..

لأكون لكِ درعاً حامياً..

وحضناً آمناً..

ليت بوسعي فعل شيءٍ لكِ يا حبيبتي..

لكنني لا أملك سوى الدعاء..

دعاءٌ لربٍ يستطيع فعل كل ما ذكرت وأكثر..

أستودعكِ عنده في كل ليلةٍ، بأن يحفظكِ من كل سوء..

فهو الحافظ لمن لا حافظ له..

وكل شيءٍ بيده، جلَّ ثناؤه وعظم سلطانه..

حبيبتي..

تحملي من أجلي..

من أجل حبنا..

كوني قوية، كوني بإنتظاري..

أول الغيث:

وأخيراً تناقلت قنوات الاخبار المشاهد الاولى لدخول القوات العراقية إلى أول الأحياء الشرقية للمدينة كانت فرحة الناس بالجيش العراقي في ذلك الحي كفرحة رؤية الطفل لأمه، فرحة السجين بالحرية، وهم بالفعل كانوا مسجونين لكن في مدينتهم..

وبفضل مهنية قوات مكافحة الارهاب التي كانت أول الداخلين على ذلك الحي كان الخراب قليلا، والبيوت المهدمة تُعد على الاصابع..

من يومها بدأت عجلة التقدم في تحرير الاحياء تتسارع تباعاً، مع انخفاض معنويات مقاتلي داعش، وارتفاعها لدى الجنود العراقيين. وبمدة قصيرة أصبحت أحياء عدّة تحت سيطرة الحكومة، لكن التقدم نحو حي يافا كان بطيئا بعض الشيء بسبب بُعدهم عن محور القتال.

ثم كانت الصدمة، ففي أحد الاحياء عندما تقدم جهاز مكافحة الارهاب لتحريرها فجر داعش فيها سبعة عشر سيارة مفخخة، حولت

جزءاً كبيراً من الحي إلى ركام ذهبت جراء انفجار تلك السيارات، عشرات القتلى من المدنيين المتواجدين في بيوتهم..

ومنذ ذلك اليوم حول داعش القتال إلى معركة الارض المحروقة، بعدما رأوا ترحيب الناس وفرحهم بدخول الجيش لمناطقهم، حتى أنهم أصدروا فتوى بردّة أهل تلك الاحياء واستباحة دمائهم وأموالهم!..

فالذي سلم من سيطرتهم لم يسلم من قنابل الهاون ومن قناصاتهم، وذهب ضحية ذلك الكثير من الشهداء، أطفالاً ونساءاً وشيوخاً!..

داعش حينها أظهر الوجه الحقيقي له، وبيّن أن علاقتهم بالاسلام علاقة إسم فقط، والاسماء لا علاقة لها بالأفعال، فليس بالضرورة أن الاسم يعبر عن الشخص او المجموعة. فما كل من سُمي محمداً كالنبي محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم.

لكن لم تثنِ تلك المفخخات من عزيمة الجيش، فعاودوا الهجوم إلى الحي نفسه وحرروه، ومن ثم إنتقلوا بين الاحياء واحداً تلو الاخر، حتى أنهم حرروا بعض الاحياء في غضون ساعتين..

وكل حيٍ يحرر تعود الحياة إليه من جديد، وكلما إبتعدت المعركة عن حيٍ نحو الداخل أصبحت حركة الناس والسوق فيه أكثر نشاطاً..

وتعود شركات الاتصالات ببناء أبراجها لإعادة خدمة الاتصالات والانترنت للمواطنين كانت الاخبار مفرحة أكثر من المتوقع، سرعة عودة الحياة إلى تلك المناطق تعني أن لقائي بها دان أجله.. فمن هذه الاحياء سيمر طريقي إلى رؤيتها، طريق الحلم لرؤية ملكة أحلامي..

إستمر التقدم بالاحياء، إلى أن وصلوا حي الذي تسكن فيه يافا، كانت هناك صفحة على موقع التواصل الاجتماعي «الفيسبوك «تنقل أحداث المعركة من خاصية البث المباشر المتوفر فيه... كانت تصور حيّهم من مكان مرتفع، شعور مميت يافا موجودة في أحد تلك البيوت..

وأصوات الطلقات النارية والقنابل والطائرات الحربية لا تهدأ..

بالله عليكم، على مهلكم، إدخلو الحي دون صوت..

لا تُخيفوا حبيبتي..

لا تحرموني منها ناشدتكم الله..

كان قلبي يسقط من مكانه بكل انفجار يحصل..

وكلما رأيت عمود دخان يتصاعد، صليت أن يكون بعيداً عن حبيبتي..

وعن الابرياء..

استمرت المعركة حتى الليل، ثم دخلته القوات العراقية..

وكانت الفرحة..

حرروا الحي أخيراً..

يافا لم يبقَ أي شيءٍ يفصلنا عن بعض، لم يبقَ أي شيء..

ها هم الجيش العراقي قد هدموا الحاجز الاخير بيني وبينك..

تجهزي يا حبيبتي، سآتي إليك كما وعدتك..

تجهزي ليوم لطالما انتظرناه..

يوم لا يشبه أي يوم..

سنحتفل بذكراه كل سنة، وأجلب لكِ وردة حمراء كما تحبين بهذه المناسبة العظيمة..

إن شئتي سنسمّيه يوم الاستقلال من حكم الانتظار الجائر..

ونجعله عطلة سنوية نزين فيه شوارع قلوبنا كما تفعل الشعوب..

فقط كوني على الموعد، كوني بإنتظاري..

إنتشر في تلك الايام مشهد مصور لشخص لقي أمه بعد أكثر من سنتين ونصف على الفراق، كان مشهداً مبكيا بكل تفاصيله..

وبالاخص شهقة الام عندما حضنت ولدها..

على الرغم من أننا لا نسيطر في مثل هذه المشاهد على دموعنا..

التي تنهمر كالسيل الجارف..

إلا أننا لا نرى المشهد بأصحابه..

بل نراه بانفسنا مع من نتمنى لقاءهم..

اليوم الموعود:

للمرة الثانية حلمي يتحقق، حلم الخِطبة، واليوم حلم اللقاء ساعات قليلة وأكون عندها.. كان يوما مشمساً من أيام الشتاء البارد، يشبه كثيرا يوم تكلمت معها لاول مرة قبل أكثر من خمس سنوات، السماء صافية لا غيمة فيها..

نزعت الخاتم من إصبعي ووضعته في علبته الخاصة، ووضعت

القلادة معه أيضا.. ثم توجهت إلى بائع الورود، جهّز لي باقة جميلة من ورود حمراء ملفوفة بقماشٍ أبيضٍ مزخرف، وشريط أحمر يشد القماش بطريقة فنية رائعة. حضّرتُ كلٍ ما أرادت حبيبتي ليوم اللقاء، القلب ينبض بسرعة ويخفق كل حين. كيف سأتحمل رؤيتها، رباه أعطتني القوة لأتحمل.. آخر مرة رأيتها فيها كانت قبل ثلاث سنوات، عندما كنّا في الجامعة، قبل أن تؤجل السنة الدراسية حينها، عندما سمعت أنها تزوجت من إبن عمها.. كم مر من الوقت على ذلك، كيف حدث كل هذا، خلال هذه الفترة القصيرة!.

ركبت في سيارة الاجرة، ثم توجهنا نحو المدينة.. وفي الطريق مررنا على بعض القرى قبل وصولنا إلى المدينة، فتذكرت أيام حبي لها عندما كنت أدخل عالمي الخاص الذي بنيته لها أيام الجامعة. ثم بدأ شريط الأيام بسرد ما في جعبته من الذكريات التي تحولت كلها في لحظته إلى ذكريات جميلة، حتى الانهيارات والرفض والجفاء والعقبات كلها إغتسلت وتزينت وتطهرت وتعطرت وتجملت لذلك اليوم.. وتحولت جميعها إلى ملامح ترسم في وجهي الابتسامة..

عندما رأيت عيناها لاول مرة، يوم كنت متأخراً عن المحاضرة..

عندما صارحتها بحبي وتغلبت على الخجل..

عندما سألتها ألا تحبينني، فقالت: لا.

عندما إشتكى علي والدها في الامن الجامعي!..

عندما أعطيتها المنديل وقلت لها «لن يحبكِ أحد مثلي.».

عندما جلبت اختها الصغرى ولم أستغل الفرصة لأقترب منها..

عندما أخبرني صديقي أن سبب تأجيلها للدراسة هو الزواج..

عندما قالت لي صديقتها يافا لم تتزوج..

عندما أرسلت لي رسالة تؤكد أنها لم تتزوج..

فتحت عيناي، أيها السائق كم بقي من الوقت لكي نصل إلى المدينة؟

نصف ساعة..

هناك متسعٌ من الوقت، عدت مرة أخرى لتكملة الذكريات..

يوم قالت لي أحبك..

يوم أرسلت لخطبتها ورفض والدها..

يوم أعطوها لغيري عندما أرسلت أختي للمرة الثانية..

يوم أخبرتني مريم أنها تزوجت..

يوم تطلقت، وكأنها من قسمتي وعادت إلي..

يوم إصراري على أهلي من أجلها..

يوم خطبتنا وصورة الخاتم في يدها..

واليوم هو أجمل من كل تلك الايام على الاطلاق..

اليوم سألمس يدها، ونتبادل ارتداء الخواتم..

اليوم سأرى عيناها، وابتسامتها..

نفذ الصبر على اللقاء متى أصل اليها..

بدأت البيوت تظهر أمامنا شيئا فشيئا، كما أختفت شيئا فشيئا يوم خروجي إلى مدينة كركوك لتكملة امتحانات المرحلة الرابعة.. من كان يصدق يومها أنني عندما أعود مرة أخرى للمدينة ستكون يافا بإنتظاري!. على الرغم أنني لم أخبرها بالمجيء، كي أفاجأها كما فاجأتني يوم وافق والدها على خطبتنا.

واخيراً دخلنا المدينة، كانت أثار المعارك واضحة جلياً على الجدران وبعض البيوت المهدمة، وشظايا الانفجارات الموجودة على أرصفة الشوارع.. وصلنا إلى أحد الاحياء، أوقف السائق السيارة وقال هنا أخر محطة عندي، نزلت وانتظرت سيارة أجرة داخلية، وانا لا أعرف عنوان بيت يافا بالتحديد أعرف اسم حيِّهم واسم الجامع القريب من بيتهم فقط.

ثم أتت سيارة أجرة إتفقت معه وتأكدت أنه يعرف العنوان، توجهنا إلى هناك.. بدأ جسمي يرتجف أكثر فأكثر، والقلب في خفقان مستمر ونبضات غير متوافقة.

سألني السائق ما بك ترتجف ووجهك محمر؟!..

خطيبتي بانتظاري، لم أرها منذ سنوات..

إييه، كم هي جميلة أيام الخطوبة، لكن بعد الزواج ستندم على يوم ولدتك أمك.

إبتسمت في وجهه إبتسامة صفراء وقلت، لربما..

لا أدري لما يكون حال أغلب المتزوجين هكذا، ولو كانت زوجته تشعل أصابعها شموعا له لا يكون راضٍ عنها!..

وصلنا قرب جامع قديم البناء، قال لي هذا هو العنوان، قرأت الاسم، نعم هو..نزلت من السيارة والباقة في يدي، وعلبة الخاتم في الاخرى..

بحثت عن شخصٍ ليدلني إلى بيتهم، لكني لم أجد أحداً كان الحي يبدوا فارغا من البشرِ، أو لربما بسبب الوقت، لأني وصلت هناك في الظهيرة وبعد التجول حول الجامع والنظر إلى آثار المعركة على البيوت والشظايا المتناثرة على الارض كأنها أوراق اشجارٍ صفراء في الخريف، رأيت رجلاً ستينياً متوسط القامة نحيل الجسد كانٍ يرتدي جلباباً أبيضاً وجهه يحمل برءاة صوفية مع لحية بيضاء زاد نضارته.

ـ السلام عليكم، أسألُ عن بيت أبا يافا؟..

نظر في وجهي ومن ثم على الباقة في يدي، ثم قال:

ـ عليكم السلام، ماذا تريد منه؟.

علمت أن الوضع الامني مازال هشاً والناس يخافون من مثل هذه الاسئلة في بلدي خشية أن يصيبهم أذىً من جراء إعطاء العنوان للغرباء

ـ أنا خطيب إبنته يافا..

تغير لون وجهه..

ـ ألم يخبرك أحدٌ عنهم شيئاً في الفترة الأخيرة؟..

ـ لا، في الحقيقة هم لا يعرفون بمجيئي، أحببت أن أفاجأها..

دمع عين الرجل حال ما سمع مني ما قلت..

ـ ماذا هناك أخبرني مالذي حصل؟..

ـ إتبعني، سأخذك إلى بيتهم..

في الطريق الخوف والقلق كادا يقتلانني من تصرفات الرجل الغريبة..

وصلنا قرب بيت مهدّم، وقف الرجل، ووقف قلبي معه..

ـ هذا بيت أبو يافا..

ـ جثوت على ركبتَي، ما الذي حلّ بهم، لا تقل لي...؟

ـ في يوم تحرير الحي، تجمع مقاتلي داعش هنا بالقرب من بيتهم، كانوا هم بالداخل وعلى الأغلب أن الطائرة المسيرة كشفت تجمعهم، وظنوا ان البيت مركزاً لداعش فتم قصفه، وبعد التحرير أخرجنا جثثهم ودفناهم في المقبرة القريبة من الحي.

وقعت الباقة والعلبة من يدي، وصرخت يافاااااااا.

ركضت فوق حطام البيت أضرب بعضه ببعض كيف وقعتم عليها كيف

كيف قتلتم حبيبتي بكل هذه البشاعة بالله عليكم كيف فعلتموها.

ثم رأيت أثار دمٍ على حائط نصف مهدم..

هرعت إليه..

شممتُ الدم فأغشي عليَّ..

لا أدري كم من الوقت بقيت، حتى أيقظني ذلك الرجل وهو يبكي ويقول:

ـ هذا قضاء الله وقدره يا ولدي..

ـ خذني اليها، خذني إليها أرجوك..

حملني من يدي بالكاد كنت أرى أمامي من كثرة الدموع..

وصلنا إلى المقبرة، جثوت على قبرها..

يافا..

كيف وضعوكِ في القبر..

كيف فعلوها قولي لي كيف..

أين وعدكِ لي، لما لم تنتظريني..

ها قد أتيت، وجلبت لكِ كل ما طلبتِ..

هذا الخاتم لم ألبسه، قومي لتضعيه في إصبعي..

قومي أرجوكِ، أنتِ لم تموتي، لا لا لم تموتي..

هذه مزحة منكِ..

كعادتكِ..

حبيبتي..

قومي ما زلتِ صغيرة على القبر..

قومي كي ألبسكِ القلادة، أنظري كم هي جميلة..

أنظري إلى أسمكِ، إنظري إلى الاحرف كيف نقشت على الحبة..

هذه الوردة الحمراء كما طلبتي..

قومي أرجوكِ...

كفاكِ مزاحاً..

أهكذا تستقبلين حبيبكِ..

من تحت التراب!..

يافا..

هكذا رحلتي بكل هذه البساطة..

بعدما تغلبنا على الجميع..

أبوكِ، أمك، صديقاتك، مرضك، طلاقك وأهلي..

الكل تغلبنا عليهم..

هكذا، أنهيتِ قصتنا في الحياة..

قومي يا حبيبتي أرجوكِ..

ماذا أنتظر بعدكِ..

ومن أنتظر؟..

العالم قد فرغ من البشر..

لم أعد أرى أحداً..

ولا أسمع صوت مخلوق..

هل مات الجميع يوم مُتِّ..

أم أنا الميت على قيد الحياة..

لذا لم أعد أسمعهم!!..

أ تذكرين يوم قلتِ لي..

ـ «أحبك حتى الموت.».

فقلت لكِ..

ـ «أحبكِ حتى الجنة الموت لا يفرقنا.».

حبيبتي..

إنتظريني هناك في الجنة..

حياتي بعدكِ قصيرة..

لن أتأخر عليكِ..

سآتي أليكِ بخاتمٍ وقلادة..

وأقطف لكِ من ورود الجنة..

إنتظريني..

إنتظريني..

يافا....

كم كان جميلا ذلك اليوم، حين تكلمنا لاول مرة..

إنتظرتكِ حينها حتى وقت الخروج.

كنت أنظر اليكِ وانتِ تبتعدين شيئا فشيئا..

بتلك الخطوات الهادئة، كهدوء ملامح وجهك الجميل..

واقول للايام ماذا تخبئين لنا؟..

هل ستهبينني اياها؟..

ام أنك رضعتي القسوة من الحياة؟!.

يافا....

ها أنا اليوم، ادفن الذكريات بين سطور الرواية..

بتناغم ترتيب القبور على باحة المقبرة...

وأضع حجراً على رأس كل ذكرى بيننا..

واكتب عليه «كل ذكرى ذائقةُ الموت»..


سطور
للنشر والتوزيع
كل ذكرى .. ذائقة الموت
إلى تلك التي أسرت قلبي في سجن بلا قضبان ..
و وضعتني فيه حراً طليقاً دونما قيدٍ ولا سجّان ..
إليكِ أكتب هذه الكلمات المبعثرة ..
التي هاجت في داخلي , ولم أستطع
إفراغها إلا بين دفّتي هذه الرواية ..
.
.
فلتحيي ..
بعيداً عني داخل قلبي ..
وعلى جدران ذاكرتي ..
وبين صفحات أيامي ..
وأسطر كلماتي ..
تصميم الغلاف : بلال حامد